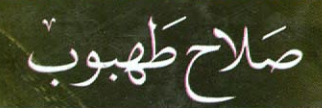
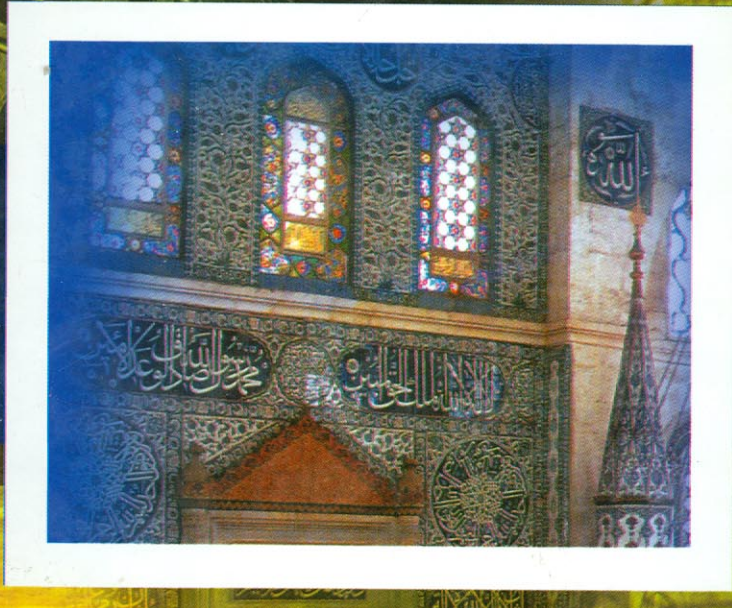
موسوعة التاريخ الإسلامي

العصر الأموي







الناشر

دار أسامة للنشر و التوزيع

الأردن - عمان

هاتف : ٥٦٥٨٢٥٣ - فاكس : ٥٦٥٨٢٥٤ - تلفاكس : ٤٦٤٧٤٤٧

ص. ب : ١٤١٧٨١

حقوق الطبع محفوظة للناشر

٢٠٠٩ م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(١٠٤٩ / ٥/ ٢٠٠٤)

٩٥٦,٠٤

موسوعة التاريخ الإسلامي: العصر الأموي/ جمع وإعداد صلاح طهبوب.- عمان: دار أسامة للنشر، ٢٠٠٤.

(   ) ص .

ر.إ :١٠٤٩/٥/٢٠٠٤.

الواصفات :/التاريخ الإسلامي// العصر الأموي//الإسلام/ الموسوعات/

تم إعداد بيانات الفهرسة و التصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

المقدمة

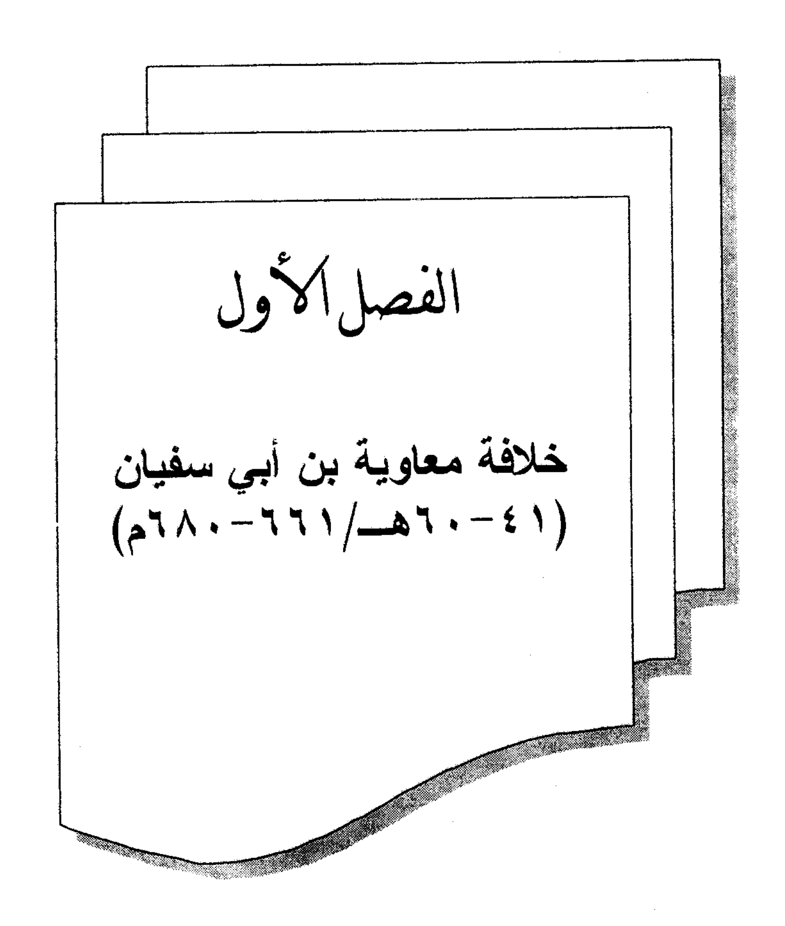
بعـــد انتهاء حكم الخلفاء الراشدين باستشهاد الخليفة الرابع علي بن أبي طالب (رضي الله عنه). بويع معاوية بن أبي سفيان بالخلافة سنة ٤١ هـــ. وهــو أحد أفراد البيت الأموي وكان قبل تسلمه قيادة الدولة العربية الإســلامية والياً على بلاد الشام منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عــنه). وتســمى هذه المدة من تاريخ الدولة العربية الإسلامية بالعصر الأمــوي نظراً لتسلم الأمويين العرب قيادة الدولة من سنة (٤١هـ - ١٣٢ هـ).

ولقد اتخذ الأمويون مدينة دمشق عاصمة للخلافة الأموية. وأدخلوا مــبدأً جديداً في النظام السياسي للدولة العربية الإسلامية. وهو مبدأ الوراثة في الحكم وتحولت بذلك الخلاقة إلى نظام سياسي جديد وابتعد تدريجياً عن مبدأ الشورى.

لقــد تطورت الدولة العربية الإسلامية في عهد الأمويين وأصبحت بمســتوى الدولــة القومــية المســتقرة. وحصل تحول وتطور نحو الحياة الحضرية. وجعل الأمويين من الدولة الجديدة دولة عربية تستند في أسسها السياســية والإداريــة إلــى العــرب. كما تهيأت الفرصة لكي تمتد حركة الفــتوحات وتصل إلى أقصى ما عرفته حركة الفتح والأتساع في الإسلام. ورافق ذلك تعريب شامل في دواوين الدولة ومؤسساتها النقدية.

إن اعــتماد الخلافة الأموية على مبدأ الوراثة في الحكم جعل الحكم يــتجه تدريجياً نحو الاعتماد على التكتل القبلي الذي أضعف الدولة. وكان

عــاملاً فـــي تدهورهـــا السريع وسقوطها في سنة ١٣٢هـــ، وقيام الدولة العباسية.



الفصل الأول

خلافة معاوية بن أبي سفيان
(٤١-٦٠هـ/٦٦١-٦٨٠م)

عانــت الدولة العربية الإسلامية من فرقة شديدة بعد مقتل الخليفة عثمان ابـــن عفان فقد شهد عصر الخليفة علي بن أبي طالب (٣٥هـ-٤٠هـ/٦٥٦-٦٦١م). حـــربا أهلـــية وتمرداً لبعض الولايات المفتوحة وانتهت الحرب الأهلية بوصول معاوية بن أبي سفيان إلى الخلافة. وقد واجه معاوية معارضة شديدة من قـــبل فـــئات متعددة لكنه تمكن من التغلب عليها وأعاد الأمن والاستقرار للدولة العربـــية، ثم استأنف العرب في عهده حركة الفتح والتحرير في الشرق والغرب ودكوا معاقل البيزنطيين وحاصروا عاصمتهم القسطنطينية.

ويمكن أن يقسم عصر معاوية إلى قسمين رئيسين:

انتقال الخلافة إلى الأمويين:

كـــان مـــن نـــتائج معـــركة صفين (٣٧هـ/٦٥٧م) أن ضعف الوضع العسكري والسياسي للخليفة علي بن أبي طالب (رض) فقد حاربه الخوارج بشدة وتراخى أهل البصرة عن تأييده وكان أهل الكوفة معه بآرائهم فقط.

وكـــان من بينهم المحايد والمؤيد لعثمان ولحق بعضهم بمعاوية بن أبي ســـفيان وقد أدى ذلك إلى ضعف سيطرة الخليفة علي على الولايات الشرقية فقد تمـــردت بعض الولايات الفارسية وحاول أهل كرمان الامتناع عن دفع الخراج ونجح بعض الطامعين من الفرس في طرد عمال الخراج وسيطروا على نواحيهم وما يحيط بها.

وقد وجه معاوية حملات إلى المدن التي في طاعة الإمام علي، فقد وجه النعمان بن بشير إلى عين النمر. وسفيان بن عوف إلى هيت والأنبار، وعبد الله ابن مسعدة القراري إلى تيماء. ووجه إلى الفطقطانة الضحاك بن قيس.

ويــرى فلهــاوزن أن هذه الحملات كانت مجرد غارات لأهل الشام لأنهم كانوا يعودون بالغنائم وكان أهل الكوفة يطاردونهم ويدركونهم ويقتلونهم.

وفي سنة ٤٠هـ/٦٦٠م عقدت هدنة قصيرة بين الخليفة علي ومعاوية إذ اتفقــا على أن يكون العراق تحت حكم الخليفة علي والشام تحت حكم معاوية ولا يتدخل أحدهما في شؤون الآخر ولا غارة ولا غزو بينهما.

وفي السنة نفسها أعلن معاوية نفسه خليفة للمسلمين وأخذ البيعة من أهل الشام.

وبــذا يكــون معاويــة قد تحدى الخليفة علي فقرر إعداد حملة لمحاربة معاوية لكن اغتياله حال دون ذلك. وبعد اغتيال الخليفة علي بايع أهل الكوفة وما جاورها الحسن بن علي.

وفــي سنة ٤١هـ/٦٦١م دانت الدولة العربية الإسلامية لمعاوية بن أبي ســفيان. إذ أن الحسن بن علي حينما رأى ضعف أنصاره وقلة إخلاصهم لقضية تــنازل عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان رغم معارضة أخيه الحسين. وعقدت معاهدة بين الطرفين التزم فيها معاوية أن يعمل بكتاب الله وسنة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأن تكون الخلافة له ما دام حياً ويكون الناس آمنين حيث كانوا من أرض الله وان لا يولي أحداً بعده.

ولما صالح الحسن بن علي معاوية حاول قيس بن سعد قائد جيش الحسن ووالــي أذربــيجان الــتمرد وعدم الدخول في طاعة معاوية لكن جيش الحسن استجاب للحسن وترك قيس بن سعد. وتمكن قيس بن سعد من ضم الشرطة إليه وحــاول معاويــة مصالحة قيس بن سعد رغم محاولة عمرو بن العاص بإغراء معاوية بمحاربة قيس، فأبى قيس المصالحة في بداية الأمر لكنه لان وحصل على أمان له ولأنصاره ومؤيديه فأعطاه معاوية ما أراد.

وكانــت هــناك ثلاثة أحزاب عربية. أولها أنصار الأمويين ومعظمهم من أهل الشام، وثانيها العلويون وهم الذين يرون أن أعقاب الإمام علي خير من غــيره وأحــق بولاية أمر المسلمين ومعظم هؤلاء في العراق ومصر، والحزب الثالــث هــم الخــوارج الذيــن يرون الحزبين الأول والثاني كفاراً ويستبيحون دماءهم ويرون أن كلا الحزبين قد ألحدا في الدين.

إن الــذي كانــت تحتاجه الدولة العربية الإسلامية هو إدارة قديرة تدير أمــرها وتوفر لها الأمن والاستقرار وكان معاوية آنذاك هو الشخص الذي يملك القابلــيات للقيام بهذه المهمة، فقد كان صبوراً على المكروه وحليما لدرجة كبيرة وأطــول باعاً من غيره في السياسة، وقد وصفه ابن الفقطفي قائلا: كان معاوية عــاقلاً في دنياه، لبيباً عالماً، حليماً ملكاً قوياً، جيد السياسة حسن التدبير لأمور الدنــيا، عاقلاً حكيماً فصيحاً بليغاً يحلم في موضع الحلم ويشتد في موضع الشدة إلا أن الحلــم كان أغلب عليه، وكان كريماً باذلاً للمال محباً للرياسة شغوفاً بها وقــد وصفه فلهاوزن قائلاً كان معاوية في جوهر أمره رجلا دبلوماسياً وسياسياً وكــان يترك الأمور حتى تنضج ولم يكن يتعجلها إلا في بعض الأحيان وكان لا يلجأ إلى القوة إلا كارهاً.

إن قابلــيات معاويــة وصــفاته هي التي مكنته من أن يخضع له أبناء المهاجرين والأنصار وكل من يعتقد أنه أولى بالخلافة.

- **دور معاوية بن أبي سفيان في تأسيس الدولة الأموية:**

- **أهم ولاة معاوية:**

اعــتمد معاويــة علــى مجموعــة من الولاة الأكفاء في تذليل المشاكل والقضــاء علــى الثائريــن ضده، وتثبيت حكمه في الولايات، وتروي المصادر

الكثـــير عن هؤلاء الولاة أكثر مما ترويه عن أخبار معاوية نفسه. وأبرز هؤلاء الولاة عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبه، وزياد بن أبيه.

لـــم تكـــن أحاسيس معاوية أيضاً ودية تجاه عمرو بن العاص ولم تكن أحاســـيس ابن العاص ودية تجاه معاوية أيضاً، وقد أدرك معاوية أن عمرو بن العـــاص من دهاة العرب المشاهير وهو بأمس الحاجة لخدماته التي يستطيع أن يجنـــي ثمارهـــا، وفي الوقت نفسه شعر عمرو بن العاص أنه يستطيع أن يجني ثمار دهائه لقاء خدماته لمعاوية، كل ذلك جعل الاثنين يتبادلان المنفعة ويخفي كل منها ما في نفسه تجاه صاحبه.

وروى ابن الطفطفي" ومن دهاء معاوية استمالته لعمرو بن العاص أحد الدهـــاة المشـــاهير. وكـــان عمرو عندما نشبت الفتنة بين علي ومعاوية معتزلاً للفريقين فرأى معاوية أن يستميله ويتقوى به، ووعده ولاية مصر، ومصر كانت الأمـــل الـــذي تهفو له نفس ابن العاص وبهذا انضم عمرو إلى معاوية وساعده مساعدة كبيرة مع أنه لم تكن بينهما مودة قلبية، وكانا يتباغضان سراً" ولما استقر الأمـــر لمعاوية ولى عمرو بن العاص مصر وظل عمرو واليا عليها حتى مات ســـنة (٤٣هـــــ/٦٦٣م) وولي معاوية بعده ابنه عبد الله فبقي واليا عليها حوالي سنتين.

وكـــان المغـــيرة بـــن شـــعبة وزياد بن أبيه ثقفيين من الطائف. المدينة المعـــروفة بجمـــال موقعهـــا وطيب هوائها وقد اشتهر الثقفيون بالفطنة والذكاء والدهـــاء وقـــد برز منهم في العصر الأموي عدد كبير من أهل المواهب ومنهم زياد بن أبيه والحجاج بن يوسف والمختار بن أبي عبيد الثقفي ومحمد بن القاسم وكثير من الرجال البارزين.

وكان المغيرة بن شعبة قد أسلم سنة (٨هـ-٦٢٩م) وفي سنة ٩هـ كلفه النبي (صلى الله عليه وسلم) بهدم صنم اللات في الطائف، ولكي ينال شرف لمس جسد النبي الطاهر فقد طرح خاتمه في قبر النبي قبل ان يهال عليه التراب. وأخذ فيهما بعد يبني على ذلك أمانيه.

ولما كان المغيرة رجلاً فضولياً فقد أخذ يدس نفسه في أمور الخلافة الكبيرة ليظهر للناس أنه من الأرستقراطية. ومثل هذه الأمور الكبرى مجلس الشورى ومحكمة المحكمين في دومة الجندل.

وقد استفاد من معرفته بالفارسية فأخذ يدعي أنه يستطيع أن يناقش في أمور الإسلام مع الفرس، ولذا فقد اختير مفاوضاً ورسولاً.

عين المغيرة والياً على البصرة بعد وفاة عتبه بن غزوان وقد نظم الدواوين وفتح ميسان والأحواز وشهد معركة نهاوند. وفي سنة ٢١هـ-٦٤١م عين والياً على الكوفة وفي عهده فتحت ميديا وأذربيجان ولمع نجمه في عهد الخليفة علي.

وفي الصراع الذي دار بين الخليفة علي ومعاوية اختلف المغيرة مع الخليفة علي وولى وجهه صوب معاوية وعرف معاوية كيف يستفيد منه فقد عينه والياً على الكوفة بعد أن أخذ البيعة له من العراقيين.

قدم المغيرة إلى الكوفة وهو كبير السن وقد صقلته الحياة، ولذا فقد حرص ألا يصطدم بمن فوقه ولا بمن تحته ولم يكن متحمسا لمعاوية ولا متحمسا ضد الأحزاب المتصارعة في الكوفة بل كان همه الاحتفاظ بولاية الكوفة وقد وضع سياسته بقوله" لا أحب أن أبتدئ أهل هذا المصر بقتل خيارهم وسفك دمائهم فيسعدوا بذلك وأشقا، ويعز في الدنيا معاوية ويذل يوم القيامة المغيرة

ولكن قابل محسنهم وعفى عن مسيئهم وحامد حليمهم وواعظ سفيههم حتى يفرق بينه وبينهم الموت".

نجح المغيرة في التخلص من الخوارج أعداء الدولة الألداء وذلك بتعاون أهـل الكوفـة معه، لأنه نجح في كسب رضاهم عنه، وذلك لأنه لم يشتد معهم رغم ميوله العلوية الصريحة. ورغم معرفته بأنهم سوف يتحركون عسكريا ضد معاويـة لأنـه كان على يقين أنه سوف لن يشهد تحركهم حياً، وقد أراد العافية لنفسه وأراد أن يلقي ذلك على كاهل من سيخلفه وان تساهله وليونته مع الكوفيين جعلهم يقولون أنهم ما وليهم والٍ بعد مثله وقد ظل المغيره والياً على الكوفة حتى مات سنة (٥١هـ/٦٧١م) فضم معاوية الكوفة إلى زياد بن أبيه والي البصرة .

أمـا زياد فقد كان والياً لعلي بن أبي طالب على فارس وقد فشل معاوية في استمالته إلى جانبه في صراعه ضد الخليفة علي وعندما اغتيل الخليفة علي أعلـن زياد استقلاله في فارس وحاول معاوية أن يوسط المغيرة لضم زياد إلى جانـبه وقد نجح المغيرة بعد جهد بإقناع زياد بالشخوص إلى معاوية سنة (٤٢ هـ-٦٦٢م) بعد أن تسلم عهد الأمان من معاوية، وعندما وصل زياد إلى معاوية سأله معاوية عن أحوال فارس فأخبره بما أنفقه وبما حمل إلى الخليفة علي وبما بقي عنده فصدقة معاوية وقبض منه ما بقي عنده ولم يكن لزياد أي معروف ولذا فقد كان يعرف بزياد بن أبيه أو زياد بن سمية ويروى أن أبا سفيان قد أعترف فـي أواخر أيامه أمام علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب وعمرو بن العاص انه أجتمع بأم زياد ولكن نسب زياد إلى أبي سفيان لم يتم إلا في عهد معاوية سنة (٤٤هـ-٦٦٤م) عـندما أعترف معاوية بأخوته لينتفع به وبمواهبه ومنذ ذلك الحين أصبح يسمى زياد بن أبي سفيان. وكانت الحالة في البصرة سيئة جداً فقد أصـبحت الأمـور بـيد القبائل لا بيد الحكومة، وغلب على البصرة سفهاؤها، وضـعف سلطان الدولة فيها، وانتشر السلب والنهب والقتل في رابعة النهار وقد

ضـــجر معاويـــة مـــن لين والي البصرة عبد الله بن عامر الأموي فعزله وعين الحارث بن عبد الله الأزدي مكانه وكان يريد منه أن يمهد الطريق إلى زياد.

وفـــي ســـنة (٤٥هـــــ-٦٦٥م) ولـــى معاوية زياداً البصرة وخراسان وسجستان والهند والبحرين وعُمان، فقدم إلى البصرة في أواخر السنة المذكورة والأمـــور فـــيها مضطربة جداً والفحش فيها منتشر والسرقات والجرائم مستمرة فخطـــبهم خطبته المعروفة بالبتراء وإنما قيل لها ذلك لأنه لم يحمد الله فيها ولما فـــيها مـــن روائـــع الحكم وبديع الحكم وبيان سياسته في حكم البلاد وعدد فيها مســـاوئ أهـــل البصـــرة وتوعدهـــم بـــالويل والثبور وقال لهم:" ليأخذن الولي بالمولى، والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصي، والصحيح منكم في نفســـه بالســـقيم حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: أنج سعد فقد هلك سعيد، أو تستقيم لي قناتكم.".

ونجح زياد في القضاء على الفوضى والاضطرابات وإقرار الأمن لا في البصـــرة وحدها بل في الولايات الفارسية، ويذكر الطبري أن زياد أول من شد أمـــر الســـلطان وأكد الملك لمعاوية إلزام الناس الطاعة وتقدم في العقوبة وجرد الســـيف وأخـــذ بالظنة وعاقب على الشبهة وخاف الناس في سلطانه خوفاً شديداً حـــتى أمن الناس بعضهم بعضاً حتى كان الشيء يسقط من الرجل أو المرأة فلا يعـــرض لــــــه أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه وتبيت المرأة لا تغلق عليها بابها، وســـاس الـــناس سياسة لم ير مثلها وهابه الناس هيبة لم يهابوها أحداً قبله، وقد حقق زياد هذا الأمن والاستقرار بطريقة تشبه إلى حد ما الحكم العرفي لأن "أخذ الولي بالمولى والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصي والصحيح في جســـمه بالسقيم" أمر ليس جارياً في القانون الشرعي الذي يقصر المسؤولية على المجرم وإنما ذلك شيء يلجأ إليه الإداريون لتخفيف الآم الجرائم، وإرهاب الناس حتى يأمن الناس شرهم وفائدة ذلك في الغالب وقتيه.

وبعــد موت المغيرة أضيفت الكوفة إلى زياد سنة (٥١هـ-٦٧١م) وبذا يكــون أول من أجمعت له البصرة والكوفة. كان زياد يقيم ستة أشهر في الكوفة وســتة أشــهر في البصرة. وكانت مهمته في الكوفة أشد منها في البصرة لقوة المعارضة في الكوفة وكان حجر بن عدي على رأس المعارضة في الكوفة. وقد نصــب المعارضة في الكوفة خليفة زياد (عمرو بن الحريث) حينما كان يخطب في المسجد، فأسرع زياد بالقدوم إلى الكوفة وهدد أهلها وطلب منهم الابتعاد عن حجــر بــن عــدي ففعلوا، ثم ألقى زياد القبض على حجر بن عدي وأرسله مع مجموعة من أنصاره إلى معاوية فقتل حجرا وبعض أنصاره.

وكــان لسياسة الشد التي أتبعها زياد ضد المعارضة في العراق أثر في تكتلهم وازدياد النقمة على بني أمية من جهة وعلى زياد من جهة أخرى.

وقــام زياد بأعمال عمرانية كثيرة في العراق. ويذكر الطبري أن زياداً أصلح مسجد الكوفة، وأمر بإلقاء الحصى فيه ويعلل البلاذري أن زياداً فعل ذلك لأن الناس كانوا يصلون فإذا رفعوا أيديهم تربت ثم نفضوها فخشى زياد أن يظن الـناس أن نفض الأيادي سنة في الصلاة فأمر بجمع الحصى وإلقائه في صحن المســجد. ويعتــبر زيــاد أول مــن عمل المقصورة وأول من أنشأ المنائر في العــراق وفــي البصــرة بالذات ومن أعمال زياد الإدارية أنه قسم الشرطة في الكوفة إلى أربعة أقسام في كل قسم منها تتمثل القبائل المختلفة من غير أن يكون على رأسهم رئيس القبيلة بل رئيس تعينه وقد قسم جند البصرة إلى خمسة أقسام ولكــن الصــبغة القبلية كانت أكثر ظهروا في هذا التقسيم من تقسيم الكوفة وبعد الإجــراء المذكور من العوامل التي ساعدت على إضعاف سلطة رؤساء القبائل. واهتم زياد بنظافة الشوارع وتسويتها بعد المطر.

فقد أمر أصحاب الدور بأخذ قسم من الطين من فناء دورهم لتسوية الشوارع به، وكان يأمر الناس بتنظيف الشوارع وقد فكر بتطوير هذا المسلك فاشترى عبيدا للقيام بهذه المهمة. وبذا يكون أول من أوجد التنظيف العام للشوارع.

وأمر زياد بنقل خمسين ألف من البصرة والكوفة بعائلاتهم إلى خراسان وأسكنهم فيما وراء النهر، ولعل ذلك يعود إلى رغبة زياد في التخفيف من حدة التوتر السياسي في العراق، أي رغبته في إبعاد القبائل التي يخاف منها أو أنه أراد أن يشجع حركة التعريب في خراسان، ولغرض القضاء على حركات العصيان المستمرة في خراسان ولجعل خراسان مركزاً لغزو بلاد ما وراء النهر ولكي تصبح خراسان قاعدة ثابتة للعرب، وربما قصد من نقلهم أيضاً تخفيف الضيق الاقتصادي في البصرة والكوفة حيث جذبت البصرة الكثير من القبائل العربية من البحرين والحجاز وجميع أنحاء الدولة العربية الإسلامية وكان بعضهم يتمتع بالعطاء وبعضهم محروم منه.

وكذلك لتخفيف التدهور الأخلاقي الذي كانت تعيشه البصرة لكثرة اللصوص والقتلة ويظهر أنه أبعد بعض هؤلاء المشاغبين مع الأعداد التي هجرها.

وكان من نتائج نقل هذا العدد الضخم من العرب إلى خراسان إيجابيات كثيرة وقد هجر زياد عدداً كبيراً من الأزد إلى مصر، وقد أطلق المصريون على الأزد المهجرين إلى مصر اسم العراقيين لمجيئهم من العراق ويرى الدكتور العلي أن الذين نقلهم زياد من الأزد إلى مصر هم من غير المرغوب فيهم، وقام زياد بنقل العناصر غير العربية " الفرس" من الكوفة.

فقــد كان مع رستم يوم القادسية أربعة آلاف ممن يسمون جند شهانشاه طلبوا الصلح من سعد بن أبي وقاص وطلبوا أن يسمح لهم أن ينزلوا حيث أحبوا ويحــالفوا من شاءوا ويفرض لهم العطاء فوافق سعد على طلبهم ونزلوا الكوفة وفرض لهم عطاء ألف ألف درهم وسموا حمراء ديلم.

ويذكــر أيضــاً أن هــؤلاء الفرس الذين كانوا يسكنون الديلم فلما غزا المســلمون قزوين أسلموا على مثل ما أسلم عليه أساورة البصرة ونزلوا الكوفة ويظهر أن زياداً شعر بتزايد خطرهم في الكوفة فسير قسماً منهم إلى الشام حيث أسكنهم معاوية إنطاكية.

وكــان الدافــع لتهجــير الفرس إلى الشام وإسكانهم إنطاكية هو تفتيت التكــتل العنصــري غــير العربي خشية غلبتهم على العنصر العربي أو غلبة مقومات حياتهم على مقومات الحياة العربية في الكوفة.

ومــن ناحــية أخــرى فــإن إسكانهم مع الجراجمة قد يقلل من توارث الجراجمة.

ولــيكونوا قــوة علــى الحــدود البيزنطية إذ لا خوف من تكتلهم مع البيزنطييــن للعــداء القديــم بين الفرس والبيزنطيين. وسير زياد قسماً آخر من الفرس في الكوفة إلى البصرة فدخلوا في الأساورة الذين بها.

جهود معاوية في حرب التحرير والفتوح:

كــان عهــد معاوية ملائما للفتح والتحرير لتوفر الأمن والاستقرار في الدولة العربية الإسلامية.

وقــوة معاويــة وهيمنته على أجهزة هذه الدولة ومؤسساتها وقد شملت حرب التحرير والفتوح العربية في عهد معاوية الجبهات الآتية:

جبهة الروم :

شـــهد عهــد معاوية قيام المسلمين بالتوجه نحو فتح بلاد آسيا الصغرى الواسعة، أو ما يعرف للعرب "الروم" وهذه التسمية تعني جيلاً من الناس، أو أنها كلمة فارسية أو تركية.

وأن قصـــد العــرب بهــا الدولة الكبرى الأخرى التي كانت تسيطر قبل الإســـلام مـــع العجم وقد ذكرها القرآن الكريم ومهما يكن فان الروم كانت هي وراثة الرومان في الشرق بعد أن قضى على دولتهم المتبربرون في أوروبا وقد كانت تعرف للعرب أيضاً باسم (بوزنطيا) نسبة إلى بوزنطية وهي البلد اليونانية القديمة التي اتخذها الإمبراطور قسطنطين الأكبر عاصمة له في سنة ٣٣٠م عند تأسيسه لهذه الدولة في الشرق. ولو أنه غلب على هذه المدينة اسم القسطنطينية.

ولـــم تكن الروم دولة رومانية إلا اسماً ذلك لأن آسيا الصغرى منذ زمن بعيد كانت مجالاً لسكنى أجيال اليونان الذين ظهرت لهم مستعمرات عديدة أقدمها يـــرجع إلى عصر هومر وقد زادت هجرة اليونان إليها تحت ضغط البرابرة في أوربـــا بحيـــث أصـــبحوا قبل الإسلام يكونون أغلبية سكانها يتكلمون اليونانية الدارجة وليست اللاتينية.

وهـــم الذين عرفوا للعرب (بالروم) أو حتى (ببني الأصفر) لكثرة الشقر فيهم وكذلك وجد بينهم خليط من الحيثين والميتانيين والأرمن كانت تسكن المنطقة الجبلـــية الفاصـــلة لحدود الروم الشرقية تمتد حتى البحر الأسود وتعرف لسكان الشام باسم (الجراجمة) أو الجرامقة نسبة إلى بلد تسمى الجرمومة قرب إنطاكية أو حتى باسم المردة أي العصاة.

إن المســـلمين في عصر الخلفاء الأوائل استولوا على أجزاء كثيرة من أمـــلاك الروم في البحر الأبيض وأرجعوهم إلى بلادهم في آسيا الصغرى ولعل

الروم لم يستغلوا انشغال المسلمين بفتنة الخليفة عثمان بسبب الضربات القاضية التـــي كـــانوا قد تلقوها منهم وبسبب أن حدود بلادهم الغربية كانت تحت ضغط هجرات العناصر السلفية من الصرب والكروات ولكنهم خلال هذه الفتنة استولوا علـــى بعض الأجزاء المجاورة لهم من أرمينية وهو الصقع الكبير الذي كان قد فتح في عهد الخليفة عثمان بن عفان (رض) وقد سعى المسلمون من جانبهم إلى استمالة بعض العناصر المخلصة لهم وأرسلوا بعض الأمراء من الأرمن الأسرى في دمشق ليحكموها لهم.

ولا ريب أن الفتنة جعلت أهل أرمينية أنفسهم يستقلون بأجزاء كثيرة منها خصوصـــا وأن أغلب مناطقها كان في معاهدات أمان مع المسلمين، وفوق ذلك كـــان الروم يثيرون ضد المسلمين عناصر الجراجمة الجبلية الساكنة على حدود الشـــام مـــع أن المســـلمين كانوا قد صالحوهم حينما فتحوا بلاد الشام في عهد الخلـــيفة عمر بن الخطاب (رض) على أن يكونوا أعوانا للمسلمين على شريطة ألا تطلـــب مـــنهم الجـــزية فكان نتيجة هذا التحريض أن قام الجراجمة بالسلب والنهب في أراضي شمال الشام.

ومن المحقق أن معاوية أحس بنوايا الروم وإن كان اضطر أثناء الفتنة إلـــى عقـــد هدنـــة مع الإمبراطور قنسطانز الثاني حتى لا ينتهز الروم الفرصة فـــيهجمون على الشام التي كان أميراً عليها منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب. وكذلـــك عقد صلح في أول خلافته يعتبر امتداداً للصلح الأول في سنة ٤٢هـــ - ٦٦٢م كما صالح الجراجمة ليتفرغ إلى المشكلات العاجلة التي نشأت من إعلانه الخلافة.

ولكـــن مـــا أن انتهى من مشاغله حتى شن حرباً عاتية على الروم في بلادهم ذاتها بحيث انه شغلهم بالدفاع عن أرضهم طول مدة حكمه.

لأن المسلمين قد اشتبكوا مع الروم منذ فتح الشام ولم تكن من العمق والدوام مثلما حدث في عهد معاوية فقد كان هدفها هذه المرة تحطيم حصون الروم والاستيلاء على عاصمتهم القسطنطينية.

وقد اشتهرت حرب المسلمين مع الروم باسم (حرب الثغور) أي الحدود وهي لفظة مفرده (الثغر) تعني كل موضع يكون في أرض العدو في بطن وادٍ أو فرجة جبل قرب أرض المسلمين فقد كانت حدود الروم تتكون من سلاسل جبلية شاهقة منها جبل اللكام الهائل الممتد على طول الثغور من البحر الأبيض حتى بحر قزوين وتتميز بطرقها الكثيرة التي تعرف (بالدروب) ومفردها (الدرب) وبمسالك أنهارها مثل سيحان وجيحان وقويق والبراذان والارند وهذا الأخير سماه العرب العاصي لأنه يخرج من بلاد الإسلام ليدخل في أرض العدو وتميز هذه الثغور جناحان أحدهما من ناحية الشام عرف -بثغور الشام والآخر من ناحية الجزيرة عرف بثغور الجزيرة.

وهي حصون عديدة في الجبال أو مسالح أي مواضع للمراقبة أو حتى مدن حصينة على ملتقى مثل انطاكية وطرطوس وبياس ومرعش.

ولما كانت منطقة الثغور خالية من الناس إلا من الجراجمة النصارى لأن الروم نقلوا أهلها منذ فتح بلاد الشام حتى أنها سميت بالضواحي لقلة سكانها فإن المسلمين منذ عهد الخليفة عثمان (رض) عملوا على إنزال القبائل العربية بها. فأنزلت قيس وأسد من الحجاز في ثغور الجزيرة بين مضر وربيعة ونقلت جماعات من أهل الجزيرة وحمص وبعلبك ومن الكوفة والبصرة إلى نواحي انطاكية التي اسكنها معاوية أيضاً عناصر هندية من السند تعرف (بالزط) كانت قد استقرت على الخليج العربي واعتنقوا الإسلام ولقد سمى المسلمون سكان الثغور (بالمرابطة) لملازمتهم ثغر العدو للجهاد.

إن المسلمين وضعوا نظاماً لحرب الثغور فكانت تخرج بانتظام حملات سنوية على بلاد الروم منذ سنة ٤٣هـ-٦٦٣م في الشتاء والصيف عرفت بالشواتي جمع شاتية أو مشتى. والصوائف جمع صائفة حيث أن حملات المشتى غالبا ما كانت تتكرر في السنة الواحدة فكانت هذه الحملات يقودها ولاة الشواتي والصوائف أمثال عبد الرحمن بن خالد ويبدو أن معظم الهجوم كان من ثغر الشام أما ثغر الجزيرة فمظهره الحراسة.

ومن ناحية أخرى كان للروم نظام للدفاع عن حدودهم خصوصاً وأن بلادهم منذ عهد جستنيان (٥٢٧-٥٦٥م) كانت مقسمة إلى أقسام حربية تقابل المناطق الحربية في الشام، فبثوا في هذه الأقسام وبخاصة المجاورة منها لأراضي المسلمين الجيوش العديدة التي تقدر بالآلاف وكانت تقيم عادة في حصون منيعة في الجبال أو على الساحل.

كانت القسطنطينية عاصمة الروم منيعة فهي تطل على بحر الخليج (مرمرة) وكانت تحيط به من كل الجهات حتى من ناحية البحر عدة أسوار منيعة أقيم عليها أبراج عديدة بناها الأباطرة منذ عهد قسطنطين الأكبر وكان من الممكن غلق الخليج، ومنع المراكب المعادية من دخوله إذا ألقيت السلسلة بين لسان الأرض المعروف بالقرن الذهبي وبين الساحل الأسيوي.

ولقد اغتنم المسلون اضطراب شؤون الروم الداخلية للهجوم على القسطنطينية فقد قتل الإمبراطور قنسطانز الثاني في سنة ٤٨هـ/٦٦٨م وثار صابور أحد حكام المناطق المجاورة لأرمينية وأرسل رسولا إلى معاوية بغية التعاون معه.

ومع أن صابور ما لبث أن توفي وأن ابن الإمبراطور المقتول قسطنطين الرابع (٦٦٨-٦٨٨م) بعث مندوبا للصلح فإن معاوية صمم على مهاجمة

عاصمة الروم فسير جيشا كبيراً معه بعض أبناء الصحابة منهم ابن العباس وابن الزبير والصحابي أبو أيوب الأنصاري وجعل قيادته إلى ابنه يزيد بن معاوية فتقدم هذا الجيش في آسيا الصغرى وخضعت له كل أهل البلاد سواء من سكان الجبال أو السهول،وبعد عدة معارك وصل إلى القسطنطينية وضرب حولها الحصار.

وقد زاد نشاط المسلمين في البحر زمن خلافة معاوية فقاموا بترتيب الروابط والحفظة على طول الساحل وإعداد المراكب العديدة التي كانت تبنى من خشب غابات لبنان وإن خطة فتح القسطنطينية كانت تقضي بتعاون الأسطول مع الجيش فقد أرسل معاوية ثلاثمائة مركب ثقيلة عليها أسلحة الحصار من المنجنيقات تحمل الواحدة ألف رجل وخمسمائة مركب خفيف تحل الواحدة مائة، ولقد أخضع هذا الأسطول في طريقه سكان السواحل ووصل إلى القسطنطينية واستمر محاصرا لها سبع سنوات.

كذلك فتح المسلمون الجزر التي كان يسيطر عليها الروم في البحر الأبيض مما هيأ لمراكبهم السيطرة على أجزاء كثيرة من سواحل آسيا الصغرى إلى القسطنطينية، وفتح القائد جنادة بن أبي أمية جزيرة رودس في سنة ٥٣هـ/ ٦٧٢م التي تقع قرب ساحل آسيا الصغرى وكان الروم يغيرون منها على مراكب المسلمين ويأخذونها ويهاجمون سواحلهم كما حدث بنزولهم على البرلس بليدة قرب البحر في مصر في نفس هذه السنة وحينما فتحت رودس أنزل معاوية فيها عدداً من المسلمين وعين لهم العطاء وأصبحت قاعدة هامة للمسلمين مثل قبرص بحيث أخافت العدو وفتح جنادة أيضاً جزيرتين أخريين في سنة ٥٥هـ/ ٦٧٤م إحداهما أرواد قرب القسطنطينية التي أقام فيها حامية والأخرى أقريطش (كريت) وهي جزيرة كبيرة مقابلة للوبية.

لم تفلح جهود العرب المسلمين في فتح مدينة القسطنطينية بسبب قوة أسوار المدينة واستعمال الروم النار الإغريقية وهي عبارة عن مواد قابلة للاشتعال كان يرميها الروم على سفن المسلمين فتحرق تلك السفن وتعيق سير الهجوم بالإضافة إلى وجود أباطرة أقوياء أمثال قسطنطين الرابع، كل ذلك أدى إلى فشل حصار المسلمين للقسطنطينية الأول.

جبهة شمال أفريقية:

في عهد معاوية توجه المسلمون مرة أخرى إلى فتح أفريقية وكان يسكن هذه البلاد جيل من الناس عرف للمسلمين (بالبربر) وبهم سميت البلاد وكان للبربر في الضواحي وراء ملك الأمصار الرومية ما لا يحد من قوة وعدد وملوك وأمراؤها لا يرامون بذل ولا ينالهم الروم في ضواحيهم تلك بسخطة الإساءة.

ويصفهم ابن خلدون بأنهم كانوا في دور البداوة عند الفتح العربي الإسلامي وكانوا لا تجمعهم أمة بل يعيشون في حياة قبلية، وكانت الوثنية ديانتهم كما كانوا يؤمنون بالسحر والكهانة وقد دخلت إليهم اليهودية والنصرانية مع الغزاة عن طريق مصر لكن هاتين الديانتين كانتا قليلتي الانتشار.

كان وقوع بلاد الغرب على ساحل البحر الأبيض جعلها مطمع الأمم المسيطرة فيه، فتوالى على احتلالها الفينيقيون ثم الرومان، وفي بداية القرن الخامس الميلادي جاءتها غزوات طارئة من عناصر الشمال المعروفة بالوندال الذين استولوا عليها من الرومان كذلك كان القوط ويسميهم المسلمون بالفرنجة وقد قبضوا عل دولة الرومان في إيطاليا ونزلوا في أسبانيا واحتلوا بعض أجزاء من شمال أفريقية وبخاصة سبتة ومرساها الحصين، ولما ورثت بيزنطة إمبراطورية الرومان في الشرق نجد أن إمبراطورها جستنيان (٥٢٧-٥٦٥م)

أرسل قائدة بلزاريوس في سنة ٥٣٣م الذي استولى على الجزء الأكبر من بلاد البربر فامتدت سيطرة بيزنطة حتى برقة، ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء على منطقة سبته التي بقيت تبعث بطاعتها إلى القوط وراء البحر في إسبانيا.

وكان البيزنطيون يحكمون البربر عن طريق حاميات تعيش في مدن محصنة أو قصور على الساحل أهمها قرطاجنة المدينة القديمة الحصينة على ساحل البحر التي أصبحت مستقر سلطانهم ومقر الحاكم، واستقل بحكم المغرب (جرجير) الذي كان يعرف للمسلمين بالملك الأكبر، فكان جرجير يحكم منطقة واسعة في بلاد المغرب امتدت من طرابلس إلى طنجه، وهي البلاد التي عرفت للعرب في العصر الأول باسم (أفريقية) ولكن بسبب فتوح العرب المسلمين في بلاد البحر الأبيض في عهدي أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب يبدو أنه وجد اتفاق بينه وبين بيزنطة فكان يحمل بعض المال إليها.

أما بقية بلاد الشام فلم تخضع في أي وقت للبيزنطيين أو لنفوذهم مثل قبائل البربر الساكنة في الجبال بأقصى المغرب وفي الصحارى الواسعة وراء السواحل وفي بلاد السوس التي تجاور المحيط فكان البربر يتمتعون في هذه الأماكن بحريتهم.

وبعد أن استولى معاوية على مصر كان ولاته يجددون الحملات على بلاد البربر ولم يكن هناك نظام للثغور كما في آسيا الصغرى وإنما كانت ترسل الحملات من الفسطاط فلا تلبث أن تعود إليها بعد انتهائها كذلك كان عقبة بن نافع يقيم بصفة دائمة في نواحي برقة في الشمال وزوبله في الجنوب منذ فتحها على يد عمرو وكان يعمل على أن يجذب البربر لدخول الإسلام.

وقد تولى القائد عقبة بن نافع قيادة جيش المسلمين بمهارة فائقة فأنزل بأعدائه خسائر فادحة فتنحوا ناحية (طرابلس) فقاتلهم معاوية حتى هزمهم.

وفـــي ســـنة ٤٢هـــ أفتتح عقبة (غدامس) وفي سنة ٤٣هـــ افتتح كورا مـــن كـــور السودان وافتتح (ودان) ثانية وهي من (برقة) وذلك سنة ٤٦هـــ فقد خرج عقبة في هذه السنة حتى نزل (مغداش) من (سرت) وكانت (ودان) نقضت عهدهـــا الـــذي عاهدت عليه بسر بن أبي أرطاه سنة ٢٣هـــ، فترك عقبة جيشه بـــ(مغداش) في أرض سرت واستخلف عليهم عمرو بن علي القرشي وزهير بن قـــيس البلوي وسار إليها في أربعمائة فارس فلما وصلها أبى أهلها إلا العصيان وعدم الطاعة فحاربهم عقبة حتى أخضع البلاد بلداً بلداً.

ولما استتب الأمر لعقبة في بلاد ودان، سأل عقبة أهلها: هل من ورائكم من أحد؟ فقيل له (جرمة) فسار إليها ثماني ليال من ودان فلما دنا منها دعا أهلها إلـــى الإســـلام فأجابوا ومضى عقبة من فوره لإنجاز بلاد فزان حتى أتى على آخـــرها ونشر الإسلام في ربوعها وهذه أول مرة دخل فيها المسلمون بلاد فزان فاتحين.

وسأل عقبة أهل فزان هل من ورائكم أحد؟ فقالوا أهل خاور وهو قصير عظيم على رأس المغزة في وعورة على ظهر جبل.

وهـــو قصبة كاوار فسار إليه خمسة عشر ليلة فلما وصل إليه دعا أهلها إلـــى الإســـلام فـــأبوا وطلـــب منهم الجزية فامتنع بعضهم فحاربهم وأقام على حصارهم شهرا دون جدوى وتقدم بجيشه جنوبا لفتح بقية بلاد كاوار ففتحها حتى آتى على آخرها.

ورجـــع عقبة إلى خاور من غير طريقة التي كان أقبل منها، فقد كانت عـــودة عقبة المفاجئة بجيشه إلى خاور في وقت لم يتوقعه أهلها وانصرف عقبة بعد فتح خاور حتى نزل بموضع زويله.

لقد أقدم عقبة على التغلغل في الصحراء بقوات قليلة خفيفة لأن الحركة في الصحراء صعبة جدا بقوات كبيرة لقلة المياه فيها ولأنه قدر أنه لن يصادف في تغلغله قوات ضارية كبيرة العدد، لأن قوات الروم النظامية لن تستطيع القتال في مثل هذا الميدان، وإنما ميدانها المناطق الساحلية التي تتوفر فيها المياه والقضايا الإدارية الأخرى فليس أمام عقبة غير قوات سكان الصحراء الأصليين وهؤلاء قليلون يمكن التغلب عليهم بقوات خفيفة كما فعل عقبة ذلك ما حدا به على الإقدام لفتح تلك المناطق الصحراوية بقوات خفيفة منتخبة، و فعلاً أنجز واجبه وحقق هدفه في الفتح الصحراوي بسهولة ويسر.

وسار عقبة بجيشه إلى المغرب وجانب الطريق الأعظم وأخذ إلى أرض (هواره) فافتتح كل قصر بها ومضى إلى (صفر) فافتتح قلاعها وقصورها ثم بعث إلى (غدامس) فاستعاد فتحها ثانية، وتوجه إلى (ففصة) فافتتحها ثم افتتح (قسطيلية) ثم انصرف إلى (القيروان) لقد طهر عقبة بهذا الفتح كل المقاومات المعادية بين برقة والقيروان فأصبحت هذه المنطقة خالصة للمسلمين حرية أن تكون قاعدة رصينة تنطلق منها القوات الإسلامية لفتح أفريقية حتى المحيط الأطلسي.

وعقد عهد معاوية إلى عقبة بن نافع القيام بإنشاء مدينة القيروان كقاعدة متقدمة للمسلمين في أفريقية وأنجز بناءها سنة ٥٥هـ وبنى المسجد الجامع وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم فأصبحت المدينة عسكر للمسلمين وأهلهم، فانتشر الإسلام فيها وصارت القيروان مدينة كبيرة وعاصمة الإسلام في المغرب، وأصبحت القاعدة الأمنية للمسلمين في شمال أفريقية.

وفي سنة ٥٥هـ استعمل معاوية مسلمة ابن مخلد الأنصاري على مصر وأفريقية وعزل عقبة بن نافع عن أفريقية فاستعمل مسلمة على أفريقية، أبو

المهاجـــر دينار، وقد عقد مسلمة بن مخلد لأبي المهاجر على الجيش الذي خرج معـــه إلــى أفريقية وبعد إنجاز أبي المهاجر تدابيره الإدارية وإعداد خطط الفتح ســار بجيشه إلى قرطاجنه عاصمة الروم في شمال أفريقية وأن الروم لا زالوا قــوة في ساحل المغرب من (بنزرت) إلى (طنجة) وأن هذا الساحل الخصب هو مــرتعهم وموطــنهم فلابــد من فتح تلك المناطق ليتخلص المسلمون نهائيا من مســتعمري أفريقية القدامى وليحولوا بينهم وبين إشاعة التآمر والدس على الفتح الإسلامي.

ســار أبــو المهاجر إلى قرطاجنة فاستغلقت وتحصنت بالأسوار العالية فشــدد أبــو المهاجر عليهم الحصار، ولما علموا بأن المسلمين لن يبرحوا حتى يحققــوا هدفهــم بفــتح جزيرة شريك التي كان الروم يتخذونها دوما قيادة لحشد جيوشهم فيها قبل مهاجمة المسلمين.

وذلــك لكي يتخذها أبو المهاجر قاعدة أمامية لجنوده يرتكز في عملياته العســكرية علــيها وبهــذا أثبت أبو المهاجر عمليا بأنه ينظر بعيدا من الناحية العسكرية، فيفضل المواقع الاستراتيجية التي تفيده في الفتح على المال الذي كان بإمكانه أن يفرضه على أهل قرطاجنة مقابل إقراره الصلح بين الطرفين.

وكان هدف أبي المهاجر فتح جزيرة شريك أن يراقب الروم ويصدهم إذا هموا بالمسير إلى المسلمين، لأن بإمكان قوة الروم المرابطة في تلك المنطقة أن تهــدد بسهولة ويسير خطوط مواصلات أبي المهاجر في حالة تغلغل قواته غرباً وجنوباً وسار أبو المهاجر مع الساحل باتجاه الغرب لا يعترض طريقه أحد حتى وصل مليه في الجنوب الشرقي ببجاية ويبعد عنها بحوالي خمسين ميلاً فوجدها مســتعدة للقتال وكان فيها طائفة من البربر والروم قد تحصنوا فيها فنازلها أبو المهاجر وفتحها واستقر فيها.

وكانت ميله تتوسط المغربيين الأدنى والأوسط حتى أحسن مكان يراقب أبو المهاجر منه البربر والروم فجعل أبو المهاجر (ميله) مقره وأقام فيها سنتين وكان خلال هذه المدة يتصل بالبربر وينشر فيهم الدين ويريهم حقيقة المسلمين.

كانت الزعامة في المغربيين الأوسط والأقصى لقبيلة أوربه لكثرة عددها وغـنائهما ومـناعة مواقعها، وكان رئيسها كسيلة ابن لمزم وكان البربر يجلونه وكان نصرانياً متمسكاً بدينه، ورأى كسيلة أبا المهاجر في ميله، فعلم أنه لابد أن يسـير لإقناع المغرب الأوسط والأقصى فذهب في المغربيين الأوسط والأقصى يدعو البربر لمكافحة العرب والاستعداد لحربهم واستطاع كسيلة أن يجمع جيشا مـن البربر والروم فمضى أبو المهاجر بجمعه فسار إليه وكان كسيلة قد عسكر بـ(تلمسـان) فقصده أبو المهاجر،والتقى الجيشان هناك فدارت معركة حامية بيـنهما، فانتصر المسلمون وأسر كسيله فحمل إلى أبي المهاجر فأحسن إليه أبو المهاجر، وتمكن أبو المهاجر، وانتهى إلى العيون المعروفة بعيون أبي المهاجر، فهـو أول قائد للمسلمين وطئت خيله المغرب الأوسط فصالح أبو المهاجر بربر أفريقية وفيهم كسيلة، ثم رجع القيروان وأقام بها.

الجبهة الشرقية :

أعـاد معاوية تعيين كثير بن شهاب عاملا على الري، ثم أقر زياد كثيرا علـى الري فغزا الديلم، ولما كانت الري فتحت بمقاتلة الكوفة فقد أصبحت تابعة للكوفة إداريا. واستعمل معاوية قيس بين الهيثم بن الصلت السلمي على خراسان، وكـان سكان هراة وبلخ واذغيس بوشنج قد نكثوا العهد ولم يتمكن من السيطرة على المتمردين والناكثين ولم يتمكن من إعادة سيطرة الدولة على خراسان فعزله معاويـة وجعـل معاويـة نفسـه المشـرف المباشر على خراسان ثم وجد من الضروري ربطها بالبصرة وجعل والي البصرة مسؤولا عنها، وهكذا يكون عبد

الله عامـــر والي البصرة وفاتح خراسان أول مرة هو المسؤول عن تعيين عمال خراسان.

ولمـــا كانـــت خراسان فتحت بمقاتلة البصرة لذا فقد كانوا مسؤولين عن إداراتهـــا مـــنذ زمن الخليفة عثمان (رض) وتمكن ابن حازم من إخضاع هراة ويوشنج وباذغيس وأولى زياد اهتماماً كبيراً بمنطقة خراسان فقرر إنشاء قواعد ثابـــتة تقيم فيها القوات العربية بصورة دائمة لتسيطر على أقاليم الشرق وتدافع عـــن الحـــدود وذلـــك لـــبعد الشرق عن القواعد الإسلامية في الكوفة والبصرة وصعوبة إرسال الإمدادات سنويا.

وقرر زياد إتباع سياسة إدارية جديدة في خراسان لضمان السيطرة عليها فهو لم يكـــتف بتعييـــن عامل عليها فقط بل كان يعين حكاماً على المقاطعات الصغيرة والكور.

وفي سنة ٤٧هــ/٦٧٦م فتح عامل خراسان الحكم بن عمرو جبال القور وقـــراوند عنوة ثم غزا جبل الأشل وقد لاقى العرب المسلمون صعوبة كبيرة في فتحها كادت تؤدي إلى هلاكهم وعهد الحكم بن عمرو إلى المهلب بن أبي صفرة مسؤولية الحرب واستطاع المهلب أن يقبض على أحد مشاهيرهم الذي دله على الطريق الذي استطاع العرب به أن يخرجوا من الوادي ويحتلوا الجبل ثم غنموا غـــنائم كثـــيرة وقام الربيع بن زياد عامل خراسان الجديد بإكمال فتح سجستان وكرمان.

وتمـــردت بخارى بمساعدة الترك ولكن العرب بقيادة عبيد الله بن زياد عامل خراسان هزموا بخارى فطلبت ملكتهم خاتون الصلح فصالحهم عبيد الله بن زياد ودخل المدينة ثم هاجم عبيد الله بيكند.

كان عبد الله بن سمرة قد شارك في فتح سجستان وفي عهد معاوية عين أميراً عليها ثم عزله زياد والي البصرة وولى الربيع بن زياد على سجستان وكان أول من فتحها في عهد عثمان، وفتح الربيع بست والرخج وسار حتى وصل بلاد الـدوار وعين زياد عبيد الله بن بكرة على سجستان بعد أن عزل الربيع بن زياد ونجح عبيد الله بن بكرة في عقد معاهدة صلح مع رنبيل ملك الترك وفي سنة ٥٣ هـ/٦٧٢م غزا عباد بن زياد عامل سجستان الجديد قندهار حتى وصلت بيت الذهب فجمعت له الهند قوة كبيرة لكنه هزمهم وبقي عباد عاملا على سجستان حتى مات معاوية ولما ولي يزيد خلافة عزل عباد عن سجستان وعين محله مسلمة بن زياد.

وفي سنة ٤٤هـ/٦٦٤م أرسل معاوية المهلب بن أبى صفره لفتح السند فسار إلى الأحواز وابنه وهما على سفح جبل كابل واصطدم بقوة تركية من بلاد الفيفان ورغم تغلبه عليها فإنه رجع ولم يحقق الهدف المرسوم فأرسل والي البصرة أحد قواده عبد الله بن سوار لغزو بلاد السند فغزا الفيفان وغنم غنائم كثيرة ثم رجع مع بقية جيشه إلى مكران ثم فتح العرب مكران وغزوا الفيقان مرة أخرى وتغلبوا على البد وفتحوا قندهار.

وقدم عباد بن زياد إلى ثغر الهند من سجستان ثم الهند ووصل إلى قندهار وفتحها وكانت البوقان والفيفان قد فتحها سنان لكن أهلها نقضوا العهد فأخضعهم المنذر بن الجارود مرة أخرى.

ولاية العهد:

كانت ولاية العهد من الأمور التي أفرزت الكثير من المشاكل والصعوبات في التاريخ الأموي فعندما مات معاوية كانت مسألة من يخلفه منذرة بالمتاعب والصعوبات وقد حاول معاوية جاهداً أن يحل المسألة قبل موته وذلك

بـأخذ البـيعة لابـنه يزيد من أشراف العرب وهو على قيد الحياة، وقد واجهت معاويـة صـعوبات في هذه المحاولة الرامية لحصر الخلافة في عائلته من هذه الصـعوبات التقالـيد الإسـلامية التـي تؤكد بأن الحكم لله يحمل أعباءه أفضل المسـلمين وهـو ليس ملكاً بشرياً يتوارثه الناس ولا تبيح التقاليد العربية انتقال الرئاسة من الأب إلى الابن رغم أنها تبيح ذلك داخل القبيلة أو العشيرة، يضاف إلـى ذلـك أن الغالبـية العظمى من المتدينين لم تكن تميل إلى يزيد لعدم توفر صفات الخلافة فيه ولذا فقد بذل معاوية جهودا لأخذ البيعة من المتدينين واستعمل القوة تارة والمال والدهاء السياسي تارة أخرى.

يذكر الطبري أن المغيرة بن شعبة هو الذي أوجد فكرة أخذ البيعة ليزيد بولاية العهد إذ دخل على يزيد وقال له" ذهب الصحابة وكبار قريش ولم يبق إلا أبـناء الصحابة وأنت أفضلهم رأياً وأعلاهم كعباً وأكثرهم إطلاعاً على السياسة وتدبـير الأمـور ولا أدري مـا يمنع الخليفة معاوية من أن يوليك العهد فأدخل الفكـرة في نفس يزيد وعرض يزيد الرأي على أبيه فاستحسنه فأحضر معاوية المغيرة وسأله عما قال ليزيد.

ودار الحوار بين الاثنين تعهد فيه المغيرة لمعاوية أن يأخذ البيعة من أهل الكوفـة فقـبل معاوية الأمر وطلب من المغيرة العودة إلى الكوفة والتحدث في الأمر مع من يثق بهم.

رجـع المغيرة إلى الكوفة وتكلم مع من يثق بهم ومع من يعرف أنه من أنصار الأمويين فأجابوه إلى البيعة، فأوفد قسماً منهم برئاسة ابنه موسى قدم الوفد إلـى معاوية وحسن له البيعة ليزيد فطلب معاوية منهم التريث والتمسك بالرأي وتقـوى عـزم معاويـة في البيعة لابنه والراجح أن فكرة البيعة ليزيد كانت قد ساورت معاوية قبل أن يعرفها المغيرة ولكن معاوية كان ينتظر الفرصة الملائمة

لإبـــرازها فانتهز معاوية مبادرة المغيرة التي عبرت عن رغبته ليتحسس صدى ذلك في نفوس الناس.

أرسل معاوية إلى زياد يستشيره في البيعة ليزيد، فكتب زياد إلى معاوية يشـــير عليه بالتؤدة وأن لا يعجل فقبل منه ولما مات زياد عزم معاوية على أخذ البيعة لابنه يزيد فكتب معاوية إلى والي المدينة مروان بن الحكم مايلي: "كبرت سني ودق عظمي وخشيت الاختلاف على الأمة بعدي، ولقد رأيت أن أتخير لهم مـــن يقـــوم بعدي وكرهت أن أقطع دون مشورة من عندك فأعرض ذلك عليهم وأعلمنـــي بالذي يردون عليك" وأخبرهم فقال الناس أصاب ووفق وقد أحببنا أن يختار لنا فلا يألو وكتب مروان بذلك إلى معاوية.

أعـــاد معاوية الجواب على مروان بذكر يزيد فقام مروان فيهم وقال أن أمير المؤمنين قد أختار فيكم فلم يأل وقد استخلف ابنه يزيد فبايع الناس ليزيد بن معاويـــة غير الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وابن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بن عباس وقد أعلن هؤلاء رفضهم لتعيين يزيد وهاجموا هذه الفكرة.

يذكـــر الطبري بأن يزيد كتب بعد توليه الخلافة سنة ٦٠هـ /٦٧٩م إلى الوليد بن عقبة والي المدينة " أما بعد فخذ حسيناً وعبد الله بن عمر وعبد الله ابن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام".

وعـــندما اســـتلم الوليد الخطاب استشار مروان بن الحكم فأشار مروان بالمبادرة إلى دعوة الممتنعين خصوصا الحسين بن علي وعبد الله بين الزبير إلى البـــيعة ليزيد، فإن بايعوا قبل ذلك منهم وإن أبوا ضربت أعناقهم قبل أن يعلموا بموت معاوية، ولما كان الوليد يحب العافية فقد أرسل إلى الحسين بن علي وابن الزبـــير وتكلـــم معهـــم فاستنتجا أن معاوية قد مات، وتمكنا من مغادرة المدينة والذهـــاب إلـــى مكـــة في أواخر رجب ٦٠هـــ/٦٨٠م أما ابن عمر فلم يكن في

المدينة ساعة ورود نعي معاوية ولما عاد إليها بايع بعد أن جاءت البيعة من البلدان وفعل مثله ابن عباس. وكان الرأي أن تجتمع كلمة الأمة اجتماعاً حقيقياً.

ذهب الحسين بن علي إلى الكوفة حيث قاد ثورة ضد يزيد، وظل عبد الله ابن الزبير في مكة ثم استغل مقتل الحسين للتشنيع على أهل الكوفة وعلى حكم بني أمية وللتعريض بيزيد.

ويرى شلبي أن تعيين معاوية خلفاً له عمل حكيم وأن كون الخليفة الجديد من بني أميه أمر مسلم به، لأن ولاة الإقليم كانوا من بني أمية أو من أتباعهم وانتقال الحكم إلى الحسين مثلا سيكون معناه عزل هؤلاء الولاة ثم رفضهم العزل أو رفض بعضهم، ثم تكرار معارك الجمل وصفين على نحو واسع.

ولم يكن إلا تحديد الأموي الذي يتولى الخلافة بعد معاوية وكان في بني أمية من يفضل يزيد كعبد الملك بن مروان مثلاً.

ورغم المشاكل الداخلية في عهد يزيد فقد استأنف العرب حركة التحرير والفتح ففي سنة ٦١هـ/٦٨٠م غزا سلم بن زياد والي خرسان وسجستان فشتا- تقع في بلاد ما وراء النهر- وحاصر المدينة وطلب أهل المدينة الصلح على أن يفدوا أنفسهم فأجابهم إلى ذلك ثم غزا سلم سمرقند وخوارزم.

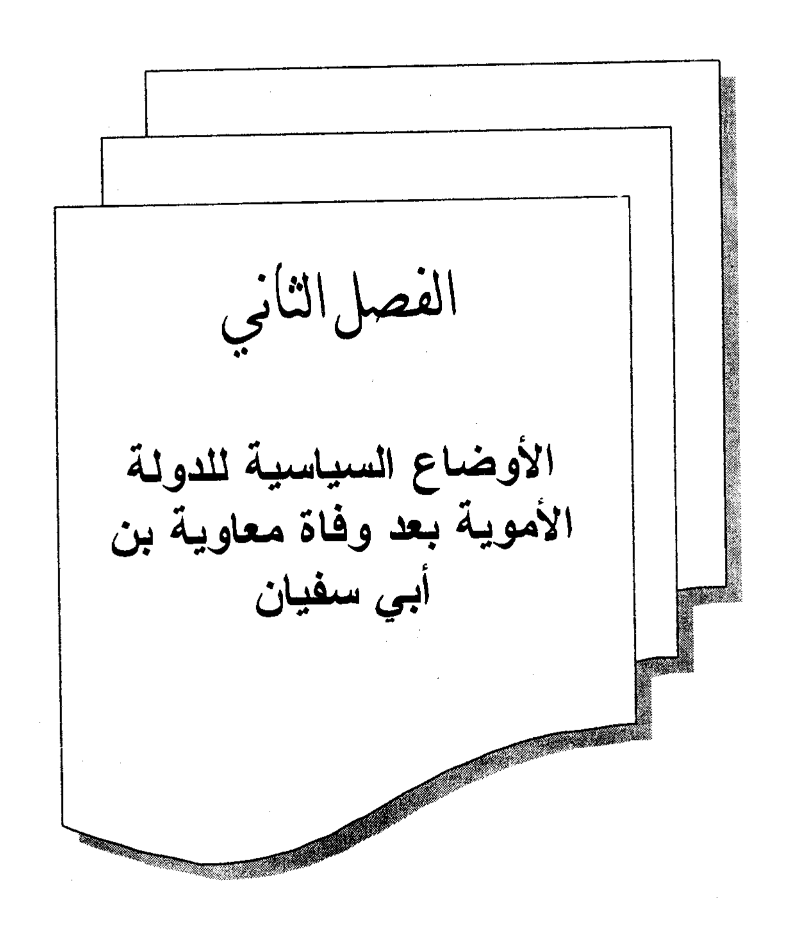
وفي شمال أفريقية أعاد يزيد القيادة لعقبة بن نافع وظل أبو المهاجر تابعاً له وقد استطاع القائدان العظيمان أن يسيرا في فتوحاتهما حتى وصلا إلى المحيط الأطلسي ويروى أن عقبة صعد إلى هناك وهتف: يا رب لولا هذا البحر لمضيت مجاهداً في سبيلك، ولو كنت أعلم بعده أرضاً وناساً لخضته إليهم.

على أن هذه الفتوح لم تكن نهاية المطاف، فقد كره البربر عودة عقبة للقيادة، وكان كسيله يضغن على عقبة، وحدث أن عاد عقبة من إحدى غزواته إلى بلدة طنجة فصرف معظم جنده وأرسلهم إلى القيروان وسار مع ثلاثمائة

من رفاقه إلى بلدة تهوده، وعرف الفرنجة بذلك فراسلوا كسيلة به، وأمدوا البربر بالســـلاح والأموال ففاجأ هؤلاء عقبة وأصحابه، ودارت معركة غير متكافئة من ناحية العدد والاستعداد.

وقـــد استشـــهد فيها عقبة بن نافع وأبو المهاجر وأكثر أصحابهم وأسر من بقي وارتد كسيلة عن الإسلام وتبعه أغلب البربر.

وكـــان في القيروان زهير بن قيس البلوي خليفة عليها فأراد القتال لكن ظـــروفه العســـكرية كانت صعبة إذ لم يكن بمقدور العرب المسلمين وهم قليلون مقاومة كسيلة بعد أن اجتمع عليه الروم والبربر لذلك انسحب زهير من القيروان إلـــى برقة وكان قراره هذا صحيحاً من الناحية العسكرية لأن اشتباكه مع العدو وهو لا يملك القوة الكافية لإحراز النصر يؤدي إلى كارثة عسكرية وجاء كسيلة إلى القيروان وامتلكها وأمن من فيها ثم استولى على أفريقية.


الفصل الثاني
الأوضاع السياسية للدولة
الأموية بعد وفاة معاوية بن
أبي سفيان

شهدت الدولة الأموية بعد وفاة معاوية بن أبي سفيان مجموعة من الحركات الفكرية و الثورية. وكانت الفترة التي أعقبت وفاة معاوية من أخصب الفترات في ثوراتها الفكرية و العسكرية.

ثورة الحسين بن علي (رض):

كانت وفاة معاوية بن أبي سفيان في الرابع عشر من شهر رجب سنة ٦٠هـ، وجاء ابنه يزيد من بعده ليتولى الخلافة بموجب المبدأ الوراثي، فكانت أول ممارسة ليزيد في الحكم أنه أرسل رسالة قصيرة ومستعجلة إلى واليه على المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان يحثه فيها على أخذ البيعة له من الحسين بن علي (رضي الله عنهما) وعبد الله بن الزبير اللذان كانا على رأس المعارضين للبيعة له أيام والده عندما كان يسعى في تعيينه وليا للعهد، فاستدعى الوليد الحسين بن علي وطلب إليه مبايعة يزيد، فأجابه الحسين بأنه مثله لا يعطى بيعته سرا فإذا ما دعي الناس للبيعة ودعي معهم كان الأمر واحداً ثم انصرف إلى داره وغادر المدينة إلى مكة، وكان عبد الله بن الزبير قد توجه هو الآخر إلى مكة وتحصن في البيت الحرام واستجار به.

وبعد وصول الحسين بن علي مكة بدأت الوفود والكتب تتواصل إليه من أهل الكوفة يعربون فيها عن مبايعتهم له ويدعونه للقدوم عليهم، فاستجاب الحسين لنداءاتهم المتكررة التي تؤكد سخط أهل الكوفة على يزيد وكرههم للأمويين. ورأى أن يوفد ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب إلى الكوفة ليقف على حقيقة موقف أهلها وصدق إخلاصهم للحسين، فوصل مسلم الكوفة في الخامس من شوال سنة ٦٠هـ ونزل مسلم في دار المختار بن أبي مسعود الثقفي الذي أصبح مركزاً لنشاط مسلم في الكوفة حتى قدوم عبيد الله بن زياد والياً عليها.

ويرى بعض الباحثين أن اختيار مسلم بن عقيل لبيت المختار يعكس اطمئنانه إليه وتأكده من عدائه للأمويين وكان المختار متزوجاً من أخت النعمان بن بشير والي الكوفة، مما أتاح لمسلم وأنصاره العمل بحرية الأمر الذي أغضب أنصار بني أمية الذين اتهموا النعمان بالتواطؤ والتساهل مع أعداء يزيد، ودعوه إلى قتالهم، فأجابهم بقوله: "لا أقاتل إلا من قاتلني، ولا أثب إلا من وثب علي، ولا أخذ بالقرفة، والظنة، فمن أبدى صفحته ونكث بيعته ضربته بسيفي ما ثبت قائمة بيدي، ولو لم أكن إلا وحدي".

وقد كتب أنصار بني أمية إلى يزيد يخبرونه بقدوم مسلم بن عقيل ومبايعة الناس له ويقولون له ان كان لك بالكوفة حاجة فابعث إليها رجلاً قوياً ينفذ أمرك ويعمل مثل عملك في عدوك فإن النعمان رجل ضعيف أو يتضعف، فعزل يزيد النعمان وولى على الكوفة عبيد الله بن زياد أمير البصرة فجعله والي المصرين وأمره بطلب مسلم بن عقيل وقتله.

وتذكر الروايات التاريخية أن ما يزيد على ثمانية عشر ألفاً من أهل الكوفة بايعوا الحسين وقد كتب مسلم بذلك إلى ابن عمه في مكة ودعاه إلى القدوم إلى الكوفة.

إلا أن وصول عبيد الله بن زياد غير الموقف تماماً، نظراً لما عرف عن الأخير من شدة البأس والبطش، فتفرق اتباع مسلم عنه وتخلوا عن نصرته فظفر به عبيد الله وأمر بقتله وإلقاء جثته من قصر الإمارة.

أما الحسين فإنه أعد العدة للمسير إلى الكوفة، فجاءه عمرو بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فقال له بلغني أنك تريد العراق وإني مشفق عليك أن تأتي بلداً فيه عماله وأمراؤه ومعهم بيوت الأموال وإنما الناس عبيد الدرهم والدينار فلا آمن عليك أن يقاتلك من وعدك نصره ومن أنت أحب إليه ممن

يقاتلك معه فجزاه الحسين خيراً، وجاءه ابن عباس فقال له لقد أرجف الناس أنك تريد العراق فخبرني ما أنت صانع؟ فقال: قد أجمعت المسير في أحد يومي هذين فقال له ابن عباس: أعيذك بالله من ذلك خبرني رحمك الله أتيسر إلى قوم قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم ونفوا عدوهم فإن كانوا فعلوا ذلك فسر إليهم وإن كانوا فما دعوك إليهم وأميرهم عليهم قاهر لهم وعماله تجبى بلادهم فإنما دعوك إلى الحرب والأمن عليك أن يغروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك ويستنفروا إليك فيكونوا أشد الناس عليك، فقال الحسين فإني أستخير الله وأنظر ما يكون.

ثم جاءه ابن عباس ثاني يوم فقال يا ابن عم أتصبر ولا أصبر أني أتخوف عليك في هذا الوجه الهلاك والاستئصال إن أهل العراق قوم غدر فلا تقربهم أقم بهذا البلد فإنك سيد أهل الحجاز فإن كان أهل العراق يريدوك كما زعموا فاكتب إليهم فلينفوا عاملهم وعدوهم، ثم اقدم عليهم فإن أبيت إلا أن تخرج فسر إلى اليمن فإن بها حصوناً وشعاباً وهي أرض عريضة طويلة ولأبيك بها شيعة وأنت عن الناس في عزلة فتكتب إلى الناس وترسل وتبث دعاتك فإني أرجو أن يأتيك عند ذلك الذي تحب فيه عافية إلا أن الحسين أصر على الرحيل وقال: يا ابن عم، والله أعلم أنك ناصح مشفق ولكني قد أزمعت وأجمعت على المسير فما يئس عبد الله بن عباس من إقناع الحسين بالعزول عن رأيه، طلب إليه أن يبقى أولاده ونساءه في مكة وقال:"فلا تسر بنسائك وصبيتك فوالله إني أخاف أن تقتل كما قتل عثمان ونساءه وولده ينظرون".

وقبل أن يشق الحسين طريقه نحو العراق التقى بالفرزدق الذي قدم للحج إلى مكة فسأله عن مشاعر أهل العراق فقال له: القلوب معك والسيوف مع بني أمية والقضاء بيد الله إلا أن ذلك لم يؤثر على عزيمة الحسين وتمسكه بالمبادئ والقيم التي آمن بها، فخرج بصحبة عدد لا يتجاوز الثمانين من أهل بيته وبعض المخلصين من أتباعه.

وعلم الحسين وهو في طريقه إلى العراق، بمقتل مسلم بن عقيل وما كان من غدر أهل الكوفة وخذلانهم له، وكان كلما تقدم أقبل عليه من ينصحه بالعودة ويبدو أن الحسين رغب في العودة إلى الحجاز إلا أن أخوة مسلم رفضوا ذلك وأصروا على الأخذ بثأر أخيهم فقرر المضي إلى الكوفة، فتصدت له طليعة جيش عبيد الله بن زياد بقيادة الحر بن يزيد التميمي ومنعته من المسير إلى الكوفة كما قطعت عليه طريق العودة إلى الحجاز فعدل إلى كربلاء بالقرب من الشاطئ الغربي للفرات وعسكر هناك في غرة المحرم من سنة ٦١هـ حيث باغته عمر بن سعد بن أبي وقاص في أربعة آلاف من أهل الكوفة فحالوا بينه وبين الماء.

وقد حاول الحسين تجنب القتال وإراقة دماء المسلمين وطلب إلى عمر ابن سعد أن يدعه يختار واحدة من ثلاث إما تدعوني أنصرف من حيث أتيت، وإما أن تدعوني فأذهب إلى يزيد وإما أن تدعوني فالحق بثغور. فكتب ابن سعد إلى عبيد الله بذلك فأصر الأخير أن يعلن الحسين مبايعته ليزيد ويسلم نفسه وأرسل إلى عمر بن سعد بأن يستعمل القوة إذا رفض الحسين ذلك وإلا فليسلم القيادة إلى شمر بن ذي الجوشن القيسي الذي حمل هذه الرسالة. وفي العاشر من محرم بدأ القتال وكان الحر بن يزيد قد انضم إلى جانب الحسين وقاتل معه وأخذ أصحاب الحسين يتساقطون الواحد تلو الآخر ثم جاء دور الحسين نفسه فقاتل قتال الأبطال حتى أثخنته الجراح وسقط على الأرض فتكاثر عليه أعداؤه وقتلوه ثم أخذوا رأسه ورؤوس أصحابه وحملها شمر بن ذي الجوشن إلى عبيد الله بن زياد الذي بعث بها إلى يزيد في دمشق وأمر الأخير بتسليم رأس الحسين إلى أخته زينب فدفن مع الجسد في كربلاء كما أمر بإعادة النساء ومعهن علي بن الحسين وكان فتى صغيراً إلى المدينة.

ويختلف المؤرخون في تعليقاتهم على ثورة الحسين بن علي فمعظم الرواد الأوائل ممن كتبوا التاريخ الإسلامي باستثناء ابن طباطبا والسيوطي اللذين انتقدا بني أمية اكتفوا بسرد الروايات التاريخية المتعلقة بثورة الحسين، أما المؤرخون المحدثون فقد أعطوا أراء متضاربة عن الثورة ونتائجها، فسيد أمير علي يعلق على الثورة بقوله:"لقد روعت مذبحة كربلاء العالم الإسلامي بأسره". ويقول الخضري:"بذلك الشكل المحزن انتهت هذه الحادثة التي أثارها عدم الأناة والتبصر في العواقب فإن الحسين بن علي رمى بقول مشيريه جميعاً عرض الحائط". أما حسن إبراهيم حسن فيقول:" إن التاريخ يحكم بإدانة الأمويين".

حركة عبد الله بن الزبير:

طلب يزيد من والي المدينة، الوليد بن عتبة أن يأخذ له البيعة من عبد الله ابن الزبير، وعندما طلب الوليد من عبد الله بن الزبير ذلك تماطل عبد الله وخرج ليلاً من المدينة وكان عليها عمرو بن سعيد بن العاص، وفي مكة سمى عبد الله ابن الزبير نفسه بـ(العائذ) ولما كان يزيد يريد حل القضية حلاً سلمياً فإنه تبادل الرسائل مع عبد الله بن الزبير ولم يتوصل الطرفان إلى حل وقد قرت عين ابن الزبير بخروج الحسين بن علي إلى العراق ومقتله هناك إذ تخلص من أكبر منافس له، واستغل ابن الزبير مقتل الحسين للتشنيع ببني أمية وللتعريض بيزيد وذم أهل الكوفة.

وازداد أنصار ابن الزبير، واتهم الأمويين عمرو بن سعيد بن العاص بالتساهل مع ابن الزبير وحرضوا يزيد ضد عمرو بن سعيد فعزله عن ولاية الحجاز (مكة والمدينة) وعين يزيد الوليد بن عقبة على مكة وظل عليها أثناء الشطر الأكبر من سنة ٦٢هـ ولم يجد الوليد بن الزبير إلا متحذراً ممتنعاً وعمل ابن الزبير بالمكر والخديعة مع الوليد بن عقبة.

فعزل يزيد الوليد وعين عثمان بن محمد بن أبي سفيان والياً على الحجاز وهو فتى لم يجرب الأمور ولم يحنكه السن ولم تضربه التجارب وقرر يزيد القضاء على ثورة ابن الزبير فأرسل مسلم بن عقبة إلى مكة حيث عبد الله بن الزبير لكنه مات في الطريق وتولى القيادة الحصين ابن النمير السكوني حسب أوامر يزيد، وكان أهل المدينة قد قدموا على عبد الله بن الزبير وقدم إليه نجدة ابن عامر الحنفي، أحد زعماء الخوارج في أناس من الخوارج يمنعون البيت.

وفي سنة ٦٤هـ/٦٨٣م بدأ حصار الحصين لمكة، ولم يوفق المكيون في أول اشتباك وقع بينهم وبين أهل الشام، وفي الثالث من ربيع الأول قذف الشاميون البيت بالمنجنيق وفي الليل أخذ أحد أنصار ابن الزبير قبسا في رأس رمح ليرى الجيش الشامي المحاصر، فلاحت نار القبس أستار الكعبة فحرقت الكعبة.

وبعد موت يزيد سنة ٦٤هـ/٦٨٣م كانت هناك بيعتان الأولى بالشام لمعاوية بن يزيد والثانية بالحجاز لعبد الله بن الزبير، وبعد مدة قليلة وجد معاوية ابن يزيد نفسه أنه غير قادر على تدبير الأمور فتنحى عن الخلافة بعد حكم دام ثلاثة أشهر وطلب من المسلمين أن يختاروا من أحبوا وبوفاة معاوية بن يزيد حكم فرع أبي سفيان.

وعندما وصلت أخبار موت يزيد إلى الحصين بن نمير خاطب الحصين عبد الله بن الزبير قائلا:"إن يك هذا الرجل قد هلك فأنت أحق الناس بهذا الأمر، هلم فلنبايعك أخرج معي إلى الشام فإن هذا الجند الذين معي هم وجوه أهل الشام وفرسانهم فوالله لا يختلف عليك اثنان وتؤمن الناس" ولكن عبد الله بن الزبير رفض ذلك واقتنع ابن الزبير باستيلائه على جزيرة العرب ومصر لكنه أحجم

عـن الزحف إلى الشام وبينما كان ابن الزبير عائداً بمكة فك الحصين حصاره عنها ورجع إلى الشام.

وفي البصرة نجح عبيد الله بن زايد في أخذ البيعة لنفسه من أهل البصرة حـتى يصطلح الناس على إمام يرتضونه لأنفسهم ثم أرسل رسولاً لأهل الكوفة يدعوهـم إلى مثل الذي فعل من ذلك أهل البصرة، فرفضوا وحصبوا واليهم ثم خالفه أهل البصرة أيضا فهاجت فتنة بالبصرة فهرب عبيد الله بن زياد إلى الشام.

انتقال الخلافة إلى البيت المرواني:

وصـل الحصين إلى دمشق وكان عليها الضحاك بن قيس الفهري وهو يضـمر الحياد في الصراع، وأخبر مروان بن الحكم بما خلف عليه ابن الزبير وأنـه دعاه إلى البيعة فأبى وكان من رأي مروان وهو كبير أسرة الأمويين أن يرحل وينطلق إلى ابن الزبير فيبايعه، ثم قدم إليه عبيد الله بن زياد وكان قد بلغه مـا يريد مروان فقال عبد الله لمروان: "استحييت لك مما نريد أنت كبير قريش وسيدها تصنع ما تصنع!" فقال: ما فات من شيء بعد فقدم دمشق وممن معه وبذا يكـون عبيد الله بن زياد قد حرض مروان على الدعوة لنفسه بالخلافة ويضيف الطبري:" وكان مروان بالشام لا يحدث نفسه بهذا الأمر _الخلافة_ حتى أطمعه فـيه عبـيد الله بـن زياد حين قدم عليه من العراق فقال لـه: أنت كبير قريش ورئيسها يلي عليك الضحاك بن قيس!".

وكـان أمير حمص النعمان بن بشير، وأمير قنسرين، زفر بن الحارث الكلابـي هواهـم فـي ابن الزبير وكان أمير فلسطين حسان بن مالك بن مجدل الكلبي هواه في بني أمية كتب حسان بن مالك بن مجدل الكلبي إلى الضحاك بن قـيس كتاباً يثني فيه على بني أمية وبين فيه حقهم في تولي أمور المسلمين ويذم عـبد الله بـن الزبـير وأمر أن يقرأه على الناس ثم كتب نسخة ثانية من نفس

الكــتاب، وسلمه إلى رجل من كلب (ناغضة) وقال لــه: إن قرأ الضحاك كتابي علــى الناس وإلا فقم فاقرأ هذا الكتاب على الناس" فلما ورد كتابه على الضحاك لم يقرأه على الناس فقام ناغضة وقرأ عليهم الكتاب فقال الوليد بن عتبة بن أبي ســفيان صـــدق حسان وقام غيره فقالوا مثل ما قاله فأمر بهم حسان فحبسوا ثم أخرجــتهم عشائرهم بالقوة وكان أهل دمشق فريقين، قيس تدعو إلى ابن الزبير وكلب تدعو إلى بني أمية.

توجـــه الضـــحاك بأنصاره، إضافة إلى إمدادات أهل حمص وقنسرين وفلسطين نحو مرج راهط بدمشق واجتمع نبو أمية تحت قيادة حسان بن مالك بن بحـــدل بالجابية وبايعوا مروان بن حكم خليفة للمسلمين وكذلك في ثلاثة من ذي القعدة سنة ٦٤هـ/٦٨٣م على أن تكون الخلافة من بعده لخالد بن يزيد ثم لعمرو ابـــن ســـعيد بـــن العـــاص بن الأشقر ثم سار مروان مع اتباعه -كلب، غسان، السكاسك، السكون، إلى مرج راهط وكانت بينهما وبين أنصار ابن الزبير بقيادة الضحاك بن قيس حرب عنيفة قتل فيها الضحاك بن قيس وذلك في المحرم سنة ٦٥هـــــ/٦٨٤م ولما وصل خبر هزيمة أنصار ابن الزبير إلى النعمان بن بشير هرب من حمص فتبعه جماعة من أهلها فقتلوه وكذلك هرب زفر بن الحارث من قنسرين إلى قرقيسيا وتحصن بها، واجتمعت إليه قيس فرأسوه عليهم.

ولما تم الأمر لمروان بالشام سار إلى مصر فافتتحها وحصل على مبايعة أهلهـــا ثـــم مات مروان في رمضان سنة ٦٥هـ/٦٨٤م وكان قد عهد بالخلافة من بعده لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز.

لقـــد أهاجـــت معـــركة مرج راهط الأحقاد التي كانت كامنة في صدور القيســـيين واليمانييـــن لسنين طويلة وشرع اليمانيون بعد رجحان كفتهم يعاملون

منافسيهم القيسيين معاملة سيئة واستمر الحال على هذا المنوال طيلة عصر عبد الملك بن مروان.

ويـــبدو أن الضـــحاك بـــن قيس أراد أن يصل هو إلى الخلافة فقط ذكر الطبري أن الضحاك بن قيس كان قد دعا قيسا وغيرها إلى البيعة لنفسه فبايعوه يومئذ على الخلافة ولكنه لم يستطع أن يحتفظ بمركزه فوق الأحزاب وبعد تردد طويل انضم أخيراً إلى جانب قيس وابن الزبير.

وبعـــد معـــركة مرج راهط خضعت حمص وفلسطين لمروان بن الحكم وكذلـــك قنسرين، وتكتلت قيس على ضفاف الفرات تحت قيادة زفر بن الحارث في قرقيسيا وظلت مكة والمدينة والجزيرة العربية والكوفة والبصرة ومن بالقبلة مـــن العرب تحت حكم عبد الله بن الزبير واستمر ابن الزبير رافعاً راية الثورة ضد الخلافة الأموية إلى أن تمكنت هذه الخلافة من إخماد ثورته في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان وسنبحث ذلك بالتفصيل لاحقا.

حركة سليمان بن صرد الخزاعي :

شـــعر الكوفـــيون بتأنيب الضمير لخذلانهم الحسين بن علي وتركهم إياه لوحـــده في معركة كربلاء فقد آمنوا بضرورة التكفير عما اقترفوه بحق الحسين لإرضـــاء الله وإراحـــة ضـــمائرهم فقـــرروا التضحية بأنفسهم، فسموا أنفسهم (التوابيـــن) وبدأوا ينظمون أنفسهم وكان أولى تجمعاتهم تتكون من مائة رجل لم يكـــن فـــيهم مـــن هـــو دون الستين من عمره، وولوا أمرهم لسليمان بن صرد الخزاعـــي الـــذي كانت لـــه صحبة مع رسول وهو من بين الذين كتبوا للحسين داعين إياه بالقدوم إلى الكوفة وكان معه أربعة آخرون من رؤساء فزارة والأزد وبكر وبجيله وكان أعضاء الحركة يجتمعون كل جمعة في بيت سليمان.

ظلـــت هذه الحركة سرية إلى أن توفي يزيد بن معاوية فانطلقت ثورتهم علـــى عبـــيد الله بن زياد الذي كان يقيم بالبصرة فطردوا نائبه عمرو بن حريث المخزومي وكان زعماء هذه الانتفاضة من الأشراف ولم يكونوا من فئة إسلامية واحـــدة وكـــان علـــى رأسهم يزيد بن رديم الشيباني الذي اكتسب بذلك مركزاً مرموقاً وفي خلال هذه الفترة الخالية من الحكم الرسمي ولي عمر بن سعد أميراً على الكوفة ثم خلفه آخر.

واســـتغل ابن الزبير ذلك فوطد مركزه في العراق وبايعه أشراف الكوفة ولم يكونوا معه بقلوبهم. وفي سنة ٦٤هـــ/٦٨٣م عين عبد الله بن الزبير عبد الله ابن يزيد الأنصاري ثم الخطمي أميراً على الكوفة على حربها وثغرها وإبراهيم ابن محمد بن طلحة بن عبيد الله الأعرج أميراً على خراج الكوفة.

وقـــد ســـاعدت سيطرة ابن الزبير على الكوفة التوابين فقد صاروا أكثر جـــرأه وأوسع انتشاراً وكانت عواطف عامة الناس معهم وبرز في مقدمة دعاة التوابيـــن عبيد الله بن عبد الله المري وكان بليغا في المنطق وبالعظة وذا أسلوب قـــوي ومؤثر على سامعيه فزاد أنصار التوابين عدداً حتى بلغوا (١٦٠٠) رجل أقسموا على الولاء وإن لم يكونوا أعضاء في هذه الحركة. وقد أجرى سليمان بن صرد اتصالات مع أنصار التوابين في المدائن والبصرة لجمع المال والسلاح.

رفـــع التوابون شعار: الثأر للحسين ولم يكن لهم هدف ثابت معين ولم يـــتفقوا علـــى الوسيلة المناسبة للتضحية بحياتهم وكان الهدف الذي راودهم هو الاســـتيلاء علـــى الكوفـــة وطرد الأشراف لأنهم المسؤولون عن قتل الحسين لتواطـــئهم مـــع الخلافـــة الأموية غير أن سليمان بن صرد كان على غير هذا الـــرأي إذ خاطـــبهم قائلا: "رويدا لا تعجلوا إني نظرت فيما تذكرون فرأيت أن

قــتلة الحسين هم أشراف أهل الكوفة؟ وفرسان العرب هم المطالبون بدمه ومتى علموا ما تريدون وعلموا أنهم المطالبون كانوا أشد عليكم".

دعــا سليمان بن صرد التوابين للثورة ضد الخلافة الأموية وعاملها في العــراق عبيد الله بن زياد الذي هرب إلى الشام سنة ٦٥هــ/٦٨٤م وكون جيشا كبيرا من أهل الشام ليخضع العراق لخلافة بني أمية وقد عبر والي الكوفة عبيد الله بــن يــزيد مــن قبل عبد الله بن الزبير عن هذا الرأي أيضاً إذ كان أشراف الكوفة قد ألحوا عليه بمهاجمة التوابين لأنهم ينوون الخروج على سلطته لينتقموا مــن أشراف الكوفة، عندما قال لهم : إن قاتلوني قاتلتهم وإن تركوني لم أطلبهم؟ وعــلام ما يقاتلونني أفوالله ما أنا قتلت حسيناً" فإن هؤلاء القوم آمنون فليخرجوا ولينشروا ظاهرين ليسيروا إلى من قاتل الحسين فقد أقبل إليهم وأنا لهم على قاتله ظهــير؟ هذا ابن زياد قاتل الحسين؟ وقاتل خياركم وأمثالكم قد توجه إليكم؟ عهد العاهد به على مسير ليلة من جسر منبج قطعاً له والاستعداد له أولى وأرشد من أن تجعلــوا بأسكم بينكم فيقتل بعضكم بعضاً ويسفك بعضكم دماء بعض فيلقاكم ذلك العدو غداً وقد وقعتم وتلك والله أمنية عدوكم" وبذا فقد أصبح بوسع التوابين أن يعلــنوا ثورتهــم علــى ابن زياد، فأعلنوا ذلك بأول ربيع ٦٥هــ/٦٨٤م في معســكر النخــيلة، قــرب الكوفــة، ودعوا أنصارهم في البصرة والمدائن إلى مشــاركتهم ولكنهم لم يتفقوا مع رؤساء قبائل الكوفة ولا مع والي ابن الزبير في الكوفة على أن يكونوا جبهة واحدة ضد أهل الشام.

ولم يحضر في معسكر النخلية من أنصار التوابين البالغ عددهم ١٦٠٠ نصير إلا ٤٠٠ نصير وكانوا كلهم عرباً من مختلف القبائل ومن القراء ولم يكن بينهم أحد من الموالي، وهم مسلحون تسليحاً جيداً ويمتطون جياداً كريمة مضوا إلــى كربلاء وبقوا على قبر الحسين يوماً وليلة يقطعون العهود والمواثيق على أنفسهم وهم يبكون ثم ساروا عبر الفرات ثم الأنبار ثم ضدوداء ثم القياره وهيت

حتى وصلوا قرقيسيا التي اعتصم فيها زفر بن الحارث الكلابي متزعماً القبائل القيسية ضد الخلافة الأموية.

قدم زفر بن الحارث خدمات كثيرة للتوابين، فقد وضع لهم سوقا فتسوقوا وزودهم بعلف كثير وطعام وأخرج للعسكر عيراً عظمية وشعيراً كثيراً واخبرهم بتحركات عبيد الله بن زياد الذي كان نازلاً بالرقة إذ قال لهم: "فأنا للقوم عدو، وأحب أن يجعل الله عليهم الدائرة وأنا لكم فرد أحب أن يحوطكم الله بالعافية، إن القوم قد فصلوا من الرقة دورهم إلى عين الوردة فاجعلوا المدينة في ظهوركم ويكون الرستاق والماء في أيديكم وما بين مدينتنا ومدينتكم فأنت لهم آمنون.. أطوو المنازل الساعة إلى عين الوردة فإن القوم يسيرون سير العسكر وانتم على خيول.

تأهبوا لها من يومكم هذا فإني أرجو أن تسبقوهم إليها، وأن بدرتموهم إلى عين الوردة لا تقاتلوهم في فضاء ترامونهم وتطاعنونهم، فإنهم أكثر منكم فلا آمن أن يحيطوا بكم".

جد التوابون في السير حتى انتهوا إلى عين الوردة فعسكروا غربيها واستراحوا واطمأنوا وأراحوا خيلهم لمدة خمسة أيام تحمي ظهورهم المدينة قبل أن تهاجمهم فرقتان من فرق الشام، بدأت المعركة يوم الأربعاء في الثاني والعشرين من جمادى الأول سنة ٦٥هـ/٦٨٥م واستمرت حتى يوم الجمعة وقد قاتل التوابون قتال الأسود ولكن قلة عددهم وشدة تأثير رمي النبال الشامية أدى إلى هروب البعض منهم فخسروا المعركة وقتل سليمان بن صرد، ولم يطاردهم أحد في انسحابهم وفي الطريق التقوا بأنصارهم القادمين من البصرة والمدائن الذين لم يصلوا إلى مكان المعركة في الوقت المناسب وقرروا العودة لفوات الأوان فبكى الجميع ورجعوا خائبين، وهكذا فشلت حركة سليمان بن صرد

الخزاعي وترك فشلها جرحاً عميقاً في نفوس العراقيين واستغل المختار التذمر السائد بين التوابين فصور لهم أنه القائد الذي سيحقق لهم أمانيهم فالتفوا حوله في حركة أخرى.

حركة المختار بن أبي عبيد:

أنجبت الطائف رجالاً بعيدي الغور واسعي الشهرة لكنهم غير واضحي المعالم ومن هؤلاء الحجاج بن يوسف الثقفي وزياد بن أبيه وابنه عبيد الله والمختار بن أبي عبيد وقد ولد المختار في السنة الأولى للهجرة ولقب بكيسان لأنه تلقى العلم على يد كيسان مولى علي بن أبي طالب أو لأن كيسان عرفة بقتلة الحسين وحثه للأخذ بثأر الحسين أو أن كيسان كان لقباً أصلاً له.

قاد أبوه معركة البويب ضد الفرس سنة ١٣هـ/٦٣٤م وقتل فيها. تزوج المختار بنت النعمان بن بشير الأنصاري وتزوج أخته عبد الله بن عمر بن الخطاب.

عاش المختار في صباه مع عمه سعد بن مسعود عامل علي بن أبي طالب على المدائن ثم لابنه الحسن من بعده وقد التجأ له الحسن عندما انهارت قوته واعتدى البعض عليه فاقترح المختار على عمه تسليم الحسن إلى معاوية لينال المال والحظوة من معاوية فرفض العم وعنف ابن أخيه.

ولم يظهر المختار على المسرح السياسي إلا بعد أن بلغ الستين عندما قدم من ضيعته في نفرٍ من مواليه إلى الكوفة في وقت مناسب عندما اضطرب الأمن بعد وفاة معاوية فاشترك مع مسلم بن عقيل في حركته وعند فشلها جيء به إلى عبيد الله بن زياد فشتر عينه بقضيب ثم سجنه وظل في السجن حتى قتل الحسين وعندما علمت صفية أخته بسجنه وكانت تحت عبد الله بن عمر بكت وجزعت فلما رأى ذلك عبد الله بن عمر كتب إلى يزيد بن معاوية راجياً إياه أن

يأمر عبيد الله بإطلاق سراح المختار، فاعتقل يزيد وخلى سبيل المختار ونفي إلى خارج الكوفة.

ذهـــب المختار إلى الحجاز واتصل بابن الزبير وعلم أنه لم يعلن الثورة بعـــد ولكنه سيفعل في الوقت الملائم لكن المختار طلب من ابن الزبير أن يعلن الثورة ويطلب من الناس مبايعته وعرض عليه المساعدة علناً فغضب ابن الزبير لأنـــه لـــم يكن يريد أن يذيع سر ما ينوي إليه فهذا الكلام لا ينبغي أن يكون إلا والستور دونه مرخاه والأبواب دونه مغلقة ثم خرج المختار ولم يشاهد حولا في مكة، وقال نفر من أهل الطائف أنه قدم عليهم في الطائف ثم خرج إلى مكة فأتى البيـــت فاستقبل الحجر ثم طاف بالبيت فما لبث أن مر به رجال من معارفه من أهل الطائف وغيرهم من أهل الحجاز فجلسوا إليه، واستبطأ ابن الزبير قيامه إليه وبـــدى لـــــه في مظهر الرجل الخطير عندئذ أحسن ابن الزبير معاملته، اجتمع المختار بابن الزبير وقال له:"إني قد جئت لأبايعك على ألا تقضي الأمور دوني وعلى أن أكون في أول من تأذن له وإذا ظهرت استعنت بي على أفضل عملك".

وبعد تردد وافق ابن الزبير على ذلك فبايعه المختار ومكث المختار مع ابـــن الزبير حتى شاهد حصار مكة الأول حيث قدم الحصين بن نمير السكوني مكـــة وقـــاتل المختار في مستهل سنة ٦٤هـ/٦٨٣م إلى جانب ابن الزبير في صفوف خوارج اليمامة الذين جاءوا للقتال ليدافعوا عن البيت. وظل المختار إلى جانب ابن الزبير بعد أن انفك الحصار الأول وهلك يزيد بن معاوية ورجع أهل الشـــام إلـــى الشام واصطلح أهل الكوفة على عامر بن مسعود بعد ما هلك يزيد يصلي بهم حتى يجتمع الناس على إمام يرتضونه فلم يلبث عامر شهراً حتى بعث بيعـــته وبـــيعة أهل الكوفة إلى ابن الزبير وأقام مع ابن الزبير خمسة أشهر بعد مهلك يزيد.

قدر المختار الرجوع إلى الكوفة لأنه لم يجد في مكة ما يصبو إليه ولأن العراقيين طردوا عبيد الله بن زياد وكثيراً ما كان يسأل القادمين من أهل الكوفة عن حال الناس فكان الجواب أن الناس بصلاح واتساق على طاعة ابن الزبير إلا أن طائفة من الناس إليهم عدد أهل المصر لو كان لهم رجل يجمعهم على رأيهم أكــل بهم الأرض إلى يوم ما؟ فقال له المختار: أنا أبو إسحاق أنا والله لهم، أنا أجمعهم على صر الحق؟ وأنفي بهم ركبن الباطل وأقتل بهم كل جبار عنيد.

آمن المختار إيمانا بالنصر فخرج إلى الكوفة حتى انتهى إلى بحر الحيرة يــوم الجمعة، فنزل فاغتسل وأدهن دهناً يسيرا ولبس ثيابه واعتم وتقلد سيفه ثم ركــب راحلته فمر بمسجد السكون وجبالة كندة لا يمر بمجلس إلا سلم على أهله وقـــال: ابشـــروا بالنصر والفلح أتاكم ما تحبون وأقبل حتى مر بمسجد بني ذهل وبني حجر فلم يجد ثمة أحد ووجد الناس راحوا إلى الجمعة فاقبل حتى مر ببني بدا فوجد عبيده بن عمر البدي من كنده فسلم عليه وظل يسير في شوارع الكوفة وهو يقول ابشروا بالنصر وكان يصحبه اثنان من بني كنده وصلى مع الناس في المسجد يوم الجمعة.

حـــاول المختار أن يتزعم أحزاب المعارضة والفئات الأخرى ولكنه لم يتمكن من ذلك وسليمان بن صرد الخزاعي على قيد الحياة، فهو منافسة الخطير وقد حاول المختار كثيراً أن يبعد الناس عن سليمان إذ كان يقول فيه: أن سليمان ابـــن صرد إنما هو عشمة من العشم وحفش بال ليس بذي تجربة للأمور ولا له علم بالحروب إنما هو يريد أن يخرجكم فيقتل نفسه ويقتلكم.

واستمر المختار على هذا المنوال حتى استمال طائفة من أنصار سليمان ابن صرد وأصبح سليمان بن صرد أثقل خلق الله على المختار، وحاول المختار أن يمســـك بـــزمام الأمور في الكوفة بتوجيه الأحزاب المعارضة المختلفة بهذا

الاتجـــاه وشعر أشراف الكوفة بذلك وأخبروا عامل ابن الزبير عبد الله بن يزيد فأودعه السجن وكان ذلك قبل معركة عين الوردة وفي السجن كتب المختار إلى أولـــئك الذين نجوا في المعركة ما يلي: فإني لو خرجت إليكم قد جردت ما بين المشرق والمغرب في عدوكم السيف بإذن الله فجعلتهم بإذن الله ركاماً وقتلتهم فذاً توأمـــاً وعندما استلموا كتابه أجابوه: ونحن حيث يسرك فإن شئت أن نأتيك حتى نخرجك فعلنا.

فأجابهم لا تزيدوا هذا فإني أخرج في أيامي هذه ثم أطلق سراح المختار بشفاعة صهره عبد الله بن عمر وكفالة عشر من وجهاء الكوفة وأشرافها.

وفـــي سنة ٦٥هــ/٦٨٥م عين ابن الزبير عبد الله بن مطيع والياً جديداً علـــى الكوفـــة وكان أشد أنصار ابن الزبير حماسة وكان على الوالي الجديد أن يحكم قبضته على الكوفة أكثر من سلفه فأعلن من على المنبر برنامجه السياسي قـــائلا: فـــإن أمـــير المؤمنين عبد الله بن الزبير بعثني على مصركم وثغوركم وأمرنـــي بجـــباية فيئكم؟ وإلا أحمل فضل فيئكم عنكم إلا برضى منكم ووصية عمـــر ابن الخطاب التي أوحى بها عند وفاته وبسيرة عثمان بن عفان التي سار بهـــا المسلمون فاتقوا الله واستقيموا ولا تختلفوا وخذوا على أيدي سفهائكم؟ وألا تفعلوا فلوموا أنفسكم ولا تلوموني؟ فوالله لأوقعن بالسقيم العاصي ولا جتمن درء الأصعر المرتاب.

ولـــم يرض أهل الكوفة على الكثير من الأمور التي وردت في الخطبة المذكورة فقد قال له السائب بن مالك الأشعري:إنا لا نريد أن يؤخذ فضل الفيء بـــل نطالـــب بالإبقاء عليه وتوزيعه كما وزعه علي بن أبي طالب عندما كانت الكوفـــة عاصمة للدولة ومركز بيت المال لا كما فعل عمر بن الخطاب وعثمان بـــن عفـــان فقـــال ابن مطيع: نسير فيكم بكل سيره أحببتموها وهو ينموها وقد

أظهــرت هذه المعارضة العلنية للوالي ضعفه وشعور الأحزاب المعارضة اتجاه عبد الله بن الزبير وكذلك عكست قوة المختار وأتباعه.

حــذر إياس بن مضارب رئيس الشرطة ابن مطيع من السائب بن مالك الأشــعري وقال لــه أنه من رؤوس المختار ولست آمن من المختار فابعث إليه واســجنه لأنه يخطط للاستيلاء على الكوفة فبعث الوالي إلى المختار طالباً منه الحضــور فتظاهر المختار بالمرض ولم يحضر ولأجل أن يكتل المختار جميع الأحــزاب المعارضة للأمويين حوله قال إن محمد بن الحنفية أحد أبناء علي بن أبي طالب وأمه ليست فاطمة بنت الرسول (صلى لله عليه وسلم) بل هي من بني حنيفة قد أرسله إليهم فشكوا في أمره وذهب وقد منهم إلى مكة ليسأل عن إدعاء المخــتار هذا وقد كان جواب ابن حنيفة للوفد فوالله لوددت أن الله انتصر لنا من عدونــا بمن شاء من خلقه فاعتبر جوابه بموافقة منه ولو كان عكس ذلك لمنعهم من الانضمام إليه وتأييده.

ويــبدو أن المخــتار لم يعرف بالضبط جواب ابن الحنفية ولذا فقد قلق كثيرا لأنه خشي أن يكون مما يتعارض مع أهدافه ومراميه ولذا فقد حاول إعلان الــثورة قــبل رجــوع الوفد، ثم تنفس المختار الصعداء عندما عاد الوفد وأخبر المخــتار بــأن ابــن الحنفية وافقهم على تأييده ونصرته وقد جنى المختار ثمار جــواب ابن الحنفية للوفد فقد انضمت بعض الشخصيات المهمة إلى المختار بعد أن كانت مترددة منهم المحدث المشهور عامر الشعبي وأبوه شرحبيل وزاد عدد اتباع المختار وأنصاره ودعا المختار في الحال إلى اجتماع الأحزاب المعارضة حال المختار في الاجتماع رجال وسخر المرتابين والمترددين وكان على المختار أن يكســب رجــلاً مهمــاً فــي الكوفة ولا يستطيع من دونه أن تقف الأحزاب المعارضة بوجه أشراف الكوفة وواليها وهذا الرجل هو إبراهيم بن الأشتر زعيم

قبـيلة الـنخع مـن مذحج الذي كان على اتصال بابن الحنفية ومؤيداً للأحزاب المعارضة لكنه لم يثق بسليمان بن صرد والمختار.

أرسـل المختار وجهاء الأحزاب المعارضة والمُتنفذين من أتباعه ومن بيـنهم عامر الشعبي وأبوه طالبين من إبراهيم بن الأشتر الانضمام إليهم ووافق إبراهـيم على الانضمام إلى المختار بشرط أن يكون هو قائد الحركة وعاد الوفد دون الوصـول إلـى اتفـاق وبعد ثلاثة أيام ذهب المختار مع بعض أتباعه إلى إبراهيم بن الأشتر حاملين رسالة ادعوا أن ابن الحنفية كتبها له، وهذا نصها:"من محمد المهدي إلى إبراهيم بن مالك الأشتر، سلام عليك فإني احمد إليك الله الذي لا إله إلا هو أما بعد فإنني قد بعثت إليكم بوزيري وأميني ونجيبي الذي أرتضيه لنفسـي وقـد أمـرته بقتال عدوي والطلب بدماء أهل بيتي فأنهض معه بنفسك وعشـيرتك ومـن أطـاعك فإنك إن نصرتني وأجبت دعوتي وساعدت وزيري كـان لك عندي بذلك فضيلة ولك بذلك أعنة الخيل وأقصى بلاد أهل الشام على الوفـاء بذلك على عهد فإن فعلت ذلك نلت به عند الله أفضل الكرامة وإن أبيت هلكت هلاكاً لا تستقبله أبداً والسلام."

وهـنالك أسباب تدعو للشك في صحة الرسالة المذكورة أعلاه، فالعرض الذي قدمه ابن الحنفية لإبراهيم بن الأشتر يتضمن نفس مطالب الأخير في مقابل الانضـمام للمختار بالإضافة إلى ذلك قصر الفترة الزمنية ما بين المقابلة الأولى وتسـليم الرسـالة ولم يسبق لمحمد بن الحنفية أن كتب لابن الأشتر (من محمد المهـدي) بـل اعـتاد أن يكتب لـه باسمه واسم أبيه وعندما طلب من المختار توضـيحا أجاب المختار أن ذلك زمان وهذا زمان ومع ذلك فقد شهد شهوداً بأن ابـن الحنفية كان قد كتب الرسالة وأشهد الشعبي على ما ادعاه الشهود ويبدو أن شـهادة الشهود وإيضاح المختار كان قد أقنع إبراهيم بن الأشتر بوضع إمكانياته بين يدي المختار وأخذ يحضر الاجتماعات في بيت المختار.

أعلن المختار حركته في ربيع سنة ٦٦هـ/٦٨٥م وحاول أن يتجنب إراقة الدماء فقد أوصى إبراهيم بن الأشتر أن يتجنب الاحتكاك بقوات الوالي قدر الإمكان وأن لا يحارب إلا إذا هوجم، وتمكن المختار من الاستيلاء على الكوفة دون إراقة دماء كثيرة وسعى لإشاعة العدل والرحمة والطمأنينة في النفوس والصلح بين الأحزاب والفئات المتعددة. وتولى القضاء بنفسه أول الأمر ثم عين قضاه ووفى بعهده للأشراف بالأمان بل رغب إليهم أن يجالسوه وينصحوه وفكر أن يجعل الكوفة مركزاً للخلافة الإسلامية مرة أخرى، وكتب المختار إلى علي بن الحسين يريده أن يبايع له وبعث له أموالاً فأبى علي بن الحسين أن يقبل الأموال وأن يجيبه وخرج علي بن الحسين وشتم المختار وعابه وذكر كذبه وكتب المختار إلى ابن الحنفية يريده على ذلك فأتاه علي بن الحسين فأشار عليه أن لا يقبل وأن لا يخرج إلى الناس فيتبرأ منه ويعيبه ويذكر كذبه فأتاه ابن عباس وقال له لا تقبل فإنك لا تدري على ما أنت عليه من ابن الزبير فأطاع ابن عباس وسكت عن عيب المختار.

كان مؤيد والمختار من مختلف القبائل العربية في الكوفة وأشرك في ثورته أفراداً من جميع القبائل العربية في الكوفة كالنخع وهمدان وفهد وشاكر وخثعم وشبام وأسد وحنفية وعبس ووواليه والأزد ومزينة وبكر وأحمس وهذا التأييد العربي الكبير للمختار كان بسبب موالاة القبائل العربية للأحزاب المعارضة ومعارضتها لأشراف الكوفة وكانت مساهمة الموالي قليلة في هذا الوقت وكان عددهم خمسمائة فقط وكان انضمامهم نتيجة لسيطرة أسيادهم القوية عليهم لكنهم زادوا بعد ذلك ولم يدافع المختار عن الموالي إلا لكونهم ضعفاء كان بإمكانه استغلالهم للحصول على تأييدهم وكان انضمامهم للمختار لم يكن نتيجة لمكانتهم الاجتماعية إنما يكمن في حقد عنصري في أصلهم الفارسي الذي يرفق الحكم العربي.

امـــتد نفـــوذ المخــــتار فشمل الموصل والمدائن وجوخن وحلوان والري وأذربيجان ومناطق أخرى وقد عين المختار على هذه الولايات وغيرها ولاة من أشـــراف الكوفـــة كما قدم هؤلاء الأشراف في مجلسه ولم يأخذ بثأر الحسين كما وعـــد بذلك قبل إعلان الثورة ولعل سبب ذلك هو أن المختار كان مهتما في ذلك الوقـــت بتحقـــيق الاستقرار في الكوفة أكثر مما كان يريد أخذ ثأر الحسين لأن الجـــيش الأموي بقيادة عبيد الله بن زياد كان يتقدم إلى الموصل وأنه كان مهددا مـــن قبل ابن الزبير في البصرة وفي الحجاز لهذا كله كان المختار مضطرا أن يهـــادن الأشـــراف ويتقرب إليهم وقد اعترض أشراف الكوفة على المختار لأنه جعـــل للموالـــي حصته في الفيء وقد سأل المختار أشراف الكوفة فيما إذا جعل فيئهم فيهم هل يقاتلون معه بني أميه وابن الزبير فرفضوا أن يفعلوا ذلك وعندئذ أصـــبح المختار مضطرا للاعتماد على الموالي بسبب الظروف السياسية آنذاك التي حددت اختيار المختار في التزام جانب الموالي.

حـــاول المخـــتار الاستيلاء على البصرة لأن ذلك سيسهل سيطرته على جميع العراق والأقاليم الشرقية ويمكنه من أن يحرم ابن الزبير من مصادرة غنية ويجعله معتمدا اقتصاديا على الحجاز والإقليم الفقير إذ أن عبد الملك بن مروان كـــان قـــد انـــتزع منه مصر إضافة إلى ذلك فإن احتلال البصرة سيمد المختار بالكثير من المؤيدين مما يزيد في قوته العسكرية الأمر الذي يساعد على مواجهة الخلافة الأموية وابن الزبير معاً.

ومـــن حسن حظ المختار أن الظروف كانت ملائمة جداً فقد كان مركز والـــي البصرة ضعيفاً وكانت البصرة مهددة باستمرار من قبل الخوارج إضافة إلى ذلك فإنه لم يكن بإمكان عبد الله بن الزبير إرسال جيش بسبب الضغط الشديد الذي وجهه عبد الملك بن مروان.

لـــم ينجح المختار في احتلال البصرة فقرر أن يتصرف بسرعة وبسرية سائلاً صداقة ابن الزبير، فعرض على ابن الزبير أن يتعاونا ضد الخلافة الأموية وكـــان جـــواب ابن الزبير هو: .. فإن كنت على طاعتي فلست أكره أن تبعث الجـــيش إلـــى بلادي وتبايع لي الناس من قبلك فإذا أتتني بيعتك صدقت مقالتك وكففـــت جنودي عن بلادك وعجل علي بتسريع الجيش الذي أنت باعثه وسرهم فليسيروا إلي من بوادي القرى من جند ابن مروان فيقاتلوهم والسلام.

استجاب المختار لاقتراح ابن الزبير فأرسل جيشاً قوامه ثلاثة آلاف من المـوالـــي تحـــت قـــيادة شرحبيل بن ورس الهمداني وأمره أن يذهب إلى المدينة ويســـتقر هناك ثم يكتب للمختار من هناك وينتظر الأمر منه، ويبدو أن المختار كان يريد احتلال المدينة ثم يذهب لمحاصرة مكة، لكن ابن الزبير انتبه إلى ذلك فأرســـل جيشاً لمواجهة جيش المختار وقد تقابل الطرفان في الرقيم قرب المدينة ودارت الدائـــرة على جيش المختار وقتل قائدة، وبعد هزيمة جيش المختار أمام جيش الزبير كتب المختار إلى محمد بن الحنفية أملاً في الحصول على اعتراف كـــامل مـــنه ليسبغ على حركته صفة شرعية وخابت آمال المختار إذ لم يحصل علـــى هـــذا الاعـــتراف ومع ذلك فقد أخبر المختار زعماء الأحزاب المعارضة للأمويـــين والمؤيدين لـــه أنه قد أمر من قبل ابن الحنفية بأن يجمع البر والبسر ويصرع الكفر والقدر.

اضـــطر محمد بن الحنفية أن يكتب للمختار طالباً منه النجدة والمساعدة وذلـــك لأن ابن الزبير كان قد أعلن في سنة ٦٤هـــ/٦٨٣م نفسه خليفة للمسلمين ولـــم يـــبايعه محمد بن الحنيفة وعبد الله بن عباس فقرر عبد الله بن الزبير أخذ البيعة من محمد بن الحنفية بالقوة، وفي عام ٦٦هـــ/٦٨٥م ألقي القبض عليه مع مجموعة من وجهاء الكوفة وهددهم بالقتل إن لم يبايعوه، وقرأ المختار رسالة ابن الحنفـــية علـــناً والسرور يعمره وأرسل في الحال جنوداً متطوعين إلى مكة ثم

أردف ذلـك بأفواج أخرى حتى بلغ مجموع الذين وصلوا مكة ثلاثة آلاف مقاتل منهم سبع مائة مقاتل من عرب اليمن وكان البقية من الموالي بقيادة قائد عربي، شرحبيل بن ورس من قبيلة همدان اليمانية.

تمكنــت قوات المختار من إنقاذ ابن الحنفية فترك مكة إلى الطائف ولم يذهب إلى الكوفة لأنه لم يكن يثق بالمختار وتطلعه نحو السلطة وربما لم يذهب هـنالك لخوفه من المختار لأن الأخير كان قد روج إشاعة في الكوفة مفادها أن فـي المهـدي علامة يقدم بلدكم هذا فيضربه رجل في السيف لا تضره، وذلك لخوفه من أن قدوم ابن الحنفية إلى الكوفة سيضع حداً لنشاطه المتطرف، وربما كان أن الحنفية يحاول بعدم ذهابه إلى الكوفة تجنب عداء كل من عبد الملك وعبد الله بـن الزبير، يضاف إلى ذلك فإن مستقبل المختار كان لا يزال غير مضمون وفوق ذلك كله فإن ابن الحنفية لم يثق بالكوفيين وتأييدهم بعد الخبرة الفظيعة التي كانت لأبيه وأخويه معهم.

أرسـلت الخلافـة الأمويـة جيشاً بقيادة عبيد الله بن زياد إلى العراق، وأرسـل المختار جيشاً لمواجهتهم والتقى الجيشان بالقرب من الموصل وانتصر جـيش المختار بقيادة يزيد بن أنس لكن جيش المختار انسحب لموت قائدة ولأن الشـاميين بـدأوا يرشقون جيش المختار بوابل من السهام ولذا فلم يتمكن جنود المختار من مواجهة قوات الشام والبالغة ثمانية آلاف وشاع في الكوفة بأن قوات المختار هزمت أمام أهل الشام وأن الشاميين يتقدمون بجيشهم الكبير نحو الكوفة فأمـر المخـتار إبراهيم الأشتر أن يذهب لمحاربة عبيد الله بن زياد على رأس جيش تعداده سبعة آلاف وأن يضم إليه جيش يزيد بن أنس.

إن خروج جزء من جيش المختار من الكوفة وتقدم الجيش الشامي ضد الكوفـة جعـل موقف المختار مهزوزاً وضعيفاً في الكوفة فتجرأ الأشراف على

المختار وأخذوا يعملون للتخلص منه وقد أدانوه لأنه نصب نفسه عليهم دون رضاهم ولاموه لأنه أعطى الموالي جزءاً من الفيء وإعطاءهم العطاء وجعلهم يركبون الخيل، ولذا فقد قرر أشراف الكوفة أن يغتنموا هذه الفرصة السانحة للتخلص من المختار، ولما مضى إبراهيم بن الأشتر للقاء أهل الشام احتل أشراف الكوفة المراكز الرئيسية في الكوفة وحاصروا المختار في القصر والمسجد وعزلوه عن الخارج لكن المختار كان ذكياً فقد اقترح على الذين حاصروه أن يبعثوا من قبلهم وفداً إلى ابن الحنفية ليتأكدوا من تأييد ابن الحنفية له وفي الوقت نفسه أرسل على جناح السرعة من يخبر إبراهيم الأشتر بضرورة العودة بجنوده إلى الكوفة ففعل ابن الأشتر ذلك وعسكر بالقرب من المسجد خلال الليل وفي صباح ٢٤ ذي الحجة سنة ٦٦هـ/٦٨٦م وقع الصدام بين جند المختار والأشراف انتهى بانتصار المختار ونادى المختار من أغلق بابه فهو آمن إلا رجل شرك في دم آل محمد فاستثنى من الأمان من اشتركوا في قتل الحسين فقتل شمر ابن ذي الجوشن وعمر بن سعد بن أبي وقاص وغيرهم، وحقق بذلك شيئين أولهما أنه بر بوعده بالثأر للحسين الذي تمت البيعة له بموجبه والثاني هو إنزال العقاب بالأشراف الذين ثاروا ضده بعد أن حاول كثيراً مصالحتهم وفوق ذلك أنه تحفز بالعبارة التي قيل أن محمد بن الحنفية قالها منتقداً المختار: "عجباً للمختار يزعم أنه يطلب بدمائنا وقتله الحسين جلساؤه وحداثه".

وقد هرب بعض أشراف الكوفة إلى البصرة عند مصعب بن الزبير وبعد أن قبض المختار على زمام الأمور في الكوفة وأرسل بعد يومين ابن الأشتر لمحاربة جيش الخلافة الأموية وأمره أن يهاجمهم متى لقيهم، ودارت معركة طاحنة بين الجيشين على نهر خازر وانتصر جيش المختار انتصارا كبيراً وقتل عبيد الله بن زياد والحصين بن نمير السكوني وغرق معظم الهاربين من أهل الشام.

ولـــم يهـــنأ المختار بانتصاره على أهل الشام فقد واجه خطراً شديداً من البصـــرة حيـــث كان مصعب بن الزبير يتولى الأمر من قبل أخيه عبد الله وقد حـــرض الكوفييـــن الهاربيـــن إلى البصرة وكان عددهم أكثر من عشرة آلاف، مصعب بن الزبير ضد المختار، ولم يستجب لطلبهم إلا بعد أن وافق المهلب بن أبي صفره عاملة على فارس ومعه مقاتلة أهل البصرة على الانضمام إليه وذلك لقدرة المهلب العسكرية ولأن جيش المهلب يضم خيرة مقاتلي أهل البصرة.

ولـــم يكن المهلب في بداية الأمر راغباً في الانضمام ضد المختار لأنه كـــان والياً على خراسان ومنشغلا في حربه ضد الخوارج ثم وافق بعد أن جاءه محمـــد بـــن الأشـــعث الكـــندي مدعياً بأنه مرسل من نساء وأطفال أهل الكوفة يستصرخونه أن يضع حداً لنشاط المختار. التقى مصعب بن الزبير المختار في المـــذار ودارت الدائـــرة على المختار فانصرف منهزماً حتى دخل قصر الكوفة ولاحقـــه مصـــعب وأحاط قصر الكوفة حاصر المختار أربعة أشهر، وكان مع المخـــتار عـــدد كبـــير من الموالي وقليل من العرب لأن العرب كانوا قد تركوا المختار ولجأوا إلى قبائلهم بينما بقي الموالي معه حتى قتل، وقلت هيبة المختار وأنصاره في أعين الكوفيين في فترة الحصار فأخذوا يرمونهم بالحجارة من فوق البيوت ويصبون عليهم الماء القذر.

أطلـــق مصـــعب بن الزبير العنان لأشراف الكوفة ليثأروا لدماء آبائهم وأقـــربائهم من الموالي مما أثار حنق بعض أبناء الصحابة مثل عبد الله بن عمر ابـــن الخطـــاب الذي تربطه بالمختار رابطة المصاهرة. ولم يظهر مصعب أية رحمـــة نحو المختار وأتباعه فقد قتل أولاد حجر بن عدي الكندي الاثنين وكذلك قـــتل ابن حذيفة بن اليمان وقتلت إحدى زوجات المختار لأنها رفضت أن تقول بأن المختار كان مدعياً كاذباً.

وكـــان المختار بأمس الحاجة إلى مساعدة إبراهيم ابن الأشتر واليه على الجزيـــرة في حربه ضد مصعب ولكنه لم يطلب منه ذلك لأنه يشعر بأن إبراهيم لـــم يكـــن مخلصـــاً كل الإخلاص ويفترض دكسن أن العلاقة بين المختار وابن الأشـــتر أصبحت فاترة نوعاً ما منذ الوقت الذي خرج فيه إبراهيم لقتال عبيد الله بـــن زياد وأهل الشام حيث قابله أتباع المختار ومعهم الكرسي وقد عبر إبراهيم عن استيائه من عملهم هذا حين قال اللهم لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء - سنة بني إسرائيل- والذي نفسي بيده إذ عكفوا على عجلهم.ولم يكن الأشتر وحده الذي لم يكن مطمئنا للمختار، فابن الحنفية لم يقر نشاطه أيضا ويذكر ابن سعد أن عبد الله ابـــن الزبـــير أرســـل أخاه عروة إلى ابن الحنفية يأمره بأخذ البيعة منه ويهدده بـــالموت إن رفـــض ذلك فقال عروة لابن الحنفية:"لقد قتل الله الكذاب الذي كنت تدعـــي نصـــرته" فأجـــاب ابن الحنفية:"والله ما بعثت المختار داعياً ولا ناظراً والمخـــتار كـــان إليه أشد انقطاعاً منه إلينا فإن كان كذاباً فطالما قربه على كذبه وإن كان غير ذلك فهو أعلم به.

ســـاهم الموالـــي فـــي حركة المختار بعدد محدود في البداية إذ كانوا لا يزيدون عن خمسمائة لكنهم ازدادوا بعد احتلال المختار الكوفة سنة ٦٦هـــ/٦٨٦ م وقـــد قام العرب بتنظيمهم وإشراكهم في هذه الحركة لدوافع إسلامية أو حزبية وإذا كـــان العرب قد انضموا إلى حركة المختار لأهداف خاصة بهم فإن للموالي دوافعهـــم الخاصة وقد تكون مشاركتهم أحياناً بتذكر الأمجاد الماضية أو بإحياء الآراء الدينـــية الفارســـية القديمة وتبدو هذه الوجهة أكثر وضوحاً باتساع نشاط الغـــلاة الذيـــن تظاهروا بالإسلام حتى إن بعض الحركات العربية شجعتهم رغم خطر اتجاههم كما هو الحال في الدعوة العباسية.

تعتـــبر حركة المختار أول حركة عربية اشترك فيها الموالي تحت ستار الإسلام حاملين روحاً إسلامية داعين إلى مساواتهم بالعرب في الإدارة والمجتمع

وكـــان اشـــتراكهم فـــي حركة المختار هو محاولة لضرب السلطان العربي عن طريق الفكر والعقيدة، وهم يكشفون في اندفاعهم عن صراع ديني ثقافي واسع.

يعلـــق الدكتور فاروق عمر على دور الموالي في حركة المختار وكيف يعتقد البعض أن الموالي قد برزوا في حركة المختار وثبتوا وجودهم ككتلة ذات ميول معارضة للأمويين يقول: -والمعتقد بأن هذه النظرة مبالغ فيها وتحتاج إلى إعـــادة الـــنظر فـــيها فلقد كانت الكتلة العربية التي أيدت المختار كبيرة وتتكون بصـــورة خاصـــة من بجيلة وهمدان وكنده وغيرهم وخاصة عرب آخرون مثل القيســـيين الذين يسكنون جبانه والسبيع والكناسة في الكوفة ولقد تدخلت عوامل كثـــيرة فـــي تقرير أنصار المختار وخصومه منها العداء القبلي ومنها مدى تقبل القـــبائل لمـــبدأ التطرف -الغلو-أو رفضه ومنها الطبيعة البدوية التي ترى بأن العـــرب ســـادة وتـــأبى قبول التنازل عن بعض الامتيازات ولعب العرب أمثال إبراهـــيم بـــن الأشـــتر وموســـى بن أبي موسى الأشعري دوراً كبيراً في ثورة المخـــتار، ولعل هذه العوامل نفسها هي التي أدت إلى تخلي العرب عن المختار في أحرج لحظاته وبالتالي إلى فشل حركته.

وأمـــا زعـــيم الحركة، المختار فقد نعت بأنه سحار ودجال وكذاب وقد وصـــف بذلـــك لادعائه بأنه مكلف من الحنفية بل لأنه قام بأعمال وسلك سلوكاً من شأنها أن تعطي عنه فكرة النبوءة، فقد ادعى بأن جبريل يأتيه ويخبره بقتل الحســـين وكـــان يـــتحكم وكأنه جالس في الحضرة الإلهية ويسجع سجع الكهان بطلاقـــة ومهارة، وكان يوجه الانفعالات الدينية لغايات سياسية وكان ذا طموح سياسي فاستخدم جميع الوسائل من أجل تحقيق هذا الطموح.

الخـــوارج:

أصلهم:

أشتق هذا الاسم من الفعل (خرج) لأنهم خرجوا على علي بعد أن كانوا ضمن جيشه وأنصاره، ويسمون أنفسهم (الشراة) أي الذين اشتروا الآخرة بالدنيا ويطلــق علــيهم (المحكمــة) وهــم يقولون لا حكم إلا لله، ويطلق عليه أحياناً (الحــرورية) نسبة إلى حروراء وهو المكان قرب الرقة على الفرات نزلوه بعد رجوع جيش علي بن أبي طالب من صفين ٣٧هـ/٦٥٧م.

أفــرزت معــركة صفين هذا الحزب العربي المعارض، فحين رفع أهل الشــام المصاحف على أسنه الحراب ودعوا إلى تحكيم كتاب الله أدرك علي بن أبــي طالب الحيلة فلم يقبل بذلك، لكنه أجبر على إصدار الأوامر بإيقاف الحرب وقــبول التحكيم، وتقدم الأشعث بن قيس وفرض نفسه ممثلا لعلي بن أبي طالب في مفاوضاته مع معاوية وتبنى الأشعث بن قيس اقتراح معاوية الذي يقوم فيه أن يختار كل فريق من يمثله ليقر حكم القرآن فيمن منهما أحق بالخلافة، عرض ابن الأشــعث ذلــك على جيش علي فوافقوا عليه دون استشارة علي واختاروا دون موافقــة علــي أبا موسى الأشعري واختار أهل الشام عمرو بن العاص. وحدد الطرفان دومة الجندل مكانا للاجتماع على أن يكون في شهر رمضان من عام ٣٤هـــ/٦٥٧م وكتبوا وثيقة بذلك ثم عاد علي بن أبي طالب بعد ذلك مع أتباعه إلـــى العــراق وقد وقع الانقسام في صفوفهم وكانوا يتشاتمون ويتضاربون في الطــريق وانفصل عن جيش علي اثنا عشر ألف رفضوا العودة معه إلى الكوفة وساروا إلى قرية حروراء حاملين شعار لا حكم إلا لله في حين عاد جند معاوية وهم متحدون متضامنون.

يـــرى الخوارج أن تقرير الأمور العامة يجب أن يكون وفقا لأوامر الله ونواهـــيه، لكن سياستهم لم تكن موجهة نحو أهداف معينه يعملون على تحقيقها، وهـــم يـــبذلون كل إمكاناتهم العسكرية لتحقيق سياسة خلو من كل سياسة للفوز بالجنة ويطالبون النجاة لأنفسهم بأن يقاتلوا (الجماعة) الكافرة دون أي تحفظ من قـــبل غيرهم أو قبل أنفسهم وعلى الفرد في رأيهم أن يؤمن إيماناً وثيقاً بحقه في العقـــيدة الدينية والسياسية وعليه أن يبذل كل ما في وسعه لقول الحق وأن يثبت ذلك بالأعمال ومن يشك في أنه على حق فهو كافر، ومن انحرف في عمله عن الصـــراط المســـتقيم فهو كافر خصوصا إذا ادعى أنه لا يمكن تجنبه في جميع الأحـــوال ومـــن زل زلة فقد خرج عن الإسلام ولا يجدد إيمانه إلا بعد أن يعلن توبته علناً والأمور كلها إما حلال أو حرام ولا وسط بينهما. ذهب علي بن أبي طالـــب إلـــى الخوارج في حروراء، وخاطبهم بغية إقناعهم ليعودوا إلى صفوف جنده لكنهم استمروا في انشقاقهم ولم يرغبوا في العودة إلى صفوف جنده وحان وقـــت التحكيم ولم يكن أبو موسى الأشعري كفئا لعمرو بن العاص ففاز معاوية بالتحكـــيم. وفـــتح التحكـــيم بابـــاً جديداً في الفرقة بين علي وجنده وقوى جانب الخوارج على علي ولم يعد هناك أمل في رجوعهم إلى جنده.

حركات الخوارج:

أخـــذت أفكـــار الخـــوارج تظهر مشوبة بمبالغات عنيفة، فعبثوا بأموال المسلمين وأرواحهم فاضطر علي بن أبي طالب إلى أن يسير إليهم ثم خطب فيهم ليحـــثهم علـــى الطاعـــة والعودة لصفوف جيشه وتسليمه من عبث منهم بأرواح المســـلمين، فاستجاب قسم منهم لدعوته ورفض معظمهم ثم دارت الدائرة عليهم في معركة النهروان ولم تنج إلا فئة قليلة منهم.

ومن نتائج معركة النهروان أن تفرق الذين نجوا من المعركة فذهبوا إلى عمـان وكـرمان وسجسـتان والجزيرة واليمن ونشروا أفكار الخوارج في هذه المواضع، ثم قرر الخوارج تنفيذ مؤامرة لاغتيال علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص في يوم واحد، وفي سنة ٤٠هـ/٦٦٠ اغتالوا علي ابن أبي طالب ونجا منهم معاوية وعمرو بن العاص.

وفـي سـنة ٤١هـ/٦٦١م ازداد عداء الخوارج للخلافة الأموية اعتقاداً مـنهم بـأن معاويـة كان غاصباً للسلطة ولذا فقد توالت حركات الخوارج ضد معاويـة ولعل أول من ثار منهم فروة بن نوفل الأشعبي، فاستعان معاوية بأهل الكوفة الذين أبلوا بلاءً حسناً في حرب الخوارج حتى هزموهم.

وفي سنة ٤٢هـ/٦٦٢م تجمع جرحى النهروان الذين انحازوا عمن قتل مـنهم بالنهروان وقرروا محاربة معاوية، فجاءوا الكوفة وكان المغيرة بن شعبة والـياً علـيها وكان الخوارج يلقي بعضهم بعضا ويتذاكرون أخوتهم بالنهروان ويرون أن في الإقامة الغبن والوكف، وأن في جهاد أهل القبلة الفضل والأجر.

وقـد فـزع الخـوارج إلى ثلاثة نفر المستورد بن علفة التميمي من تيم الـرباب و حـيان بن ظبيان السملي ومعاذ بن جوين وتشاوروا فيما بينهم فيمن يولونه عليهم، وأخيراً استقروا على أن يؤمروا عليهم المستورد بن علفه وتجمع الخـوارج حوله واستعدوا ليوم يخرجون فيه على الوالي، لكن المغيرة بن شعبه والي الكوفة تمكن من إلقاء القبض على معظمهم قبل تنفيذ الثورة، لكن المستورد ابـن علفـه الذي أعطاه الخوارج لقب أمير المؤمنين لم يلق عليه القبض فخرج علـى سـلطة المغيرة ببقية أصحابه وبعد معارك طويلة تمكن المغيرة من قتل المستورد بن علفه وفي هذه المعارك قتل قائد جيش المغيرة معقل بن قيس.

وشـــهر الخوارج سلاحهم بوجه زياد بن أبي سفيان، وبذل زياداً جهوداً فـــي حربه ضدهم حتى قلم أظافرهم واضعف شوكتهم، واشتد عبيد الله بن زياد على الخوارج أكثر من أبيه وقتل منهم جماعة صبراً على صبر، منهم عروة بن أديه أخو مرداس بن أديه. وخرج أخو مرداس في أربعين رجلاً بالأحواز فبعث إلـــيهم عبـــيد الله بـــن زيـــاد جيشاً عدته ألفان وعليهم ابن حسن التميمي فهزمه الخوارج، على أن ما أصابه مرداس بن أدية لم يأت بطائل فقد عزم عبيد الله بن زياد على استئصال شأفته وشأفه من يناصره فأرسل إليهم ثلاثة آلاف أوقعوا به وقـــتلوه مع كثير من أصحابه وذلك سنة ٦١هـــ/٦٨٠م. اضطربت التجارة في البصـــرة وزادت الـــبطالة فيها بسبب الاضطرابات السياسية التي أعقبت إخراج عبـــيد الله بن زياد بعد موت يزيد بن معاوية فانضم عدد غير قليل من الأعاجم إلـــى الخـــوارج الذين أعطوهم بعض الأمل بما كانوا ينادون به من مساواة بين المسلمين، يضاف إلى ذلك أن الخوارج كانوا يعطون الأعاجم العطاء.

وفي سنة ٦٢هـــ/٦٨١م جاءت فرقة من الخوارج بزعامة نجدة بن عامر إلـــى عـــبد الله بن الزبير في مكة، وكان نجدة يلقى ابن الزبير فيكثر حتى ظن الـــناس أنه سيبايعه، وكذلك جاءت فرقة أخرى بزعامة نافع بن الأزرق وقد جاء هؤلاء الخوارج ليمنعوا مكة من جنود الشام وليعرفوا ما عند ابن الزبير فتناظروا معـــه واختلفوا عنه لأنه قدم أبا بكر وعمر ولم يتبرأ من عثمان وعلي ولم يكفر أباه وطلحة.

انقسم الخوارج سنة ٦٢هـــ/٦٨١م إلى أربع فرق بعد أن كانوا على رأي واحـــد، فـــرقة الأزارقة وهم أتباع نافع بن عبد الله بن الأزرق وكانت البصرة المركـــز الرئيســـي لهم، وفرقة النجدات التي اختارت نجده بن عامر رئيسا لهم وكانت اليمامة أهم قواعدهم، والصفرية أتباع عبد الله بن صفار والأباضية اتباع عبد الله بن أباض.

وتعـــارض فرقة الأزارقة بقية فرق الخوارج لأنها تبيح قتل من خالفوها مـــن المســـلمين وفـــي رأيها أن المسلم الحقيقي هو الذي ينخرط في سلكهم، أما القـــاعدون فليسوا بمسلمين وللخوارج قتلهم واسترقاقهم ثم كفرت فرق الخوارج بعضهاً بعضاً وانتقل الأزارقة من البصرة إلى الأحواز فأقاموا بها وطردوا عمال الخلـــيفة عـــنها وجبوا الخراج، وفشوا في السواد، فارتاع لذلك أهل البصرة إلى الوالي وجمعوا عشره آلاف مقاتل وتمكنوا من إلحاق الهزيمة بالخوارج واللحاق بنافع بن الأزرق.

ومن الأحواز قاد نافع حملة وأقبل نحو البصرة، لكن أهل البصرة تمكنوا مـــن إبعـــاده عن البصرة وطاردوه حتى بلغ مكانا من أرض الأحواز على نهر دجـــيل وهو النهر الفاصل بين الحدود فوقع قتال عنيف انتهى بانتصار الخوارج نحو البصرة.

غـــير أن تطـــرف الأزارقـــة، واضطراب التجارة في البصرة كان من الأسباب التي جمعت أهل البصرة ضد الأزارقة ودفعتهم لانتخاب المهلب بن أبي صـــفرة وتـــزويده بالمال لقتال الخوارج بذا تمكن أهل البصرة من دفع الخوارج وملاحقـــتهم إلـــى الأحـــواز وقد طاردوهم حتى ارتفعوا بهم إلى كرمان وجانب أصفهان.

وفـــي الأحـــواز انضم عدد كبير من الموالي إلى الخوارج بدوافع قومية وتحت شعار مطالبة المساواة مع المسلمين ويذكر أن المهلب كان أول من ضرب الركـــب من الحديد وهو أول من أمر باستعمالها في حربه ضد الخوارج ذلك أن ركب الناس كانت قديماً من الخشب فكان الرجل يضرب ركابه فيتقطع فإذا أراد الضرب أو الطعن لم يكن له معتمداً. وبعد الخسائر التي مني بها الخوارج فإنهم

ارتحلـــوا عن الأحواز وساروا إلى الجبال وبايعوا الزبير بن علي وهو من بني سليط بن يربوع واشتبكوا مع المهلب في مناوشات على حدود فارس والأحواز.

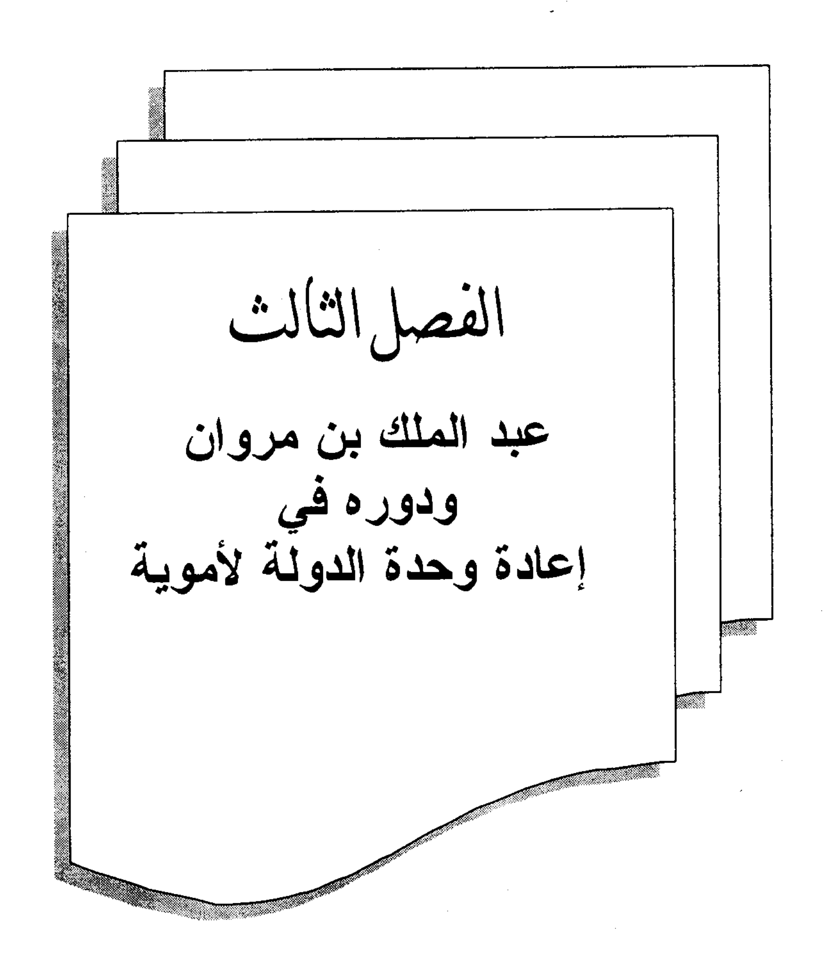
وعـــندما قضـــى مصـــعب بـــن الزبير على المختار أرسل المهلب إلى الموصل لحماية حدود العراق من أهل الشام وخلع المغيرة بن المهلب الذي كان نائباً عن أبيه على فارس وولى مكانه عمر بن عبيد الله بن معمر وكان ذلك في بدايـــة ٦٨هـــــ/٦٨٧م فشـــخص إلى الخوارج فانسحبوا إلى أصفهان وكرمان. وزحف الخوارج من فارس والأحواز إلى البصرة ثم غيروا اتجاههم نحو المدائن فأثاروا الرعب في قلوب الناس، وكان والي الكوفة القباع (الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة) متثاقلاً عن قتال الخوارج في أول الأمر لكنه خرج إليهم فمالوا دون قـــتال إلـــى البصرة ومضوا إلى ميديا وهاجموا مدينة الري وحاصروا أصفهان ولكـــنهم خسروا الكثير في هجماتهم هذه وقتل قائدهم الزبير بن الماحوز فبايعوا قطري بن الفجاءه الذي عاد بهم إلى كرمان.

ثـــم زحفوا على مرو وأصفهان فالأحواز وعبروا نهر دجيل حتى بلغوا ســـولاف ففزع أهل البصرة وأصبحت مدينتهم مهددة فكتبوا إلى مصعب طالبين انجادهم بالمهلب واصطدم بالخوارج لمدة عدة اشهر عند سولاف وعندما انتهت معـــركة مسكن سنة ٧٢هــ/٦٩١م بانتصار عبد الملك بن مروان وقتل مصعب ابن الزبير وأخذ المهلب البيعة من الناس لعبد الملك بن مروان.

عيـــن عبد الملك بن مروان ولاة أمويين نحوا منحى المهلب في حربهم ضد الخوارج فولى على البصرة خالد بن عبد الله بن أسيد الذي قاد الحرب ضد الأزارقـــة بنفســـه وتمكن من دفعهم إلى كرمان ثم رجع إلى البصرة وأمر على فارس أخاه عبد العزيز الذي خاض حرباً عنيفاً ضد الخوارج فهزموه شر هزيمة

وتقــدم الخــوارج واســتولوا على الأحواز حتى بلغوا فرات ميسان في مواجهة البصرة.

عــزل عبد الملك بن مروان خالد بن أسيد عن ولاية البصرة وولى بدله أخاه بشر بن مروان وهو بالكوفة فاجتمعت لــه البصرة والكوفة وأمره أن يولي المهلب الحرب على الأزارقة ويجعله مستقلاً عنه، وخوله الحق في جميع جنوده مــن البصرة وكذلك أمره أن يزوده بجيش من أهل الكوفة وتمكن المهلب عندئذ من طرد الأزارقة من الفرات حتى الجبال.



الفصل الثالث

عبد الملك بن مروان ودوره في إعادة وحدة الدولة لأموية

دامـت خلافة عبد الملك بن مروان إحدى وعشرين سنة ٦٥- ٨٦هـ/ ٦٨٤-٧٠٥م وهـي فترة مليئة بالأحداث السياسية الخطرة -ولهذه الفترة أهميتها فـي الـتاريخ العربي الإسلامي لأنها فترة إعادة توحيد القوى العربية الإسلامية وترسـيخ الهدوء والاستقرار السياسي في الدولة العربية الإسلامية، وقد ظهرت نـتائج هذه الاستقرار في عهد الوليد بن عبد الملك الذي شهد عصره الفتوحات الإسلامية الواسعة والأعمال العمرانية الضخمة والضمان الاجتماعي الذي شمل معظم أرجاء الدولة العربية الإسلامية.

بـدأ عـبد الملـك عهده بإقامة السلام مع البيزنطيين لمدة عشر سنوات لغرض التفرغ لحل المشاكل الداخلية والعمل على إعادة وحدة الدولة العربية.

القضاء على حركة عمرو بن سعيد الأشدق ٧٠هـ/٦٨٩م:

مـن مقررات مؤتمر الجباية أن يكون مروان بن الحكم خليفة المسلمين علـى أن يخلفـه خالد بن يزيد بن معاوية ومن بعده عمرو بن سعيد بن العاص الأشـدق لكن مروان بن الحكم بدأ يعمل لاستبعاد خالد بن يزيد وعمرو بن سعيد مـن ولاية العهد بعد أن انتصر على أنصار ابن الزبير في معركة مرج راهط ٦٤هـ/٦٨٣م لاعتقاده بأنه وصل إلى الحكم بالقوة وكانت عملية إزاحة خالد بن يزيد عن طريقه سهلة لصغر سن خالد ولأن مروان دبر زواجاً سياسيا بينه وبين أم خالد، ثم مات مروان بعد أن سمى ابنه عبد الملك خليفة للمسلمين من بعده ثم ابـنه الآخر عبد العزيز بعد عبد الملك وقد أعلن عهد مروان هذه سنة ٦٥هـ/ ٦٨٤م أي بعـد موته وأصبح نافذ المفعول بمساعدة رئيس بني كلب حسان ابن مالك بن بحدل، وبايع بعد الملك لنفسه ووعد عمرو بن سعيد أن يستخلفه فبايعه وأقـام بالشـام وشـرط عليه أن لا يقطع شيئاً دونه ولا ينفذ أمراً إلا بمحضره فأعطاه ذلك.

وعـندما خـرج عـبد الملك من دمشق لمحاربة مصعب بن الزبير في العـراق، طلـب ابن الأشدق من عبد الملك بن مروان أن يعينه ولياً لعهده ليبر بوعده، وكان ذلك في طريقهم إلى العراق.

لكـن عبد الملك لم يكترث لذلك فترك ابن الأشدق وأتباعه معسكر عبد الملـك ليلاً عائداً إلى دمشق وفي رواية أخرى أن ذلك تم عندما كان عبد الملك مـتوجها للقضاء على زفر بن الحارث الكلابي وليس في حملته ضد مصعب بن الزبير وقد تمرد ابن الأشدق في دمشق وتحصن بها مطالباً بتنفيذ ما وعد به في مؤتمر الجابية من حق في الخلافة وحرمه منه مروان بمخالفة مقررات المؤتمر المذكور.

وقـد حاصـر عـبد الملـك ابن الأشدق ستة عشر يوما تمت خلالها مراسـلات ومفاوضـات توصل فيها الطرفان إلى اتفاق تم بموجبه استسلام ابن الأشدق ودخول عبد الملك دمشق.

ومـن الأمور التي وردت في الاتفاق أن يتولى ابن الأشدق بيت المال والدواوين ويمثله موظف مع كل موظف يعينه عبد الملك وان يستشير عبد الملك ابن مروان في جميع قراراته وأن يخلف ابن الأشدق عبد الملك في الخلافة، ولما كـان هذا الاتفاق معقدا ولا يمكن تطبيقه عمليا فقد قرر عبد الملك التخلص من ابن الأشدق فدعاه إلى قصره وقتله.

قـد يكون عبد الملك محقا بعض الشيء لأنه اعتقد أن ليس هناك مكاناً للطموحيـن فـي ذلـك الظرف السياسي المضطرب مما قد يقوض وحدة الدولة العربية الإسلامية وأمنها وكان مقتل ابن الأشدق عبرة للآخرين.

وقـد رمى عبد الملك برأس القتيل إلى الناس مع مبالغ كبيرة من النقود، فانشغل الناس بجمع المال وتركوا الرأس ثم أمر مناديا ينادي "أن أمير المؤمنين

قد قتل صاحبكم بما كان من القضاء السابق، والأمر النافذ، ولكم على أمير المؤمنين عهد الله وميثاقه أن يحمل راجلكم ويكسو عاريكم ويغني فقيركم ويبلغكم إلى أكمل ما يكون من العطاء والرزق، ويبلغكم إلى المئتين في الديوان، فاعترضوا على ديوانكم وأقبلوا أمره وأسكنوا إلى عهده، يسلم لك دينكم ودنياكم. فصاحوا نعم، نعم سمعاً وطاعة لأمير المؤمنين".

هناك أمر هام ورد في هذا النداء هو أن الخليفة يتبنى فكرة الغدر في المجال السياسي لإسكان الخصوم والمعارضين له وأن هناك عدداً لا بأس به من الناس في دمشق على الأقل يؤمن بفكرة القدر هذه.

وأمضى عبد الملك بقية سنة ٧٠هـ/٦٨٩م في دمشق لتصفية بعض أمور دولته ومصالحة الروم، وفي بداية سنة ٧١هـ/٦٩٠م جدد حملته ضد مصعب بن الزبير.

القضاء على حركة أبناء الزبير:

القضاء على حركة مصعب بن الزبير:

في سنة ٧١هـ/٦٩٠م سار عبد الملك بن مروان إلى العراق لمحاربة مصعب بن الزبير حتى وصل بطنان حبيب، وقد كان مصعب في انتظاره في باجميرا حيث عسكر هناك وحل الشتاء ولم تحصل بينهما معركة فرجع كل منهما إلى بلده.

استغل عبد الملك غياب مصعب عن البصرة فكتب إلى أنصاره الأمويين فيها داعياً إياهم إلى الوقوف بجانبه ضد مصعب وواعداً إياهم بالعطايا السخية وقد نجح في ذلك إذ أرسل خالد بن عبد الله بن أسيد الذي تمكن من السيطرة على البصرة وكان خالد قد ذهب إلى البصرة سراً واختبأ عند أحد أشراف قبيلة باهلة

وذلـك لـولاء هـذه القبـيلة للأمويين ثم طلب خالد مساعدة رئيس قبيلة بكر ابـن وائل في البصرة، وأنجدته قبائل الأزد إضافة إلى قبائل ثقيف وتميم وعبد القـيس وسـدوس وكانت أغلبية من وقف إلى جانب مصعب بن الزبير هم من القبائل المضرية وعلى رأسهم عمرو بن عبد الله بن معمر التميمي والي مصعب ابن الزبير على البصرة وهذا يعني أن العصبية القبلية لعبت دورا رئيسيا في هذا الصـراع أن العامل الذي لعب الدور الرئيسي في حصول خالد على هذا التأييد هو الامتيازات السخية التي أعطيت لأتباع الأمويين في البصرة.

واصطدم الطرفان في الجفرة سنة ٧٠هـ/٦٨٩م وهي منطقة من مناطق المريد، وأسفرت المعركة عن انتصار ابن الزبير ودخل الطرفان في مفاوضات أسـفرت عـن منح الأمان لخالد وأولئك الذين أيدوه وأن يرجع خالد إلى دمشق وحاول مصعب عبثا وصول البصرة قبل خروج خالد وأتباعه منها، ومع ذلك فقد عاقب وبشدة أنصار الأمويين الذين بقوا في البصرة.

حان الوقت لعبد الملك للقاء خصمه مصعب بن الزبير فخرج بجيش كبير مـن دمشق يريد العراق فعسكر في مسكن وعندما سمع مصعب بذلك توجه إلى معسكره في باجميرا ثم دارت حرب بينهما في دير الجاثليق بين مسك وباجيميرا سنة ٧٢هـ/٦٩١م.

وبدأ عبد الملك بمحاولة لتفريق رؤساء أصحاب مصعب من حوله وذلك بأن كتب لهم يستميلهم إليه ويعرض عليهم الدخول في طاعته، ويبذل لهم في ذلك الأموال.

وكان كثير من الحاقدين على مصعب قد كاتب عبد الملك عارضين عليه المساعدة لقاء ولاية أصفهان وكان مصعب قد جلب على نفسه نقمة الكوفيين لقتله سـتة آلاف من أتباع المختار، وكان أهل البصرة قد حقدوا على مصعب لعقابه

القاسي الذي تعرضوا له بعد فشل خالد بن عبد الله بن أسيد في حربه ضد جيش مصعب في الجفرة، إن العوامل السابقة الذكر هي التي عزلت مصعب بن الزبير عن أهل الكوفة والبصرة، وقد شعر مصعب بذلك فحاول دون جدوى التقرب من أهل الكوفة والبصرة بأن أعطاهم العطاء مرتين في السنة.

وقد ألح أهل البصرة على مصعب بن الزبير على ضرورة درء خطر الخوارج قبل حرب عبد الملك بن مروان، وقد اضطر مصعب أن يستجيب لهذا الطلب ويرسل المهلب بن أبي صفرة على رأس جيش لمحاربة الخوارج، ولم يلتفت مصعب إلى تحذيرات ابن الأشتر الذي استلم رسالة من عبد الملك يطلب منه الانضمام إلى جانبه ويمنيه فيها بالأماني أن فعل ذلك فقال ابن الأشتر لمصعب: أيها الأمير لست أشك أن عبد الملك قد كتب إلى عظماء أصحابك بنحو ما كتب إلي وأنهم مالوا إليه فأذن لي في حبسهم إلى فراغك وقد ذكر الطبري والبلاذري أسماء رؤساء القبائل الذين تخلوا عن مصعب وقد اعتزلت ربيعه الحرب بعد أن كانوا في ميمنة مصعب وقالوا لا نكون معك ولا عليك.

وعندما التقى القوم في أول الحرب وقتل الكثير من قادة مصعب وعلى رأسهم إبراهيم بن الأشتر هرب عتاب بن ورقاء وكان على خيل أهل الكوفة مع مصعب ورفض قطن عبد الله الحارثي ومعه قبيلة مذحج وحجار بن أبجر محمد ابن عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمداني الانصياع لأوامر ابن الزبير وتركوه في ساحة المعركة.

وبسبب الصداقة القديمة بين عبد الملك ومصعب بعث عبد الملك إلى مصعب قائلا: "يا مصعب قد علمت ما جرى الله بيني وبينك منذ ثلاثين سنة وما اعتقدته إخائي وصحبتي فثق بذلك مني وانصرف إلى وجوه هؤلاء القوم وخذ لي بيعة هذين المصرين والأمر أمرك لا تعصى ولا تخالف وإن شئت اتخذتك

صـــاحبا لا تخفى ووزيرا لا تعصى فقال له مصعب: ولكن بعد قتلك عمرو بن سعيد لا يطمأن إليك وهو أقرب رحماً مني إليك فكان لا بد للحرب من أن تدور وتسحق الكثيرين ومنهم مصعب بن الزبير.

القضاء على حركة عبد الله بن الزبير:

لما قتل مصعب بن الزبير دخل عبد الملك بن مروان الكوفة وأخذ البيعة مـــن أهلهـــا وفرق أعمال العراق والمصرين والكوفة والبصرة على عمالة، ثم أرسل حملة بقيادة الحجاج بن يوسف ضد عبد الله بن الزبير في مكة وقد أختار عـــبد الملك الحجاج لهذه المهمة بعد أن أظهر الحجاج كفاءة وموهبة في قضائه علـــى المتمرديـــن بيـــن جـــند الخليفة عندما كان على ساقة الجيش الذي أرسل لمحاربـــة مصـــعب بـــن الزبـــير وقبل هذه الحادثة كان الحجاج قد برهن على إخلاصه لعبد الملك عندما فاوض زفر بن الحارث الكلابي ورفض الصلاة خلف زفر لتمرده ضد الخليفة.

وكـــان عـــبد الملـــك بن مروان قد أرسل جيشا في الأيام الأولى لتقلده الخلافة وقد أمر هذا الجيش بالذهاب إلى الحجاز وبعدم دخول المدينة.

وقد هرب والي عبد الله بن الزبير من المدينة وظلت المدينة بدون وال وبقـــى جيش عبد الملك مرابطا قرب المدينة ثم رجع الجيش إلى بلاد الشام بأمر من عبد الملك، ثم أرسل عبد الملك جيشا آخر إلى الحجاز أدى إلى هروب والي ابن الزبير إلى فدك وخيبر وجيشا ثالثا للشام بقيادة طارق ابن عمرو ليعسكر بين أيلـــه ووادي القـــرى ليمنع ابن الزبير من التوسع وبقي جيش طارق هناك حتى جاءته أوامر عبد الملك بالانضمام إلى جيش الحجاج بن يوسف الثقفي.

عسكر الحجاج في الطائف ومنها كان يرسل بعض قواته لغارات موفقة ضد عبد الله بن الزبير وكان تتم خلالها مفاوضات فاشلة مع ابن الزبير وأخيرا طلب الحجاج من عبد الملك أن يأذن له بمهاجمة مكة وإخضاع ابن الزبير.

لـــم يكـــن عبد الملك في بداية الأمر راغباً في إرسال جيش إلى الأماكن المقدســـة في مكة والمدينة وأمر عبد الملك الحجاج بن يوسف أن يتخذ الطائف ولـــيس مكـــة محـــلاً لإقامته لمحاربة ابن الزبير ويذكر البلاذري أن الحجاج لم يـــتقرب مـــن المديـــنة ولا من الطريق المؤدي إليها بل سار بطريق الزبذة إلى الطائف ويروي الطبري: بعث عبد الملك بن مروان حين قتل مصعب بن الزبير الحجاج بن يوسف إلى ابن الزبير بمكة، فخرج في ألفين من جند أهل الشام، فلم يعرض للمدينة وسلك طريق العراق، فنزل الطائف.

وكـــان عبد الملك قد أمر الحجاج عند إرساله لمحاربة عبد لله بن الزبير أن لا يهـــتك أســـتار الكعبة ولا يرمي أحجارها وأن يحاصر ابن الزبير حصارا محكما حتى يستسلم أو يموت جوعاً، وبعد سنة غير عبد الملك رأيه ووافق على حصـــار مكة وضرب الكعبة بالمنجنيق لأسباب عديدة منها: استغلال عبد الله بن الزبـــير حـــرمة مكة والمدينة لأغراض سياسية معتقداً أن عبد الملك لا يستطيع مهاجمـــتها دون أن يثير رد فعل شديد ضده بين المسلمين وربما كان عبد الملك يـــدرك أن احـــتلال عـــبد الله بـــن الزبير للحرم المقدس كان يهدد وحدة العالم الإســـلامي طالمـــا أن مؤيـــدي عبد الملك كانوا يمنعون من أداء فريضة الحج، والأهـــم من ذلك فإنه من المستحيل آنذاك وجود خليفتين للمسلمين في آن واحد وعلـــى هـــذا الأساس يمكن القول أن الأسباب الدينية التي منعت عبد الملك من مهاجمة مكة والمدينة هي نفسها دفعته أخيرا لمثل هذا الهجوم.

ويذكـــر المقدســـي بأن الحجاج ضرب بالمنجنيق ذلك الجزء من الكعبة الـــذي لم يكن قائما خلال حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو جزء إضافي كان عبد الله بن الزبير قد بناه وسماه (الحطيم) فهو غير مقدس من الناحية الدينية فـــي رأي عبد الملك، وبعد مقتل عبد الله بن الزبير أمر عبد الملك بتهديم كل ما اســـتحدثه ابـــن الزبير من بناء وأعاد بناء الشكل الأصلي للبناية كما كانت أيام الرسول (صلى الله عليه وسلم).

وفـــي أثـــناء رمي الكعبة ومكة بالمنجنيق حدث رعد وبرق وصواعق وسقطت صاعقة على المنجنيق فأحرقته وقتلت بعض رجال الحجاج فخاف أهل الشـــام وتوقفوا عن الرمي معتقدين أن الله غضب عليهم لمهاجمتهم الكعبة ولكن الحجـــاج اســـتطاع أن يقـــنع جنده أنها مجرد ظاهرة طبيعية وأنها من علامات النصر.

وأخـــذ أصـــحاب ابن الزبيز يتفرقون عنه تدريجيا وأخيرا القوا السلاح وخرجوا إلى الحجاج يطلبون الأمان وكان أبناء عبد الله بن الزبير حمزة وحبيب فيمـــن خرج وطلب الأمان من الحجاج، وعندئذ أدرك ابن الزبير أنه مقتول على كـــل حـــال. ودخل على أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق وكانت عجوزاً عمياء وبلغـــت من السن مائة عام، فقال لها: يا أمه إني أخاف إن يقتلني أهل الشام أن يمـــثلوا بي ويصلبوني فقالت: يا بني إن الشاه إذا ذبحت لم تألم السلخ، فقال هذا رأيي وقبل يديها ورفع درعه حتى لا يثقله وخرج يقاتل وحده حتى قتل.

لقد عانى ابن الزبير وأنصاره من حصار الحجاج كثيراً فقد منعت عنهم المـــواد الغذائية والتجهيزات، فارتفعت الأسعار في مكة ومما زاد الطين بله هو بخل ابن الزبير وتقتيره في حين كانت الإمدادات والمواد الغذائية تصل إلى جيش الحجـــاج بانتظام الأمر الذي حدا بالكثير من أنصار عبد الله بن الزبير أن يتخلوا

عـــن عـــبد الله وينضـــموا إلى جيش الحجاج ومنهم اثنان من أولاد عبد الله بن الزبير.

وبمقتل عبد الله بن الزبير وخضوع الحجاز لعبد الملك بن مروان يكون عـــبد الملك الخليفة الوحيد والشرعي للمسلمين ولهذا السبب فقد أطلق على عام ٧٣هـ/٦٩٢م (عام الجماعة).

لقـــد كـــان للعوامل الدينية الدور الفعال في تأييد عدد كبير من المسلمين لحـــركة عبد الله بن الزبير، وقد شعر عبد الله بأهمية هذا العامل فقد حاول تقليد عمـــر بن الخطاب في حمل الدرة كشعار لخلافته وبث دعاية فيما بين المسلمين من أن عثمان جعله على رأس المدافعين عن داره وقد استغل قدسية مكة واتخذها مركزا لحركته وأطلق على نفسه لقب العائذ، وكانت قرابته من الرسول من جهة أمـــه وأبيه، واعتقاد أهل الحجاز أن أولاد الصحابة أحق من غيرهم بالخلافة من الأمور التي ساعدت على إسباغ الصفة الدينية على نفسه.

واعتقد البعض أن نجاح ابن الزبير سيعيد للحجاز أهميتها السياسية التي فقدتهـــا منذ مقتل عثمان وكان عبد الله بن الزبير بؤرة تجمعت حولها الأحزاب المعارضة للحكم الأموي خاصة بعد مقتل الحسين بن علي.

وقـــد لعـــب العـــامل الاقتصادي دوره الفعال في خلق روح العداء ضد الأمويـــين مـــنذ عهد معاوية الذي جعل الولايات تساهم في نفقات الدولة واعتبر العطـــاء لقـــاء الخدمـــة في الجيش فحرم بذلك عدداً كبيراً من أهل الحجاز من عطـــائهم باعتبارهم ورثة لمستلمي العطاء الأولين. يضاف إلى ذلك أن احتكار الأمويين لسوق المواد الغذائية وتحكمهم في أسعارها في المدينة أدى إلى ارتفاع أسعار المواد الغذائية في المدينة مقارنة مع أسعارها في المدن الإسلامية الأخرى

مما سبب نقمة الناس ضد الأمويين وقد وجد المتذمرون في حركة ابن الزبير وسيلة للتعبير عما يجيش في نفوسهم.

أما عوامل فشل حركة عبد الله بن الزبير فتتلخص في كون عبد لله بن الزبير لم يكن سياسياً بالدرجة التي كان عليها منافسه عبد الملك بن مروان فقد أظهر ضعفاً في مجال الدعاية والإعلام يضاف إلى ذلك بخل عبد الله بن الزبير وعدم رغبته في توزيع الأموال بسخاء لغرض جمع الناس حوله. وفي الوقت الذي كان فيه عبد الملك يظهر الكرم والصفح عن أعدائه كان عبد الله بن الزبير يوزع على أنصاره الصاع أو الصاعين من التمر حتى إذا أظهروا تراخيا في تنفيذ أوامره خاطبهم قائلا: أكلتم تمري وعصيتم أمري.

وقد كانت مكة منطقة فقيرة اقتصاديا تعتمد في معيشتها على المناطق الأخرى يضاف إلى ذلك فإن عبد الله بن الزبير لم يرفد أخيه مصعبا، في العراق بأية مساعدة بل تركه مستفيدا من مصادره الخاصة والتي سرعان ما استنفذت في حربه ضد الخوارج والمختار بن عبيد الثقفي ولذا فلم يعد مصعب قادراً على مقاومة الأمويين، وختاما فإن ابن الزبير لم يتمكن من استقطاب المعارضة في العراق إلى جانبه بل كان قد استفزهم فنفروا منه وانحازوا إلى خصومه، كما حصل عندما ألقى القبض على ابن الحنفية وهدده بالقتل إن لم يبايع فاضطر ابن الحنفية أن يستنجد بالمختار كما ذكرنا سابقا.

القضاء على خطر الخوارج:

أمر عبد الملك بن مروان أمير العراق بشر بن مروان بأن يعهد مهمة الأزارقة إلى المهلب بن أبي صفرة، وقد شق ذلك على بشر بن مروان لأن أسرة المهلب جاءت مباشرة من أخيه لذا فقد وضع بشر بعض العراقيل في طريق

المهلـــب ليفشـــله في مهمته، ولكن ذلك لم يثني المهلب الذي تمكن من مطاردة الخوارج ولاحقهم حتى الجبال.

وفـــي سنة ٧٤هـ/٦٩٣م مات بشر بن مروان فوجه عبد الملك الحجاج ابـــن يوســـف الثقفي واليا على العراق (٧٥-٩٥هـ/٦٩٤-٧١٣م) وقرت بذلك عين المهلب الذي بدأ بالهجوم ضد الأزارقة في عهد الحجاج في ٧٥هـ/٦٩٤م فانسحب الأزارقة إلى فارس ولحقهم إلى ارجان ثم السردان حتى نواحي سابور واســـتمرت الحـــرب سجالاً بين المهلب والأزارقة لمدة سنة في سابور واضطر الأزارقـــة على أثرها الانسحاب من فارس إلى كرمان وأستمر المهلب في حرب الخوارج ثمانية عشر شهراً بعد طردهم من فارس.

وقد أساء الحجاج الظن بالمهلب واعتقد أن المهلب إنما يطيل الحرب ضد الأزارقة ليحتفظ لنفسه بالقيادة، ولذا فقد سحب منه إدارة إقليم خراسان وخراجها بعـــد أن انســـحب مـــنها الأزارقة باستثناء جزء صغير من خراسان أعطاه حق جبايتها لسد نفقات جيشه وكان الحجاج يحثه باستمرار على مواصلة الحرب ضد الخـــوارج ودون توقـــف لكن المهلب كان عند رأيه القاضي بضرورة التأني في حـــرب الأزارقة على أمل انتشار الجوع أو المرض فيما بينهم أو وقوع الخلاف فـــي صـــفوفهم ثم وقع الخلاف بينهم فولوا عبد ربه الكبير وخلعوا قطريا وبايع قطـــريا منهم عصابة نحو ربعهم أو خمسهم فقاتلهم المهلب نحواً من شهر وكتب المهلـــب إلـــى الحجاج أن الخوارج انشقوا على أنفسهم وهم يقاتل بعضهم بعضا غـــدوة وعشيا وطلب الحجاج من المهلب مناهضة الخوارج على حال اختلافهم وافـــتراقهم قبل أن يجتمعوا فأجابه المهلب: ولست أرى أن أُقاتلهم ما داموا يقتل بعضهم بعضا فكف عنه الحجاج وتركهم المهلب يقتلون شهرا لا يحركهم.

وســـار قطـــري مع أتباعه إلى طبرستان وبايع عامة الخوارج عبد ربه الكبـــير وحـــاربهم المهلب حربا ضروساً وانتصر عليهم ولم ينج منهم إلا القليل وقـــتل عبد ربه الكبير والكثير من أصحابه وهكذا أدى المهلب واجبه وعاد إلى البصرة فاستقبل باحتفال عظيم وكوفئ بولاية خراسان.

وفـــي سنة ٧٧هـــ/٦٩٦م وجه الحجاج جيشا بقيادة سفيان بن الأبرد مع جـــيش مـــن أهل الشام لمحاربة قطري وكتب الحجاج إلى إسحق بن محمد بن الأشـــعث وهو على جيش لأهل الكوفة بطبرستان أن يسمع ويطيع سفيان فلحقوا قطريا في شعب من شعاب طبرستان فقاتلوه فتفرق عنه أصحابه وقاتل حتى قتل.

وفـــي الوقـــت الـــذي كان المهلب يخوض فيه الحرب ضد الأزارقة في الشـــرق نهـــض خوارج آخرون في أول سنة ٧٦هـــ/٦٩٥م في غرب العراق ينـــتمون إلى بني شيبان من بكر بدأت حركة والي الموصل والجزيرة محمد بن مروان ثم تعاون محمد بن مروان مع الحجاج والي العراق واصطدموا بالخوارج فـــي مـــنطقة الموصل حيث اندحر الخوارج وقتل قائدهم صالح في السنة نفسها وقـــاد شبيب بن يزيد الشيباني البقية الباقية من الخوارج وتمكن من القيام بهجوم علـــى جـــيوش الحجاج فهزمهم ثم ذهب شبيب بالخوارج إلى المدائن، وكان هذا أول انتصـــار حققـــه شـــبيب علـــى جند الدولة وبداية لسلسلة من الانتصارات العسكرية على جيوش الحجاج والتي استمرت حتى وفاة شبيب.

وبعد سلسلة الهزائم التي منيت بها جيوش الخلافة، أرسل الحجاج جيشا بقيادة عثمان بن سعيد الملقب بـــ(الجزل) لمحاربة شبيب وقد كان جيشه في حالة إنذار دائم ولم تقع حرب بين الطرفين، حتى مل الحجاج ذلك فعزل الجزل وعين مكانه سعيد بن المجالد الهمذاني وأمره بمحاربة شبيب في أي مكان وزمان يراه، فالـــتقى ســـعيد بقـــوات شبيب في براز الروز وانتهت المعركة بانتصار شبيب

وتشـــتت جيوش سعيد و مقتله وحاول الجزل الذي كان أحد البارزين في الجيش المتشتت جمع شمل البقية الباقية من الجيش لكنه جرح جرحاً بليغا مات على أثره في المدائن.

وزادت قـــوة شبيب حتى تمكن من أن يطوق أبواب مدينة الكوفة وكانت أرض جوخى على النهروان والجبال التي تقع إلى شمالها هي الرقعة الجغرافية التي اختارها شبيب مسرحا لجولاته وقد قرر شبيب الذهاب إلى أذربيجان الجبلية لـــيريح جـــنده وليخطط لمفاجئة عدوه، وفي أذربيجان الجبلية تمكن من كسب الكثـــير من المسلمين إلى صفوفه وأصبح من القوة بحيث أنه تقدم في منتصف ســنة ٧٧هـ/٦٩٧م مع جيش كبير إلى الجنوب بغية القيام بهجوم خاطف على الكوفـــة ونفذ هذا الهجوم وتمكن من إلحاق الهزيمة بالجيش الذي أرسله الحجاج لصـــده واضـــطر الحجاج أن يطلب من عبد الملك أن يمده بالجند الشامي الذي تمكن من ابعاد شبيب عن الكوفة ودفعة إلى جوحى ثم كرمان وخرج شبيب من هناك واصطدم بجيش الشام عند دجيل في الأحواز ولم يستطع شبيب مواجهة قوة أهـــل الشام فبدأ بالتراجع عابراً نهر دجيل ووقع في الماء وغرق وكان ذلك في نهاية عام ٧٧هـ/٦٩٧م

كـــان موت شبيب نقطة تحول في حركة الخوارج الصفرية فقد خلفه في قـــيادة الصـــفرية (البطيـــن) الـــذي استمر في قيادة حركة الخوارج ولكن د ون الحمـــاس الســـابق وفـــي الوقـــت نفسه استمر الجند الشامي بمطاردة الخوارج والاشتباك معهم، مما اضطر الصفرية إلى أن يطلبوا الأمان من الدولة فكان لهم ما أرادوا وهرب البطين ثم القي عليه القبض وقتل بأمر من الحجاج.

ويـــبدو أن الحجـــاج كان محافظا في تفكيره عند حربة لشبيب الخارجي لأنـــه لـــم يتبنى استراتيجية جديدة تقابل تكتيك حرب العصابات فقد أرسل جيشا كبيرا لمحاربة شبيب الخبير بحرب العصابات.

القضاء على حركة عبد الرحمن بن الأشعث:

كـــان الحجـــاج بن يوسف الثقفي قد عهد إلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشـــعث بقـــيادة جيش من أهل الكوفة لقتال رنبيل ملك كابل وزابل الذي نقض الصـــلح مع المسلمين وامتنع عن دفع الجزية، فوصل ابن الأشعث إلى سجستان فـــي ســـنة ٨٠هـــــ، وانضم إليه هناك جيش من طبرستان بقيادة أخوية القاسم والصـــباح، ويـــبدو أن أخبار هذا الجيش قد أرعبت الملك رنبيل فأرسل إلى ابن الأشعث محاولاً استرضائه واستعداده لتوقيع معاهدة للصلح، إلا أن ابن الأشعث لـــم يلتفـــت إلـــى نداء رنبيل الذي تظاهر بالانسحاب في محاولة لإغراء جيش المســـلمين على التوغل بعيداً داخل بلاده، إلا أن ابن الأشعث كشف خطة رنبيل هـــذا فـــتوقف عن ملاحقته وشرع بإحكام سيطرته على المناطق التي تقع تحت ســـيطرته فـــبدأ بإقامة الحاميات وتنظيم الاتصال بين المدن والحاميات ثم قرر العودة إلى (بست) على أن يستأنف عملياته في الربيع القادم (ربيع ٨١هـــ).

وقـــد كتب ابن الأشعث إلى الحجاج بتفاصيل خطته، إلا أن الأخير أصر علـــى مواصـــلة القتال وهدد ابن الأشعث بعزله عن القيادة فرفض ابن الأشعث التقـــيد بأوامر الحجاج واستمر بتنفيذ خطته على الرغم من التقاعس عن الحرب ومداهـــنة العـــدو وبأنه يصانع عدوا قليلاً ذليلاً، ويبدو أن ابن الأشعث كان يعد العدة للخروج على طاعة الحجاج وبالتالي عصيان الخليفة عبد الملك بن مروان وهـــذا مـــا يفسر إصراره على المضي في خطته ثم تحريض جنده على الثورة والوقوف في وجه الخلافة الأموية، ولم يجد ابن الأشعث أية صعوبة في تحقيق

هذا الهدف فقد كان جيشه يضم عدداً كبيراً من الموالي وجماعة من أتباع المختار بن أبي عبيد الثقفي الذين سارعوا إلى إعلان تأييدهم له وإمعاناً في إثارة الجند وحملهم على عصيان أوامر الحجاج أظهر ابن الأشعث لأمراء الجند رسالة ادعى أن الحجاج وجهها إليه يأمره فيها بعزل عدد من الأمراء وقتل عدد آخر ولكي يؤمن خط الرجعة في حالة اضطراره إلى التراجع وعقد صلحا مع رنبيل نص على أن يوفر الأخير الحماية للأشعث وأصحابه في بلاده مقابل إعفاءه من الجزية وقبل أن يرحل عن البلاد عين ابن الأشعث ولاة من قبله على المدن المهمة في سجستان مثل بست وزرنج.

وشرع ابن الأشعث في الزحف نحو العراق فلما وصل بلاد فارس أعلن أصحابه خلع عبد الملك بن مروان ومبايعتهم لعبد الرحمن بن الأشعث الذي ضرب الدراهم باسمه وذكر بعد المؤرخين أنه حاول استمالة المهلب بن أبي صفرة ودعاه إلى الانضمام إليه، إلا أن المهلب رفض ذلك محذراً إياه من خطورة العمل الذي يقدم عليه. ولما وصلت أخبار ابن الأشعث إلى الحجاج رحل عن الكوفة إلى البصرة وأرسل إلى عبد الملك طالباً مدّه بالجيوش لمواجهة الموقف.

وفي العاشر من ذي الحجة سنة ٨١هـ حقق ابن الأشعث أول انتصار له على جيش الحجاج بالقرب من تستر، فانسحب الحجاج على أثر ذلك إلى البصرة ثم تركها إلى الزامية، فأتاح بذلك لابن الأشعث دخولها دون مقاومة تذكر، وبادر بإقامة التحصينات في المدينة، إلا أنه لم يلبث أن انهزم أمام الحجاج في نهاية المحرم من السنة المذكورة وأسرع في التوجه نحو الكوفة حيث يمكنه الاعتماد على قبيلته وأنصاره هناك، فاستقبله أهلها بحماس شديد، وفي هذه الأثناء وصلت إلى الحجاج إمدادات جديدة من الشام فرحل عن البصرة ونزل في (دير قرة) كما رحل ابن الأشعث عن الكوفة وعسكر في (دير الجماجم) في ربيع الأول من سنة

٨٣هـــ، وحدثــت مناوشات بين الطرفين استمرت حوالي شهرين، وأمام تأخر الحجاج في حسم الموقف بدأ الخليفة يساوره القلق نحو العراق، فاستقر رأيه على إرســال جــيش جديد بقيادة أخيه محمد بن مروان وولده عبد الله بن عبد الملك وفوضهما بعرض شروطه على العراقيين لإنهاء حالة الحرب وحقن الدماء.

وتضــمنت تلك الشروط عزل الحجاج عن الولاية وزيادة العطاء لأهل العراق ومنح ابن الأشعث الولاية التي يرغب بها في العراق طيلة حياته، وكان لموقــف الخليفة هذا وقع سيئ في نفس الحجاج فحاول إقناعه بالعدول عن هذه الشــروط وخوفه من مغبة تمادي أهل العراق في هذه الثورة، إلا أن عبد الملك أصــر على تنفيذ ما استقر عليه، على أن ابن الأشعث لم يستطع إقناع أصحابه بقبول شروط الخليفة بسبب العداء الذي كان يكنه الموالي وأتباع المختار وعموم أهل الكوفة للإدارة الأموية فأرغموه على مواصلة القتال الذي امتد إلى مائة يوم واضــطر معه ابن الأشعث إلى التراجع نحو البصرة حيث أدركته قوات الحجاج فــي (مســكن) فانهزم هزيمة نكراء في شعبان من سنة ٨٣هـ وفر هارباً إلى سجســتان ثم استقر به المطاف عند الملك رنبيل في كابل، عاود بعدها محاربة عمــال الحجاج في خراسان وغيرها إلا أن هذه المحاولة لم تزده إلا ضعفاً فقد انفصل عنه أصحابه ولم يبق معه إلا عدد يسير فعاد إلى الملك رنبيل وأقام عنده، إلا أن لجوئــه إلى رنبيل لم ينقذه من الحجاج الذي أرسل إلى رنبيل يطلب منه تســليم ابن الأشعث مقابل إعفائه من دفع الجزية سبع سنوات فوافق الأخير على ذلك في سنة ٨٥هـــ.

وتخــتلف الــروايات حول نهاية ابن الأشعث هذا فقد ذهب بعضها إلى القــول بأنه قتل على يد الملك رنبيل، وذكر البعض الآخر أنه مات على فراشه، وقــيل أيضاً أن الملك رنبيل قيده وسيره إلى الحجاج فرمى بنفسه من فوق سطح

وسقط معه الذي كان يحفظه وكان قد سلسل نفسه معه فمات، واجتز رأس ابن الأشعث وأرسل إلى الحجاج وهو بدوره أرسله إلى عبد الملك بن مروان.

التعريب:

تعريب الديوان:

تعتبر الدواوين مظهراً مهماً من مظاهر التنظيم الإداري للدولة العربية، وكانت دمشق مركزاً لعدد من هذه الدواوين التي تشرف على إدارة الدولة العربية في العصر الأموي.

والديوان هو السجل الذي يبين واردات الدولة ومصروفاتها المالية وأصبح فيما بعد يعني المؤسسة التي يعمل فيها أصحاب الوظائف المالية، ثم أصبح يعني المؤسسة التي تدير الدولة العربية الإسلامية سواء كانت الإدارة عسكرية أو مدنية. واحتذت الأقاليم الإسلامية بالعاصمة دمشق فأوجدت لها الدواوين التي تدير أمورها المختلفة.

وفي البداية احتفظ العرب بالكتاب والموظفين السريان والفرس إذ كان هؤلاء يديرون مثل هذه الدواوين قبل الإسلام، ولم يكن العرب متفرغين لمثل هذه الأعمال لانشغالهم بالفتوح ونشر الإسلام، وكانت الفتوحات قد شملت الكثير من أراضي البيزنطيين والساسانيين وقد خضعت شعوب هاتين الإمبراطوريتين لنظامها، فوجد العرب أن من الأنسب الاحتفاظ بتلك التنظيمات واستخدام سكان هذه المناطق أصحاب الخبرة في الإدارة العربية الإسلامية.

ويبدو أن تأثير الفئات الأجنبية كان واضحاً من بقاء دواوين الشام والعراق على ما كانت عليه قبل الإسلام، فقد كان ديوان الخراج في العراق مكتوباً بالفارسية وديوان الشام باليونانية. واستمر إلى أيام عبد الملك بن مروان

الـــذي أمـــر بنقل الدواوين إلى العربية. ففي سنة ٨١هـــ/٧٧٠م أمر عبد الملك ســـليمان بـــن سعد الثقفي بنقل دواوين الشام إلى اللغة العربية، وفي العراق في عصر الحجاج قام صالح بن عبد الرحمن بتحويل الحساب إلى العربية.

هناك مجموعة من الأسباب أدت إلى تعريب الدواوين إلى العربية، فبعد أن أعاد عبد الملك وحدة الدولة العربية وتوفر له عامل الاستقرار والكادر الفني القادر على تحمل أعباء مسؤولية التعريب رأى من الضروري أن تستكمل الدولة العربية استقلالها وتتحرر من التأثير الأجنبي فأقدم على تعريب الدواوين والنقود، ومن الراجح أن يكون الخليفة عبد الملك أراد أن يشرف على مصروفات الدولة وارداتها بصورة مباشرة وهذا لا يتم إلا بتعريب السجلات، يضاف إلى ذلك أن عبد الملك أراد أن تكون العربية لغة الدين والعلم والسياسة.

وظل الموالي يعملون في بعض الدواوين، فعلى سبيل المثال كان عبد الله ابـــن عمـــر بن الحارث مولى بن عامر بن لؤي على بيوت الأموال والخزائن والرقيق في عهد سليمان بن عبد الملك وكان أسامة بن زيد مولى أهل اليمن على الخـــراج والجند والرسائل أيام يزيد بن عبد الملك وعلى ديوان الخاتم والخزائن وبيوت الأموال مولاه مطير.

وكان من نتائج التعريب شيوع العربية وانتشارها بين الموالي وأصبحت العربية لغة الإدارة والثقافة إلى كونها لغة السياسة والدين.

الإصلاح النقدي:

اســـتعمل العـــرب قـــبل الإسلام في تعاملهم الدنانير اليونانية والدراهم الفارســـية، وكان الدينار اليوناني مسكوكا من الذهب والدراهم الفارسي مسكوكا من الفضة.

ولما ظهر الإسلام أقر الرسول (صلى الله عليه وسلم) الدراهم والدنانير على ما كانت عليه وحذا حذوه الخليفة الراشد الأول أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) ولما تولى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) الخلافة، رأى أن الدراهم المستعملة مختلفة الأوزان، منها البغلي وهو ثماني دوانيق واليمني يساوي دانقاً فقال: انظروا الأغلب مما يتعامل به الناس من أعلاها وأدناها فكان الدرهم البغلي والطبري فجمع بينهما فكان اثني عشر دانقاً فأخذ نصفها فكان ستة دوانيق، فجعل الدرهم الإسلامي في ستة دوانيق.

وتتفق المصادر على أن أول من ضرب الدنانير والدراهم العربية الإسلامية هو عبد الملك بن مروان، فبعد أن استقرت الدولة العربية الإسلامية بدأ يفكر في ضرب الدراهم والدنانير وهو بذلك أول من استحدث ضربها في الإسلام فانتفع الناس بذلك وكان ذلك كما يقول البلاذري في سنة ٧٤هـ وعلى هذه الأساس تؤكد المصادر بأن هناك من الأسباب الموجبة التي دفعت عبد الملك إلى تعريب النقود وسكها. إضافة إلى التأثيرات القومية والدوافع الدينية التي أدت إلى ضرورة سك عملة جديدة، ذهبية وفضية إسلامية ومنع التعامل بالنقود الفارسية واليونانية وفعلاً حذر الناس من التعامل بها ولم يكتف عبد الملك بذلك بل أحضر العملات الأجنبية وسحبها إلى دور الضرب لإعادة سكها من جديد طبقاً للشكل العربي الإسلامي الجديد وصارت العملة موحدة في جميع أنحاء البلاد العربية الإسلامية وبذلك العمل الجبار حقق للدولة استقلالية اقتصادية عظيمة، ويمكن إرجاع الأسباب والدوافع إلى ما يلي:

١- كان عبد الملك بن مروان قد صالح ملك الروم على دفع جزية له قدرها ألف دينار في كل جمعة ليتفرغ لحل مشاكله الداخلية مع ابن الزبير فلما انتهى من ذلك امتنع عن دفعه الجزية، فنشبت الحرب بين الخليفة وبين ملك

الـــروم، وبذلك احتاج عبد الملك إلى ضرب سكة مستقلة جديدة من الدنانير اليونانية المتعاملة في ذلك الحين.

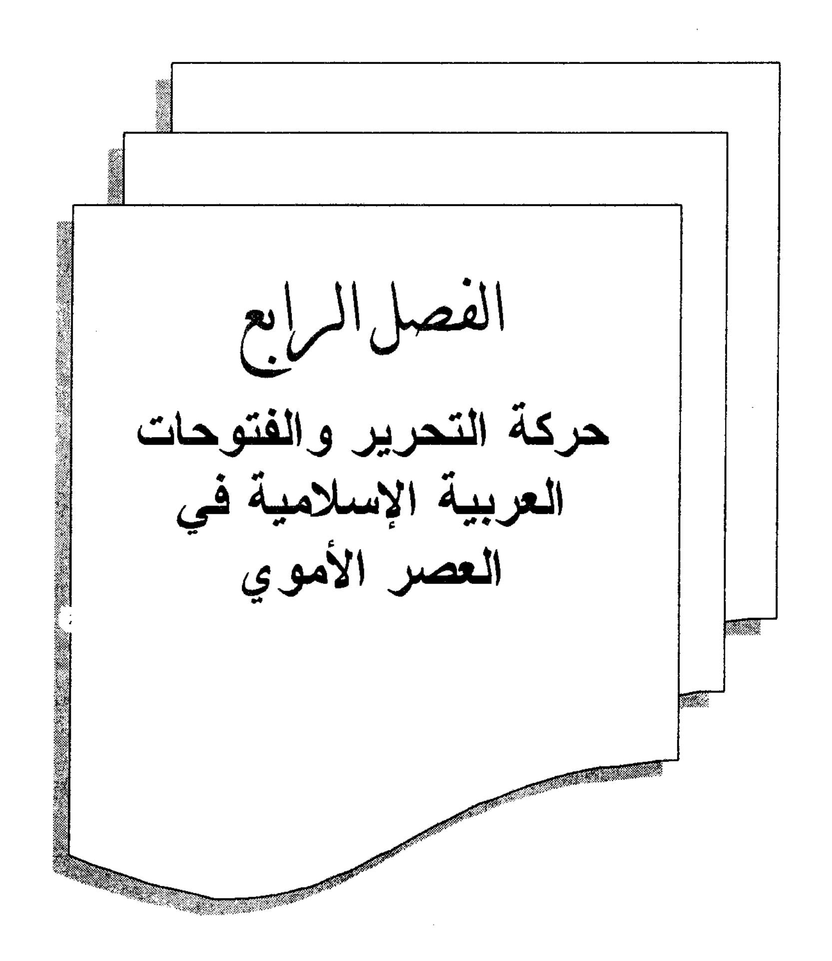
٢- وهناك سبب آخر وهو أن الكتب (الصفائح) التي كان يوجهها عبد الملك إلـــى ملـــك الروم معنونة بالآيات القرآنية في صدرها مثل (قل هو الله أحد) وفيها ذلك النبي (صلى الله عليه وسلم) فرد عليه ملك الروم متوعداً قائلاً له "أنكم أحدثتم كذا وكذا .. فاتركوه وإلا أتاكم من دنانير من ذكر ما تكرهون" فعظـــم ذلـــك علـــى الخليفة فأحضر خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان فاستشـــاره فقال له: "حرم دنانيرهم واضرب للناس سكة فيها ذكر الله تعالى" فضرب الدنانير والدراهم.

٣- وعلـــى ذكر مخافة الله تأكيد الدوافع الدينية التي كانت من الأسباب التي دعـــت الخليفة عبد الملك إلى ضرب الدراهم والدنانير الإسلامية أنه قيل له يومـــا: "يـــا أمـــير المؤمنين إن العلماء من أهل الكتاب الأول يذكرون أنهم يجـــدون فـــي كتـــبهم أن أطـــول الخلفـــاء عمـــراً من قدس الله تعالى في درهمه"،فعزم عبد الملك على طبع السكة العربية الإسلامية.

٤- تؤكـــد المصادر العربية بأن العملة المتعامل بها في العراق ولحين عهد الخليفة عبد الملك بن مروان كانت عليها رسوم كسرى وليس فقط في العراق بل في المشرق كله وكذلك اسم كسرى مكتوب باللغة الفارسية، وأما في الشام مقـــر الخلافـــة كان يتعامل بدراهم ودنانير عليها تاريخ قبل الإسلام بمئات السنين (أربعمائة عام) مكتوب عليها اسم الأب والابن وروح القدس ولما كان الخلـــيفة عبد الملك بن مروان معروف عليه أنه من طبقة سعيد بن المسيب وكذلـــك لسياســـته العربية فأمر بسكها من جديد ونقش عليها اسم الله تعالى وآيـــات قرآنية واسم الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولم يكتف بهذا فحسب،

فحســب، بل أمر منادياً ينادي بأمر من الخليفة أنه بعد ثلاثة أيام من تاريخ ســك الــنقود العربــية وضربها ألا يبتاع أحد بالدينار اليوناني وبذلك بطل التعامي بالنقود اليونانية وحلت محلها الدنانير العربية.

إن هــذا العمــل الجبار لعبد الملك بن مروان أدى إلى تحرير الاقتصاد العربــي مــن تبعــية الــنقود الفارسية واليونانية وإبدالها بنقود عربية إسلامية مصــنوعة محلياً وأنه ألغى بذلك التعامل بالنقود الكسروية والرومية، فكان أول مــن نقــش الدراهــم والدنانــير الإســلامية وكان عمله ذلك محرر الاستقلال الاقتصادي للدولة العربية في توحيدها واستقرارها وتقدمها.



الفصل الرابع

حركة التحرير والفتوحات العربية الإسلامية في العصر الأموي

لم تصل حروب التحرير العربية الإسلامية في العهد الراشدي إلى حدود ثابتة، فقد كانت هناك منازعات وعلاقات حربية على الحدود في مختلف الجهات، وتعرضت أراضي الدولة في العصر الأموي للاعتداءات الأجنبية (كالبيزنطيين مثلاً) وتمردت بعض الأجزاء في أثناء الخلافات والحروب الأهلية وكان بعض الخلفاء يتعرضون لحركات تمرد داخلية وتهديد خارجي في نفس الوقت فاضطروا إلى شراء من حدودهم الخارجية للتفرغ لتحقيق الأمن الداخلي.

وكان لابد للدولة العربية الأموية أن تخوض حرباً مع جيرانها في أكثر الميادين التي انتهت إليها حركة التحرير والفتح العربية، وكان الوقت المناسب للفتح والتحرير في العصر الأموي هو السنين الأخيرة من عهد عبد الملك وعهد ابنه الوليد وقت تمت في هذا العهد فتوحات رائعة فقد اقتحمت جيوش العرب أرجاء العالم وكانت ظافرة أينما حلت ثم توقفت هذه الفتوحات فيما بعد أو حققت انتصارات محدودة، ولم تستطع الدولة العباسية أن توسع الفتوحات بل لم تستطع أن تفرض سلطتها حتى على حدود الدولة العربية الأموية بعد سقوطها، ولم يؤثر هذا الأمر على توقف الإسلام فقد واصل الإسلام انتشاره بطريق المسلمين المتطوعين والتجار فوصل قلب أفريقية، والملايو وأندونيسيا وقد شملت حركة التحرير والفتح العربية في العصر الأموي الميادين الآتية:

الجبهة الشرقية:

فتح بلاد ما وراء النهر:

لقد مد المسلمون فتوحاتهم إلى ما وراء النهر الواقع شمال حدود خرسان المعروف -بجيحون وقديماً أموداريا - أي إلى البلاد التي سموها ما رواء النهر ولكنها وإن كان النهر يقع إلى جنوبها وبلاد خوارزم إلى غربها إلا أن حدودها في الشرق والشمال لم تكن واضحة، ففي الشرق قد تدخل فيها بعد بلاد الصين

وفـــي الشمال كانت تمتد إلى النهر المشهور في حدود بلاد الترك باسم-سيحون وقديما سيرداريا.

وقد كان يسكن هذه البلاد خليط من الشعوب الآسيوية أغلبهم من الفرس، الذيـــن انتشروا في جميع أجزائها وكان يحكمونها عن طريق المرازبة وواحدها مـــرزبان أي صـــاحب الثغر وهو المزر، إذ كانت للفرس منطقة ثغور وقد كان نظامهم لا يمد بعضهم بعضا أثناء الحرب إلا بأذن من الملك، ولكونها بلاد صله لوقوعها في وسط آسيا، فإنها كانت معبراً للشعوب الآسيوية منذ قديم الزمان مثل الشـــعب المغولـــي الذي عرف للعرب بالهياطلة وللأوربيين بالهون، وللصينيين بالهـــيونغ-تو فهؤلاء خالطوا أهل بلاد ما وراء النهر وحاكموهم أثناء تحركاتهم في الشرق إلى الغرب حوالي القرن الخامس الميلادي بحيث أن هيطل أيضا اسما لبلاد ما وراء النهر كذلك الترك وهم عنصر مغولي آخر كانوا يحيطون ببلاد ما وراء الـــنهر مـــن الشمال على الخصوص وتمكنوا من حكم بعض أجزائها قبل الفتح العربي، كما طمع الصينيون فيها وسعوا إلى السيطرة عليها.

وكانت تكونت في بلاد ما وراء النهر ممالك مستقلة غير واضحة التاريخ أو الحـــدود، بعضـــها يشمل أقاليم واسعة أو مدنا مفردة أهمها في أعلى النهر - مملكـــة طخارستان- وهي بلاد واسعة تقع على ضفتي نهر جيحون تنقسم إلى طخارســـتان العلـــيا والسفلى تشمل على قاعدتها بلخ، حيث يسمى جيحون بها، فـــيعرف أيضا بنهر بلخ وعلى طالقان أكبر مدنها وقد كان يسكنها شعب عرف بالطخارية وللصينيين بيوتشى كما أنه غزاهم أيام الفرس الهياطلة وإن لم يقضوا على مقوماتهم بدليل بقاء اسم طخارستان حتى وقت الفتح العربي كذلك كانت هذه الـــبلاد شـــديدة الصلة باليونان و هذه البلاد حكمتها أسره قبل الإسلام لعلها من أصـــل تركـــي عرف ملوكها بلقب جيفوية وإن كان يبدو أن سيطرتها على بلخ وطالقـــان كانـــت إسمية وأنها انكمشت في جزء صغير منها أما مملكة الختل أو

ختلان وهي أول بلاد ما وراء النهر خلف جيحون على تخوم السند يقال لقصبتها هلـيك، التي تقع على نهر اخش أحد أفرع جيحون ومملكة صفانيان إقليم عظيم مـن وراء الـنهر يجري إليه عدة أفرع من جيحون وأهم مدنها شومان التي قد تكون مستقلة عنها كما وجدت مدينة أخرى بجوارها من الشرق اسمها آخرون أو اجرون لا يذكرها الجغرافيون وكان لقب ملك صفانيان هو (صفان خذاه).

وممالك في وسط ما وراء النهر، بخاصة مملكة الصفد ويقال السغد وهي بـلاد عريضـة تمتد من جيحون إلى سيحون تحيط بنهر الصفد المسمى أيضا زرفشان داخل بلاد ما وراء النهر عبارة عن قرى ومدن متصلة بحيث اعتبرها العرب من جنان الأرض وأكثرها عمارة وفضلت على غوطة دمشق، ويظهر أن هـذه المملكـة اختصت بشخصية معينة منذ القدم فقد كانت لها حضارة متميزة بالغة استمرت عدة قرون في وسط آسيا كما أن أهلها مجوس لهم شهور وتقويم مثل الذي عرف عند الفرس أهمها سمرقند وهي قصبة الصفد، وبخارى (بخارا) مديـنة قديمة أيضا، من أشهر مدن صفد بحيث قيل الصفد صفدان صفد سمرقند وصفد بخارى وكان ملكها يتلقب خذاه أو بخارا خذاه ويسك العملة، ومدن أخرى أصـغر مـثل كش وكانت ملك سمرقند ونسف أو نخشب وهي مدينة كبرى بين بخارى وسمرقند وبها حصن عتيق (فهندر) مما يدل على استقلالها وبيكند وهي من مدن بخارى.

ومملكـة في أدنى النهر أو دلتاه تعرف باسم خوارزم وهي ناحية عامرة اسـتقلت مـنذ أن غـزاها الإسكندر عاصمتها القديمة فيل أو فير، ثم نقلت إلى كـركابج، التـي عرفت للعرب بالجرجانية وهي بلاد أغلب سكانها من الفرس المجـوس وبعـض النصـارى ولهم خط متميز يعرف بالخط الخوارزمي وفي اطـرافها يسـكنها قـوم من الترك، وقد حكمتها أسرة قديمة من نسل الأكاسرة استمرت وقتا طويلا إلى زمن الفتح العربي وكان ملوكها يلقبون بالشاه ويبدو أن

هذه المملكة كانت في حرب مستمرة مع الترك المجاورين لهم، كما أنها كنت قد خضعت قديما إما للفرس أو للصفد.

وممـــالك أخرى سيحونية على ضفاف نهر سيحون، منها مملكة فرغانة، وهي إقليم جبلي واسع، تقع في أعالي سيحون وعلى ضفته وأهم مدنها اخسبكث عاصمتها القديمة ثم كاشان التي كان يقيم بها ملوكها كما أن ضجنده اعتبرت من جملتها ومتاخمة لها، وكان الفرس يسيطرون عليها فنسب إلى الملك انو شروان بـــناء اخســبكث ولكن الترك الخدلخية سيطروا على دهاقينها وكان ملوكها منهم يتلقــبون بالاخشيد وأن فرغانه قبل الفتح العربي أصبحت من إمبراطورية دولة الصين وإن بقي الترك يحكمون في كاشان ومملكة أشروسنه تقع شرقي فرغانة وأنهـــا كانـــت في طريق فرغانة وأن الهياطلة غرتها، وملوكها يتلقبون بأفشين وأخيراً مملكة الشاش التي تقع وراء سيحون شمالي اشروسنة يخترقها نهر عرف باســمها وهـــي اقلـــيم سهلي متاخم لبلاد الترك قصبتها بنكث وقيل أن قاعدتها الطاربند، وكان يحكم الشاش الترك أو الصينيون قبل الفتح العربي.

وقـــد كان على العرب إذا أرادوا أن يتوسعوا في هذه البلاد وأن يعملوا ألـــف حســـاب لجـــيرانها الأقويـــاء الذيـــن كانوا يتنافسون في السيطرة عليها فمن وراء هذه البلاد وحواليها من مشارق خراسان من مملكة الإسلام إلى غرب الصين وشمال الهند كان يوجد الترك أو الأتراك وهي كلمة تعني الأقوياء ويبدو أن الـــترك من أصل مغولي أو من الهياطلة على الخصوص ظهروا فجأة حوالي القـــرن السادس الميلادي كونوا إمبراطورية بدوية واسعة بسبب ضعف عناصر الســـيطرة علـــيهم مـــن الشـــعوب المغولـــية الأخرى أو الصينيين وقد امتدت إمبراطوريتهم من حدود الصين إلى البحر الأسود وعرفت بالتركستان أي ناحية بـــلاد الـــترك، ولقلهـــا أسســـت حوالـــي ٥٧٦م، على يد شخص يسميه العرب

سنجابوخاقان ولما أصبح الترك سادة كانوا يهاجمون شمال الصين كما كان يفعل غيرهم من القبائل المغولية.

ولكن هذه الإمبراطورية سرعان ما انقسمت إلى قسمين حوالي عام ٥٨١ م، أحدهما غربي في وسط آسيا والآخر شرقي بجوار الصين في منغولية وكان الصـــينيون يعملون على تقوية العداء بينهما للاحتفاظ بنفوذهم والحد من خطرهم بل أنهم أخضعوا قسما كبيراً منهم بخاصة الترك الشرقيين ولكن الترك الغربيين بقـــوا متمتعيـــن بسيادتهم بعيداً عن نفوذ الصينيين كما أنهم على يد ملك يسميه العـــرب تـــوج كانوا يحاربون الإيرانيين في بلاد ما وراء النهر وأن بلاد الترك ســـميت باســـمه (نـــوران) ولقد اصبح النزاع بين الفرس والترك في هذه البلاد تقليديا، ولكن انشغال الفرس بحروبهم مع البيزنطيين منعهم من الالتفات إلى ترك بلاد ما وراء النهر، مما سهل إقامتهم.

وكان الترك يعيشون في قبائل عديدة، مثل -التقرغز والخرلخية والكيماك وخرخـــيز والطخطـــاخ والبجناك وان بعضهم كان يعيش في الشرق قرب سور الصين والبعض في الغرب في وسط آسيا وبسبب طبيعة بلاد الترك الصحراوية الجبلية كان أغلبهم من الرعاة الذين يتابعون الكلأ وينزلون الخيام.

وكان يسيطر على جميع الترك بما فيهم ترك ما وراء النهر ملك يسمى (الخافـــان) أي ملـــك الترك، وأن خاقان لقب خاص بالترك المجاورين للصينيين وان خاقـــان كـــان يعيش في قصر عظيم في مدينة حصينة حولها قرى وأُقسام إدارية وقد كان له شعار عبارة عن علم تزينه تسع خصلات من شعر ذنب الخيل كذلك كان لمملكته قانون ينظمها يعرف باسم (ياسه) وله البريد.

كذلـــك كانت الصين أو الصين الأقصى دولة كبرى في آسيا عبارة عن بـــلاد شاسعة فيها منذ قديم الزمان حضارة متميزة بسبب خصب تربتها وأن فيها

نهر يسمى النهر الأصفر وقد عرفت الصين أسراً متعددة كانت تحكمها منذ القدم، مثل شانغ حوالي القرن الخامس عشر قبل الميلاد، واينغ في القرن الحادي عشر قبل الميلاد ولكن في القرن السابع قبل الميلاد انقسمت الصين إلى قطائع نتيجة لضعف السلطة المركزية ولوجود قبائل الهون المغولية (الهياطلة) التي يسميها الصينيون الهيونغ -نو وكان تحوم حولها.

إن العرب منذ استقرارهم في خراسان كانوا قد قرعوا أبواب بلاد ما وراء النهر، ولكن لم تكن هناك خطة لفتحها في عهد الخلفاء الأوائل ذلك لأن خراسان نفسها كانت ملتانه إلى أن قتل يزدجرد في عهد الخليفة عثمان بن عفان عام ٣١هـ/٦٥١م ثم بعد ذلك اضطربت طاعتها بعد وقوع الفتنة الأولى وأن الترك انتهزوا هذه الفتنة لمهاجمة خراسان.

ولما استقرت الأمور في عهد معاوية نجد أن العرب بدأوا يستطلعونها عن طريق إرسال السرايا والبعوث كما فعلوا في معظم فتوحاتهم ولكي يمهدوا لفتحها اتخذوا مرو قاعدة للفتح في خراسان المقابلة لبلاد ما وراء النهر وهي التي كانت تعرف أيضا بمرو الشاهجان أو مرو العظمى، بحيث كانت تعرف أشبه بالثغر فأنزلوها جنودهم منذ سنة ٤٥هـ/٦٦٥م وكان أول من عبر النهر عبيد الله بن زياد في سنة ٥٤هـ/٦٧٤م، ومن بعده سعيد بن عثمان في سنة ٥٥ هـ/٦٧٥م.

وقد عين عبد الملك بن مروان، الحجاج بن يوسف حاكما عاما للشرق الذي يضم العراق وفارس، وتمكن القائد المهلب بن أبي صفرة بعد قضائه على الخوارج من التفرغ لإمارة خراسان التي عين حاكمها، والواقعة عند الحدود الشمالية الشرقية للدولة العربية الإسلامية ولم تكن غزوات المهلب في أراضي ما وراء النهر العرب من تثبيت سلطاتهم بصورة منظمة في هذه المناطق، ولذا بقي

الأمـــراء المحلـــيون السابقون في مدنهم على أن يدفعوا الجزية إلى العرب لكن هيـــبة العـــرب ما لبثت أن عادت على أي حال إلى المنطقة وراح الحجاج يولي اهـــتمامه بعد ذلك إلى رنبيل ملك كابل التي فتحها العرب ثم ما لبثوا أن أخرجوا منها.

وقـــرر الحجاج أن ينظم حملة جديدة وقوية ليضمن بها النصر، ولذا فقد جهـــز جيشـــا قوامه عشرون ألفا نصفهم من الكوفة والنصف الآخر من البصرة وعهد بقيادته إلى عبد الرحمن بن الأشعث أحد كبار زعماء الكوفة وتقدم الجيش إلـــى سجســـتان وقد أنفق الحجاج أموالاً كثيرة في إعداده لهذا الجيش فدخل عبد الرحمن بهذا الجيش إلى أراضي كابول دون أن تقع معركة فاصلة.

أخذ عبد الملك قبل عام من وفاته البيعة من الناس لابنه الوليد ليخلفه في الحكـــم، و أقر أن يكون ولده الثاني سليمان خليفة بعد الوليد وقد توفي عبد الملك بن مروان في السنة ٨٦هـــ/٧٠٥م وكان في الستين من عمره.

إن سياســـة فـــتح بلاد ما وراء النهر لم تنتظم إلا في عهد الوليد بن عبد الملـــك فقد أرسل الحجاج بدل المفضل بن مهلب، قتيبة بن مسلم الباهلي وتولى قتيـــبة بن مسلم قيادة جيش المشرق وولاية خراسان سنة ٨٦هـــ/٧٠٤م وكان قد تـــدرب علـــى الإدارة وقيادة القطاعات العسكرية خلال ولايته للري وكان فتى يتحرق شوقا للجهاد في سبيل الله وإعلاء شأن العرب والإسلام.

وفـــي ســـنة ٨٦هـــ/٧٠٤م تقدم قتيبة بن مسلم الباهلي من مرو باتجاه الشـــرق مـــع أعالـــي نهر جيحون في ولاية طخارستان وهي التي تشكل شمال أفغانستان الحالية ماراً بمدن اندخوى وبلخ دخولهم حتى استقر في الطالقان وبعد وصوله إلى الطالقان بقليل وصلها جيش بلخ ودهاقينها لمساعدة في عبور النهر،

وبعد أن تجمع جيشه بكامله عبر جيحون فتلقاه ملك الصاغينان بالهدايا والترحاب وكان هناك مراسلات بين قتيبة وهذا الحاكم جعلته يدخل الصاغينان بدون قتال.

إن ملوك آخرون وشومان (القسم الأوسط من طاجكستان) كانوا في عداء مـــع ملك الصاغنيان ويهاجمه باستمرار وعندما تقدم قتيبة بن مسلم نحو آخرون وشـــومان انضـــم إلى جيشه الملك نيش ملك الصاغنيان انتقاماً من ملك شومان عـــدوه، فاضـــطر حاكم آخرون وشومان إلى الاستسلام وقبول الصلح بشروط قتيبة.

وبعـــد ذلـــك عـــاد قتيبة مع قسم من قطعاته إلى مرو ولكنه سلك طريقا غريباً إذ لم يتبع طريق ترمز-مرو أو طريق زم-مرو بل سار مع جيحون شمالا إلـــى الغـــرب من بخارى وهي هدفه القادم وعبر جيحون من آمل (جهارجوي) وأفرز قسما من جيشه بقيادة أخيه صالح بن مسلم للتقدم باتجاه شمالي شرقي نحو فرغانه، ويبدو أنه كان يهدف من حركاته هذه إلى جمع المعلومات عن المناطق الحـــركات القادمـــة وحالة الطرق ومحاولة فتح القسم الشرقي من بلاد ما وراء الـــنهر وإدخـــالهم فـــي حضيرة الإسلام لحصر مناطق بخارى من الشرق عند هجومه عليها في السنة القادمة من الغرب والجنوب، وكذلك لغرض القيام بعملية اســـتعراض للقوة بشكل واضح لتدمير معنويات محاربي جيوش ما رواء النهر، وقد استطاع صالح بن مسلم فتح اخشيكت (وهي فرغانة القديمة) ومدينتي كاسان وأورشت من مملكة فرغانة وكان نصر بن سيار يرافق صالح بن مسلم في هذا الفتح.

فتح بيكند:

إن خطـــة قتيـــبة بن مسلم كانت الشروع بالحركات العسكرية في الربيع والعودة قبل حلول الشتاء إلى مرو، لكي يجنب قطاعاته الشتاء القاسي فيما وراء

النهر ولكي يعد العدة لحملة جديدة وإراحة قطاعاتة والقيام بعملية إعادة التنظيم.

وكان مدينة بيكند تقع على مسافة أربعين كيلو مترا إلى الجنوب الغربي من بخارى على نهر زرفشان وعلى الطريق التجاري المهم الذي يربط بخارى بمرو عبر مدينة آمل على جيحون.

وكانت من أهم المدن المدن التجارية بين الصين وبحر الخزر وخراسان علاوة على أنها منطقة زراعية إذ تقع في سهل بخارى الغني بمياه نهر زرفشان (ناشر الذهب) وكانت المدينة محاطة بأسوار ضخمة ومحمية بقو. كبيرة لذلك سميت (المدينة ذات السنطاق النحاسي) لكثرة الدروع وأسلحة الحرس على الأسوار.

تقدم قتيبة بقواته العربية معززة بقطعات المسلمين من خراسان وطخارستان والصاغنيان وكان فيهم نيزك طرخان حاكم باذغيس وحاكم بلخ وملك الصاغنيان وكان التقدم يجري على طريق مرو-زم فعبر نهر جيحون من زم واتجه باتجاه شمالي غربي من جيحون قاصداً بيكند، وقد استعدت حامية بيكند للحصار بينما استنجد حاكم بخارى فجمع كل محاربي الصفد من دولته من الدول المجاورة له من الشاش واشروسنة وغيرها.

حاول قتيبة اقتحام الأسوار ونظراً لتوقف العدو ومعرفة البخاريين أراضيهم وطبيعتها فقد تمكنوا مع حلفائهم الأتراك وقطعات الدول التي انجدتهم من تطويق الجيش العربي الذي كان يحاصر بيكند فقطعت كافة خطوط مواصلاته وبات في ضيق شديد وانقطعت أخباره عن الحجاج في الكوفة.

وحاول البخاريون (الصفد) حمل قتيبة على التراجع بعد هجمات شديدة مستغلين تفوقهم الكبير بالعدد فلم يفلحوا بذلك ثم انطلقوا يذيعون الشائعات عن موت الحجاج فلم يجدهم ذلك كله فتيلاً تلقاء ما كان عليه قتيبة من شجاعة خارقة

وإقـــدام واشترك الفريقان في قتال انتهى بهزيمة الترك، ففر فريق منهم وقد ملئ رعباً في حين لاذ آخر بمدينة بيكند الحصينة.

وحـــاول قتيـــبة دك أسوار المدينة لفتح ثغرات في أسفل الأسوار إلا أن حامية المدينة طلبت الصلح فوافق قتيبة بعد أن حاصرها خمسين يوما، وعين لها حاكما من قطعاته وهو ورقة بن نصر، وعاد منسحباً إلى مرو وما أن ابتعد عن بيكـــند (٥) فراسخ (أي ٣٠ كيلو مترا) حتى علم بتمرد بيكند واستشهاد ورقة بن نصر فاستدار نحو بيكند فحاصر المدينة التي حاولت الصلح فرفضه قتيبة وأصر على مهاجمتها فباشر بثقب أسوارها بفتح ثغرات فيه بواسطة المنجنيق حتى هدم أسوارها واقتحمها وأباد حاميتها.

وكانـــت حامـــية بيكند مدججة بالسلاح وفيها مخازن ومستودعات كبيرة للأسلحة لهذا قرر قتيبة مصادرة الأسلحة لتسليح قطاعات جديدة في بيكند وكان فتح بيكند سنة ٨٧هـــ/٧٠٦م.

وبعـــد التجربة التي خاضها قتيبة بن مسلم في فتح بيكند، ونظراً لتفوق الصفد وحلفائهم من الأتراك والأشروسنين لذلك فإنه اتخذ قرارين مهمين في سير الحركات العسكرية وهما: أن يتقدم ببطء وحذر وأن يعزل بخارى وذلك باحتلال كـــل المدن والمواقع العسكرية المهمة المحيطة بها، لكي تلاقي مصيرها لوحدها مستقبلا عندما يهاجمها.

وفي عام ٨٨هـــ/٧٠٦م تقدم الجيش العربي من مرو التي عاد إليها بعد فتح بيكند لقضاء الشتاء وعبر امودارِيا (جيحون) من زم ففتح نومشكت وكرمينية وهما إلى الشرق من بخارى ثم تقدم إلى رامتننه الكائنة شمال بخارى فاستسلمت دونما قتال وقبل الصلح فعاد الجيش العربي منسحباً من رامننة.

وكان أمير الصغد في بخارى قد استنجد بحكام الدول الشرقية من الأتراك والفرغانيين والاشروسنين والايغوربين الصينيين فتقدم جيش عظيم من هؤلاء الحلفاء فحصل جيش الحلفاء على التماس بمؤخرة الجيش العربي وكان على السافة (مؤخرة المؤخرة) عبد الرحمن بن مسلم شقيق قتيبة وكاد العدو أن يتغلب على المؤخرة التي كان يقودها عبد الرحمن بن مسلم، إلا أن ظهور قتيبة بنفسه في ميدان المعركة قد رفع من معنويات جيشه ودارت معركة طاحنة أبلى فيها قتيبة وكل جندي عربي ومسلم بلاء حسناً فتمكنوا من توجيه طعنات مميتة وطعنات ساحقة لجيش الحلفاء فتراجعت قلوبهم مذعورة نحو الشرق وبعد أن أعاد قتيبة تنظيم قطاعاته استمر في انسحابه نحو مرو.

ويذكر أن قتيبة بن مسلم استعمل الحيلة والمفاوضات لتفريق خصومه فقد أرسل حيان النبطي لمقابلة طرخون ملك الصغد، بما فيها بخارى. موضحا له بأنه إذ اندحر المسلمون وانسحبوا فإن حلفاء من الأتراك والشاش والتركستان الصينية بقيادة كورمغانون ابن أخت ملك الصين سوف يخلعونه من العرش وسيسطرون على بلاده، ومن الأسلم له أن يعقد صلحا مع قتيبة بحجة أن إمدادات كبيرة قد وصلت لقتيبة وأنه لا طاقة له بهم وأنه قرر الانسحاب فسوف ينسحب الآخرون وهذا ما تم فعلا إذ انسحب ملك الصغد وباشر الآخرون بالانسحاب تباعا.

فتح بخارى:

في سنة ٨٩هـ/٧٠٧م، كان قتيبة قد عزل بخارى بعد أن أخضع في السنة الماضية المناطق المحيطة بها، فاستلم وصايا الحركات من الحجاج بن يوسف الثقفي، قائد الجبهة الشرقية ووالي العراق بالتقدم نحو وردان الكائنة إلى الشمال من بخارى.

فتقدم قتيبة بجيشة نحو وردان، إلا أن التغيير العام الذي أعلنه حاكم بخارى وجموع الحلفاء الصفدين وغيرهم قد تجمعوا لصده في خرقانه السفلى على يمين وردان ومع ذلك فبعد قتال شديد دام يومين وليلتين تمكن الجيش العربي من دحرهم، إلا أنه لم يتمكن من التغلب على وردان خداه (ملك بخارى) الذي تحصن في مدينة وردان. فعاد منسحبا إلى مرو لإعادة التنظيم ويبدو أن كثرة الخسائر والإنهاك الذي أصاب الجيش في المعارك التي خاضها ضد الصفد وحلفائهم في خرقانه السفلى هي التي منعته من تحطيم وردان.

ويبدو أن الحجاج بن يوسف الثقفي القائد العام للجبهة الشرقية في الكوفة قد أزعجه نبأ انسحاب جيش المشرق دون السيطرة على وردان، فطلب مزيدا من المعلومات من قتيبة مع خريطة لميدان الحركات وقد استلم قتيبة جوابا لرسالته وفيها وصايا الحركات الجديدة من الحجاج وأن ينصح بأن تبدأ بتطهير منطقة كش (كش بكش) حيث تقع كش إلى الشرق من مدينة نسف ثم مهاجمة مدينة نسف ثم هاجم مدينة وردان وانتبه وخذ الحذر ضد التطويق وأسرع نحو أهدافك بخط مستقيم وتجنب منعطفات الطرف.

تقدم قتيبة بجيشه عام ٩٠هـ/٧٠٧م فتمكن من تطويق بخارى ووردان إلا أن جموع الصفد وحلفائهم التي قد تجمعت في ميدان المعركة لنجدة بخارى حسب استغاثة وردان خداه (الملك وردان) قد شجعت حامية بخارى على الخروج من الطوق، فدار أعنف قتال شهدته المعركة بين الجيش العربي وحلفاء بخارى، وحاول قتيبة دحر الحلفاء بهجمات متتالية دونما طائل، وقرر أن يقدم الفرقة الأزدية (قبيلة الأزد اليمانية) فقاتلت الفرقة الأزدية قتالاً ضاريا بهجمات متتالية إلا أنها فشلت في تحقيق أهدافها فأوعز قتيبة للفرقة الأزدية لمواصلة القتال ريثما دفع بكتائب الخيالة العربية بحركة أحاطه من الجانبين (حركة كماشة) فأثرت الإحاطة الراكبة هذه على الموقف فتراجع الحلفاء إلى مرتفع عبر نهر زرفشان.

ثـم أوعز قتيبة إلى الفرقة التميمية (قبيلة بني تميم) بالتقدم وعبور النهر وتأسـيس راس جسر وإزاحة المقاومة الصفدية على التل فتقدم قائد الفرقة وكيع ابن حسان بن قيس التميمي، وتمكنت الفرقة من دفع العدو إلى ما وراء النهر ثم أمـر وكـيع بنصب جسر من خشب على الزرفشان فعبر العرب النهر فدارت معـركة عنيفة صمد فيها الصفديون والأتراك ولإزالة المقاومة طلب قائد الفرقة مـن هـريم بن أبي طلحة قائد الخيالة القيام بحركة إحاطة للموقع ريثما يتهيأ له مهاجمـته سن الجبهة بغية إشغال العدو وجلب انتباهه لحركة الإحاطة والتطويق فـدار قـتال عنيف على المرتفع وقائد الجيش قتيبة بن مسلم يراقب الموقف عن كثـب، فانهـزم العدو فتراجع بغير انتظام ولكي يضرب القائد ضربته الحاسمة أوعـز قتيـبة بمطـاردة شديدة للعدو وجرح يومئذ خاقان وابنه أي الملك وولي العهد.

والظاهـر أن الملك طلب الصلح لمدينة بخارى فوافق قتيبة إلا أنه كما يذكـر البلاذري أصر على دخولها لكي يصلي فيها ركعتين، وكان قتيبة قد أعد كمينا لكي يهجم على الباب فور فتحها له، وإذا ما تغلب الكمين على حرس الباب فإنـه سيأخذ المدينة عنوة وبعد أن فتحوا الباب هاجمها الفرسان العرب وتغلبوا على الحرس ودخل قتيبة بخارى فاتحاً وحصل فيها على غنائم كثيرة ساعده على إعداد قوات جديدة في معاركة المقبلة ولغرض إعادة التنظيم وإراحة الجيش عاد قتيبة إلى قاعدته مرو.

بعـد فـتح بخـارى عـاد الجيش، عند الوصول إلى آمل استأذن نيزك طرخان ملك باذغيس في العودة إلى طخارستان، فأذن له قتيبة إلا أن نيزك تمرد عند وصوله إلى بلاده فأرسل قتيبة أخاه عبد الرحمن بن مسلم في ١٢ ألف مقاتل لإعـادة فتح باذغيس وبلخ والطالقان فتقدم عبد الرحمن وتبعه قتيبة بعد انقضاء الشـتاء فأعاد فتح البروقان والجوزجان والطالقان وظل عبد الرحمن على مقدمة

جيش قتيبة يطارد نيزك وجيشه من واد لآخر حتى تحصن نيزك في الكرز وكار مضيق الكرز من الوعورة بمكان إذ ليس له إلا طريق اقتراب واحد أغلقه نيزك بقــوة وهنا بدر لقتيبة أن يستدرج نيزك بالحيلة والخداع، فدعا قتيبة أحد وكلائه وكان صديقا لنيزك واسمه سليمان الناصح فطلب منه أن يتصل بنيزك ويستدرجه علــى أن لا يعطيه الأمان وأرسل مع سليمان الناصح جنودا من خيرة الفرسان، استعملهم سليمان، بعد أن استدرج. نيزك للصلح في عزل نيزك عن جنوده بغلق مدخــل لمضــيق وجلب نيزك إلى قتيبة ومع ذلك لم يقتله قتيبة بل كتب يستأذن الحجاج بقتله فجاءه جواب الحجاج بالموافقة ليكون مثلا لكل مرتد وناكث للعهد.

لقد قضى قتيبة بن مسلم عامي ٩١هــ و٩٢هــ في توطيد في أفغانستان بعــد الفتن التي أثارها نيزك وبعد امتناع ملك شومان من دفع الجزية ففتح قتيبة شومان ثانية وهي القسم الجنوبي من طاجكستان كما عقد الصلح مع الملك رنبيل الأعظــم في سجستان وأخمد تمرد مدينتي كش ونسف ووطد الأمن تماما في كل بلاد ما وراء النهر بين جيحون ووادي زرفشان.

فتح خوارزم:

كذلك امتدت فتوحات قتيبة إلى دولة الخوارزم غرب أمودرايا (جيحون) والى الجنوب من بحيرة أورال، وهي تجاور مملكة بخارى من الشمال الغربي، ولا يفصلها عنها سوى نهر جيحون نفسه.

ويذكــر أنه كان لملك الخوارزم شاه أخ اسمه خوارزد، وأنه كان يتحكم في الأمور وقد طغى وتجبر وعاث فسادا في خوازم، ولم يكن خوارزم شاه قادراً علــى ردعــه وقد جرت مراسلات بين قتيبة وخوارزم شاه أظهرت دهاء قتيبة وسعة حيلته.

وقـــد جرى الاتفاق السري بين الاثنين على أن يقضي قتيبة على الملك خام جرد، الذي كان يعادي ملك خوارزم ويغزوه باستمرار وأن يقضي في نفس الوقت على شقيقه خورزاد ومقابل ذلك يسمح ملك خوارزم لقتيبة بدخول مملكته، والاتفاق على صلح يكون خوارزم شاه بموجبه حليفا للمسلمين.

وفـــي سنة ٩٣هـــ/٧١١م تقدم قتيبة من مرو وعبر جيحون، وحين عبر أشـــاع أنه يهدف إلى التقدم نحو الصفد (سمر قند) وقد ساعد على ذلك ما تحدث به ملك خوارزم لشعبه أن قتيبة يريد الصفد وليس خوارزم وما هي إلا عدة أيام حتى استدار قتيبة بجيشه نحو الغرب فوصل إلى مدينة هزارسب على جيحون، فاستشـــار خوارزم شاه أعوانه عما يجب أن يفعله، فأشاروا عليه بالحرب ولكن خـــوازرم شاه الذي كان قد اتفق سرا مع قتيبة على هذه الخطة أجابهم (لكني لا أرى ذلك، لأنه قد عجز عنه من هو أقوى منا وأشد شوكة ولكني اصرفه بشيء أؤديه إليه فأجابوه إلى ذلك).

فسار ملك خوارزم بجيشه إلى مدينة الفيل وهي أحصن بلاده والمواجهة لمديـــة هزارسب التي فيها قتيبة، واتفقا على أن يدفع الخوارزميون عشرة آلاف رأس غنم على أن يعين قتيبة خوارزم شاه ملكا على مملكة خام جرد عدوة.

ولما كان خورزاد قد التجأ إلى خام جرد، فقد أرسل قتيبة قطعات بقيادة أخيه عبد الرحمن بن مسلم فقضى على جيش خام جرد، وعاد بأربعة آلاف أسير بيـــنهم شقيق خوارزم شاه فدفع قتيبة بالأسرى إلى الملك الخوارزمي الذي قتلهم جميعا بما فيهم خورزداه ودفع بأموالهم وأسلحتهم إلى قتيبة وولى قتيبة أخاه عبد الله بن مسلم حاكما على خوارزم.

فتح سمرقند:

كانـــت سمرقند تشكل أمنع حصون صغد وأقوى المدن الحصينة في بلاد مـــا وراء الـــنهر، وكـــان ملكها غورك قد استولى على الحكم بعد مقتل ملكها تـــارخون الـــذي سبق أن قبل بالصلح مع المسلمين، بينما أوى الأمير ديفاشتيج أولاد الملك القتيل ولقب نفسه بلقب قيصر الصغد.

ويـــبدو أن الوضـــع السياســـي فـــي سمرقند كان على درجة كبيرة من الاضـــطراب، فاستغل قتيبة ذلك، واغتنم هذه الفرصة للتدخل في شؤون سمرقند الداخلية بحجة مساعدته لأبناء حليفه تارخون.

وبعد فتح خوارزم فكر قتيبة في التحرك من خوارزم نحو الصغد وبينما كان يقوم بتقدير للموقف دخل عليه في خيمته أحد قواده وهو المشجر بن مزاحم الســـلمي، فقـــال له: (إن أردت الصغد يوما من الدهر فالآن، فإنهم آمنون من أن يأتيهم عامل، وإنما بينك وبينهم عشرة أيام). وتفسير هذا القول هو إذا أردت أن تهجم على سمرقند فإن أحسن حال مواتية هي الآن، فإنهم آمنون ولا يتصورون أنـــك تهـــاجمهم بعـــد حصولك على غنائم كثيرة من خوارزم، فدعنا نبدل اتجاه مسيرنا ونتقدم على سمرقند سيما وأن المسافة بيننا وبينها هي عشرة أيام لا غير. فذعـــر قتيبة وهو القائد الذي اشتهر بالكتمان والحذيقة فقال لمشجر (أأشار عليك بهذا أحد) قال: لا، قال قتيبة (أفسمعه منك أحد) قال مجشر: لا، قال قتيبة: (والله لئن تكلم به أحد لأضربن عنقك) إذ أنه كان يفكر في نفس التفكير وقد توصل إلى نفس الخطة.

وفـــي الـــيوم التالـــي باشر قتيبة بتطبيق خطته وهي فرز قوة كبيرة من الخـــيالة والرماة بقيادة عبد الرحمن ابن مسلم وبعث بكل الأحمال والأثقال معه ويســـير عبد الرحمن طيلة النهار والليل الذي يليه، وفي صباح اليوم التالي عليه

أن يدفـــع بالأحمال والأثقال والغنائم إلى مرو، بينما يستدير نحو الشرق بكتائبه والـــتقدم نحـــو سمرقند، ولم يبلغ حتى أخاه عبد الرحمن بالاستدارة نحو الشرق وإنما أبلغه ذلك برسالة ليلاُ فيما بعد، قائلا: (إذا أصبحت فوجه الأثقال إلى مرو، وســـر بالفرسان والرماة إلى الصغد، واكتم الأخبار، فإني في الأثر). وذلك يدل على شدة تكتمه وحذره.

جمـــع قتيبة قطعاته وألقى فيهم خطاباً أوضح فيه أن بلاد الصغد شاغرة، وأنهم قد نقضوا العهد ونكلوا بالحامية العربية، وأنه قد عزم على فتح سمرقند، ثم تقدم وراء عبد الرحمن فوصل إلى سمرقند بعد حصول عبد الرحمن على التماس بحامـــية ســـمرقند الصـــغدية بثلاثة أيام، ويبدو أن المدينة قررت قبول الحصار فحاصرها قتيبة شهرا.

وعلـــى أثر تقدم قتيبة بجيشه العربي يسانده ملك خوارزم وملك بخارى نحـــو ســـمرقند، كتـــب غورك ملك سمرقند إلى الدول التركية المجاورة، وهي الشاش (عاصمتها طاشقند) واشروسنة وفرغانة وتحصنت الحامية التركية وراء أســـوار سمرقند الحصينة، وكان ذلك في عام ٩٣هـــ/٧١١م حاول قتيبة اقتحام المديـــنة عدة مرات إلا أنه كان يصطدم بمقاومة عنيفة، وقد بذل الطرفان جهدا جـــباراً في الصراع من أجل النصر لأن كلا الطرفين كان يعتبر معركة سمرقند حاســـمة وقد دام حصار قتيبة للمدينة شهرا كاملاً تمكنت خلاله النجدات التركية مـــن الشـــاش واشروســـنه وفـــرغانه من الوصول إلى ميدان المعركة وانتخب الفرغانيون والشاشيون خيرة جنودهم وفرسانهم والمعدودين من أبطالهم وكان من بينهم ابناء الملك والأمراء وولوا قيادة جيش النجدات هذه للابن الأصغر لخاقان الـــترك واســـمه اينيل خاقان تقديرا منهم أن المعركة حاسمة ولابد من الانتصار فيها.

وعندما بلغ قتيبة نبأ النجدات باتجاه سمرقند لفك الحصار عنها، انصرف إلــى دراســة الموقــف العسكري مجددا، وعلى ضوء الظروف الجديدة والقوى الكبــيرة التــي ستدخل ميدان الصراع لذلك انتخب قتيبة ستمائة فارس من خيرة فرســان العــرب، وشكل منهم كتيبة بقيادة أخيه صالح بن مسلم، وقد أمر قتيبة صــالحاً أن يتقدم على الطريق ويكمن على مسافة فرسخين (١٢ كيلو متر) وأن يقطع رتل النجدات بهجوم ليل مباغت.

تحرك صالح وكتيبته، وقرر صالح بعد استطلاع المنطقة الكائنة شرقي ســمرقند علــى طريق سمرقند-طاشقند، تقسيم الكتيبة إلى كمينين أحدهما يمين الطريق والآخر يساره.

وبعد أن وصل الرتل المعادي واجتاز منطقة الكمينين لمدة مناسبة باشر الكميــنان بهجوم صاعق ليلا أرعب رتل العدو بمباغتة تامة ونشر الفوضى في صفوفهم وصار فرسان العرب يحصدون عدوهم حصدا في هجوم اتصف بكل معانــي العزم والنجدة والشهامة، إذ كان كل فارس في الكتيبة يعرف أهمية هذه المعركة ويدرك مدى خطورة وصول هذه النجدات إلى سمرقند، وحسب الخطة التــي وضــعها قتيبة، سحب أكثر قطعاته من وراء أسوار سمرقند بسرية تامة وكــتمان شــديدين كــي لا تشعر به حامية المدينة، فتخرج من الأسوار وراءه، ولتخفــيف ضغطه على رتل النجدات شنَّ هجوما صاعقا على جبهة رتل العدو الذي قطعه الكمين فدارت أشرس معارك ما وراء النهر في تلك المعركة الليلية.

وبعد إبادة رتل النجدات إبادة تامة عاد قتيبة مسرعا إلى أسوار سمرقند، وقــرر أن يدكها ويفتح المدينة مهما كلف الأمر، وبعد أن أدام عليها قتيبة قصفا مستمرا ليلا ونهارا بواسطة المنجنيقات لإحداث ثغرات في الأسوار وقع بقطعاته من رماة السهام والنبال للتقرب من الثغرات لتغطية هجوم المشاة، فاقتحم المدينة

بعاصفة من الجنود العرب الأشاوس ففتح المدينة واستلم غورك ولكن حكمة قتيبة وبعـد نظره، قادته إلى إبقاء غورك حاكما على الصغد، بعد أن قام قتيبة بتحطيم هـياكل المجوس ونظراً لأنه لم يمسه شيء فقد آمن عدد كبير منهم بالإسلام كما قام بإبقاء حامية عربية داخل سمرقند وتعيين حاكم عربي للمدينة وتجريد المدينة من الأسلحة العسكرية ثم بنى في سمرقند مسجدا سماه مسجد قتيبة.

فتح الشاش (طاشقند) وفرغانة:

بعـد أن عـاد قتيبة إلى مرو فور انتهائه من فتح سمرقند وجد أنه من المسـتحيل استتباب الأمن والنظام ما لم يقض نهائيا على القوات المسلحة للدول الـثلاث الباقية إلى الشرق من الصغد (سمرقند) وهي الشاش وعاصمتها طاشقند واشروسنه وعاصمتها خوجنده وفرغانه عاصمتها فرغانة.

وكانت خطة قتيبة تقضي بالتقدم على جميع تلك الدول في آن واحد وكان هدفه تجميد قطاعات كل دولة داخل حدودها، وعدم السماح لهم بنجدة الواحدة تلو الأخرى، لذلك وضع خطته للتقدم برتلين الأول الرتل الجنوبي بقيادته هو نفسه، يـتقدم علـى طريق سمرقند -خوجنده -فرغانة-كاشان. وكان الرتل مؤلفا من العـرب إذ أنه توقع مقاومة شديدة سيما وأنه سيقوم بحركات ضد الدولتين، أما الـرتل الشـمالي، ويتألف من محاربي المناطق المفتوحة من مسلمي خوارزم، بخـارى، سمرقند، كش، ونسف وغيرهم ويتقدم على طريق سمرقند-طاشقند-ثم يلتقي بالرتل الجنوبي في كاسان.

وفـي عام ٩٤هـ/٧١٢م تقدم قتيبة من مرو عابراً جيحون وتوجه إلى مـنطقة التحشد في سمرقند حيث تحشدت أيضا قطاعات الرتل الشمالي وجرى تنفيذ الخطة إذ تقدم الرتل الجنوبي بقيادته إلى محوز سمرقند، خوجنده فأخضعها بعـد عـدة معارك شديدة، كما قام بحركات في المناطق الجبلية من اشروسنة،

عــلاوة علـــى سهولها لفتح كل أراضي الدولة، ثم اندفع على محور خوجنده – فــرغانة، ففــتح فــرغانة بعد عدة معارك مع الفرغانيين ولم يسمح بوجود أي مقاومة تذكر في دولة فرغانة إذ اندفع شمالا إلى كاسان في انتظار ملاقاة الرتل الشمالي.

وتقدم الرتل الشمالي على محور سمرقند –طاشقند فخاض معركة عنيفة حول طاشقند التي أبدت مقاومة شديدة انتهت بإحراقها، وللقضاء على أية مقاومة تذكر في بلاد الشاش، دفع قتيبة الرتل الشمالي إلى استيفجان الكائنة على مسافة ١٢٠كـيلوا مــترا إلـــى الشمال من طاشقند، فاحتلها الرتل ثم انحدر جنوبا إلى طاشــقند ومنها توجه شرقا على محور طاشقند – كاسان فالتقى بالرتل الجنوبي الذي وصلها قبله.

وبعــد هــذا النصر اللامع عاد قتيبة حسب عادته لقضاء الشتاء وإعادة التنظـيم وإراحــة قطعاته في مرو وفي عام ٩٥هـ/٧١٣م وردت إليه نجدات جديدة من العراق وتقدم نحو الشاش (طاشقند) نظراً لوجود تمرد فقضى بسهولة عليه، وبينما هو في طاشقند بلغه نبأ وفاة والي العراق الحجاج بن يوسف الثقفي، فعــاد إلـــى مــرو، ولكنه استلم رسالة من الخليفة الوليد بن عبد الملك تثبته في منصبه.

فتح كاشغر الصينية:

كذلــك امتدت فتوحات قتيبة إلى مدينة كاشغر الصينية حيث كان الوضع السياسي مضطربا في الولايات الغربية من الصين والتي تسمى تركستان الشرقية أو تركستان الصينية، وكان الأمراء الأويغوريون متفرقين في تناحر مستمر فيما بيــنهم فوجــد بذلك قتيبة أن الفرصة مواتية للتقدم إلى كاشغر بالإضافة إلى أنه

أراد ردع أمراء الأويغور من التدخل في المناطق المفتوحة سيما وأنهم كثيرا ما ساندوا حكام فرغانة في معاركهم.

كانت خطة قتيبة للتقدم إلى كاشغر تتضمن حشد أكبر قوة عربية واتخاذ إجراءات انضباطية شديدة ووضع حامية على معبر نهر جيحون تمنع العودة إلى الـــوراء إلا بإجازة من قتيبة وكذلك التقدم على الطريق البخاري الذي يربط بين مدينة فرغانة بحيرة جاتيركول واقتحام ممر تيترك في تركستان الشرقية.

وفي عام ٩٦هـــ/٧١٤م تقدم قتيبة حسب الخطة التي وضعها وقد أرسل مقدمـــته بقـــيادة كبـــير بن فلان ففتح كاشغر وتوغل على ما ورائها حتى بات الاصـــطدام بيـــن جيش المسلمين والصينين وشيكا، فطلب ملك الصين التفاوض فوافق قتيبة على ذلك.

وقد أرسل قتيبة إلى ملك الصين وفداً برئاسة هبيرة بن المشمرج الكلابي يدعوه إلى الإسلام أو الجزية أو السيف، فثار ملك الصين وقال لهبيرة إذهب إلى صاحبك فقل له ينصرف فإني قد عرفت حصره وقلة أصحابه، وإلا أبعث عليكم مـــن يهلككم ويهلكه، فأجابه هبيرة بثقة وقوة كيف يكون قليل الأصحاب من أول خـــيله فـــي بلادك وآخرها في منابت الزيتون؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالاً إذا أحضرت فأكرمها القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه.

وأدرك ملـــك الصـــين القـــوة العاتية التي تكمن خلف هؤلاء وعرف أن التهديد والثورة لا طائل منها فعاد يسأل وما الذي يرضي صاحبكم؟ فأجاب هبيرة أنـــه حلـــف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويعطي الجزية، فقال الملـــك: إنـــا نخـــرجه من يمينه فلا يحنث، نبعث إليه بتراب من أرضنا فيطؤه وببعض ابنائنا فيختمهم ونبعث له بجزية يرضاها، وهكذا افتدى ملك الصين نفسه وبلاده بالجزية وأغلب الظن أن قتيبة ما كان ليقتنع بذلك لولا وفاة الوليد وتولي

سليمان بن عبد الملك الخلافة، وكان بين سليمان وقتيبة ما شغل الأخير عن مواصلة جهاده في بلاد الصين الواسعة.

وبهذا الفتح العظيم اعتبر قتيبة بن مسلم من كبار رجال الفتوح أمثال خالد بن الوليد، ويكفي دليلا على عظم قدره أنه لم تمتد الفتوح بعده في هذا البلاد أكثر من ذلك، كذلك دل على براعة، ومقدرة هائلة فمع أنه كثيرا ما وجد حلفا من ملوك ما وراء النهر الذين كانوا دائما ستعينون بالترك، إلا أنه انتفع بذكائه من وجود العداوة الطبيعية بين هؤلاء الملوك واستطاع أن يستولي على ممالكهم الواحدة بعد الأخرى.

فتح بلاد السند:

كذلك امتدت فتوحات المسلمين في آسيا إلى بلاد السند، وهي تقع شرقي إيران على ساحل بحر الهند، عبارة عن دلتا نهر السند العظيم التي تعتبر المدخل لقارة الهند.

وقد كان يسكنها عناصر آرية، تشبه سكان إيران، وإن كان أغلب سكانها من عناصر تسمى الهندية نسبت إليها البلاد تميزت بلون أسود خاص، مما جعل العرب يعدونهم من جملة السودان وسكنها أيضاً أصناف من قبائل مجهولة الأصل مثل الزط، والسيابجة، حيث كانت الأولى من الرعاة الذين يتبعون الكلأ على الساحل (الطفوف) وامتدوا حتى الخليج العربي والبحرين كذلك وجدت عناصر تركية كثيرة في بلاد اسمها (قيقان) تلي خراسان من الشرق وتعتبر من بلاد السند.

وكانت الهند دائما ممالك متفرقة تتراوح بين القوة والضعف وكان بعضها خاضعا للفرس المجاورين لهم، وأنه كان يوجد بالسند مملكة قوية قبل أن يغزوها الإسكندر الأكبر في عام ٣٢٥ق.م. وهي مملكة الموريا، التي بقيت بعد

هــذه الغــزوة ولكن قبائل الهون (الهياطلة) الذين تسببوا في إسقاط دولة الصين وغزوا بلاد ما وراء النهر، وغزوا هذه البلاد أيضا منذ القرن الأول قبل الميلاد وكونــوا منها مملكة راي القوية التي استمرت تحكمها مدة طويلة إلى أن سيطر عليها قبل الفتح الإسلامي صصه، ومن بعده ابنه داهر، الذي عرف بملك السند.

إن العــرب قبل الإسلام طالما ركبوا البحر إلى بلاد السند، مستبضعين ولما جاء الإسلام نجد أن عامل الخليفة عمر بن الخطاب على البحرين وعمان، قام بإرسال حملات المسلمين على بلاد السند فأرسل إليها حملة في البحر في سنة ١٥هـ/٦٣٦م مما أغضب الخليفة لتغريره بالمسلمين.

ولكن ازداد اهتمام المسلمين ببلاد السند منذ أن فتحوا مكران في شرقها، التــي فتحــت عــنوة في أيام معاوية بحيث أنه لما هاجموها حلف الجند بطلاق نسائهم ألا يهربوا وأن يقاتلوا أعداءهم، واتخذوا مصرا يغيرون منها على السند كذلك كانت حملات المسلمين على السند من ناحية مفازة سجستان الواقعة شمالي مكران، التي كان فتحها قد تم أيام معاوية.

إن حملات المسلمين على السند كانت منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان، في أواخر أيام الخليفة علي ابن أبي طالب، إلا أنها لم تكن شديدة ومتصلة إلا في أيــام معاوية، فقد قتل عدد من قوادها المسلمين، ويبدو أن أغلب الحملات كانت على بلاد قيقان من أرض السند التي كان أهلها من الترك وأيضا ضد الخلج وهم صنف من الهياطلة، وقعوا في قديم الزمان إلى أرض كابل اوزبلستان، التي بين الهــند ونواحــي سجســتان، حيــث أن رنبيل، هو لقب ملوكها، لقي منه عمال سجستان الأمرين على الرغم من محاربتهم الشديدة لــه، وأشهر من فتح نواحي السند في أيام معاوية المهلب بن أبي صفرة القائد المعروف، الذي تقدم في أعالي الهــند وهــزم أهلهــا عند نبه ولوهر، ولكن انشغال المسلمين بالفتنة بعد موت

معاوية، ثم فتنة ابن الأشعث بسجستان أيام عبد الملك، حد من نشاط المسلمين في هذه الناحية وإن كان رنبيل قد صالح الحجاج بعد تسليمه ابن الأشعث وقبل دفع الجزية.

وحـــدث أن ســـاءت العلاقـــات بين المسلمين وبين داهر ملك الهند مما استدعى صداما مسلحا، أما سبب سوء العلاقات فهو أن الحجاج أرسل سعيد بن أسلم إلى مكران، فخرج إليه معاوية ومحمد ابناء الحارث العلافي فقتلاه، إذ كان من الخارجين على سلطان الأمويين في هذه الجهات وكانا قد لقيا عند داهر ملك السند كل ترحيب حين لجأ إليه.

وبلـــغ الحجـــاج الخبر فسأل الخليفة، أن يأذن لـــه لمهاجمة السند ملجأ الخارجين على الدولة، ولكن الخليفة لم يأذن له ثم بعد ذلك تعرض قراصنة من (ديـــبل) لســـفن كانت قادمة من جزيرة الياقوت (سيلان) وفيها أرامل لتجار من المســـلمين وافاهم الأجل هناك، فاسر القراصنة هؤلاء النساء ولما طلب الحجاج مـــن داهـــر تخليص النساء من الأسر لم يستجب لـــه، وادعى أنه لا يسير على لصـــوص البحر هؤلاء فكان هذا وسواه باغيا للحجاج أن يلح على الخليفة ليثأر لهذا العدوان وليؤمن طريق التجار وحدود البلاد الإسلامية من غارات المعتدين.

لقد وكل الحجاج قيادة هذه الحملة إلى أحد أقربائه، وهو محمد بن القاسم الثقفي صهره وابن عمه، الذي لم يكن يتجاوز السابعة عشر عاما وقد تمثلت في هـــذا القـــائد ســـجايا الأمة العربية من سؤدد وشجاعة، بحيث كان يحق معجزة حربية.

ســـار محمـــد بن القاسم من مكران في سنة ٨٩هـــ، ففتح ارمئيل وهي مدينة كبيرة من أرض السند شرقي مكران ثم سار إلى الديبل ميناء السند العظيم علـــى ســـاحل بحر الهند فوافقته السفن التي كان قد حمل فيها الرجال والسلاح

فخندق أمامها ولكن لم يستطع فتحها، إلا بعد أن جاءته توصية من الحجاج، فقد كان يقدم له تقرير عن سير الحملة كل ثلاثة أيام، فأمره الحجاج بنصب منجنيق، فرمى الدقل وهو سارية لمنارة البلد العظيمة بالمدينة فكسرها، فتطير العدو وجزع، فأمر محمد بالسلالم وصعد عليها الرجال ودخلوا المدينة، واستمر القتال فيها ثلاثة أيام فهرب عاملها من قبل داهر وأنزل بها محمد وبنى جامعا، وبذلك قضى على وكر كبير لقرصان الهنود.

ثم سار عنها محمد صاعداً إلى شمال السند، وأخذ لا يمر بمدينة إلا فتحها صلحا أو عنوة، كما انضم إليه عدد من قبائل الزط، خصوصا وأن المسلمين كانوا قد صالحوهم في أثناء فتوحاتهم في فارس، مثلما فعلوا من قبل مع الجراجمة بالشام، بل أن معاوية نقل عدداً منهم إلى الشام، فلما بلغ داهر بتقدم محمد ابن القاسم استعدادا لمحاربته، وجمع جيوشا عديدة مزودة بالفيلة وهو مستخف به فلقيه محمد والمسلمون بعد أن عبروا نهر السند، على جسر وتغلبوا عليهم وقتلوهم، وذلك لأن الهند كان معظمها رجالة لا دواب لها غير الفيلة، وكان المسلمون في أيام فتح فارس يتغلبون على الفيلة بقطع خرطومها، وفي هذه المرة استخدموا النفط في القضاء عليها، ولما ترجل داهر قتل أيضا.

وبقتل داهر غلب محمد على بلاد السند، ودخل عاصمتها راور، كان بها امرأة لداهر خافت أن تؤخذ فأحرقت نفسها وجواريها، ثم قطع محمد نهر بياس العظيم المؤدي إلى ملتان الغنية بذهبها فقاتله أهلها وانهزموا فحاصرهم وقطع عنهم الماء فعطشوا ونزلوا على حكمة وسماها محمد بن القاسم (المعمورة) بدلا من (ملتان) وذلك في سنة ٩٥هـ/٧١٣م، وبعدها تقدم محمد في شمال السند إلى مدينتي بيلمان وقندهار حتى وصل إلى حدود كشمير التي كان تجاور الترك.

وقـــد كـــان فتح محمد بن القاسم لبلاد السند من أعظم الفتوح الإسلامية فـــبعده، لم يتجاوز أحد فتوحاته فيها إلى أيام الغزنويين، كذلك كان فتحها مريحا للغايـــة مـــن الناحـــية المادية، فحينما نظروا في النفقة وجدوا أنهم استرجعوها وزيادة، بالإضافة إلى ما وصل إلى الحجاج من زط السند.

فتح بلاد بحر قزوين:

في سنة ٩٦هـــ توفي الوليد أقوى خلفاء الأمويين، وهو الذي عمل على توســـيع رقعة الإسلام إلى مدى لم تصله قبله أو بعده بحيث جعل الدولة العربية الإسلامية أشبه بهلال ضخم رِأسه عند جبال البرتان والآخر قرب الصين، كذلك أقـــام للمســـلمين أفضل عمائرهم وأجملها وفي جمادى الآخر سنة ٩٦هـــ بويع سليمان بن عبد الملك بالخلافة.

ونجـــح ســـليمان في فتح بلاد في الشرق لم تكن قد فتحت من قبل وذلك علـــى يد عامله يزيد بن الملهب، الذي ولاه العراق والمشرق، بعد أن عزل يزيد ابن أبي مسلم كاتب الحجاج في سنة ٩٧هـــ/٧١٥م وكان الحجاج يكره يزيد لما فيه من النجابة خوفا من أن يفعل مثل ابن الأشعث كما أن يزيد لم ينفذ رغبته في فـــتح بـــلاد ما وراء النهر، فعزل الحجاج يزيد عن خراسان وحبسه، ولكن يزيد تمكن من أن يهرب مع أخوته إلى سليمان بالرملة في سنة ٩٠هـــ/٧٠٩م، حيث آمـــنة وعلى الرغم من أن الحجاج كتب إلى الوليد يحذره من آل المهلب، وطلب الوليد من سليمان تسليمهم، فإن سليمان أرسل يزيد إلى الوليد مع أيوب أحد ابناء ســـليمان مفـــيداً فـــي سلسلة واحدة، مما جعل الوليد يضطر إلى أن يؤمن يزيد وأخوته وقد أثبت يزيد بن المهلب جدارته، فذهب إلى فتح بلاد لم تكن فتحت من قبل.

فقــد كــان في شمال هضبة إيران حول بحر قزوين وهو عرف أيضا بأسماء الشعوب التي تحيط به، مناطق أغلبها جبلية، ظلت في أيدي حكامها العجم أو الــترك، الذين استطاعوا أن يصدوا المسلمين عنها، وقد اكتفى المسلمون منذ عهــد الخليفة عثمان بن عفان باتخاذ قزوين التي كان الفرس أنفسهم قد اتخذوها مــن قبل لمهاجمة هذه النواحي. وسموها كشور أي الحد المرقوق، ثغراً ومصراً أي آخر الحدود، وكان المسلمون يستولون على أجزاء منها حتى عصر الحجاج الذي أقام فيها المناظر للمراقبة، وإن كانوا أيضاً هاجموها من ناحية خراسان.

وقد بدأ يزيد بن المهلب بقوهستان، وهي كلمة تعني بلاد الجبال لأن كوة بالفارسية هي الجبل، وقد أطلقت على أجزاء كثيرة في الهضبة الإيرانية بطبيعتها الجبلــية، وأن أكــثر بلاد العجم لا تخولا من موضع يقال لــه قوهستان ولكن المشــهور بهــذا الاسم هي الولاية التي فتحها يزيد وهي تقع جنوب شرقي بحر قزويــن، أغلبها صحاري أو جبال ولا توجد بها الأنهار، وعاصمتها قاين، وقد كــان يســكنها العجم، وعنصر مغولي من الهون (الهياطلة) -يسميهم ابن الأثير الــترك- قدمــوا من بلاد ما وراء النهر ثم انتقلوا إلى هذه النواحي وحتى بقايا الحيثين الذي سمعنا عنهم في العصور القديمة.

قــام المســلمون بإرسال الحملات لهذه البلاد لأول مرة في عهد الخليفة عمــر بــن الخطاب من كرمان، فاستولى المسلمون على ناحية طبسين وقريتها كريــن وهما حصنين أو ما يعرف بالطبسين فسمى الصلح صلح الطبسين وفي أثــناء فتح خراسان فتحت قوهستان عنوه وهزم الهياطلة، وذلك في أيام الخليفة عثمان سنة ٣٠هــ/٦٥٢م، وفي أيام معاوية سنة ٥١هــ/٦٧١م فتحت قوهستان من جديد، وضمت إلى خراسان ولكن لكثرة غارات أهلها وقتالهم للمسلمين حتى أنهــم كانوا قد حاربوا قتيبة، فتحها يزيد بن الملهب من جديد فكان يحاصرها في

حصـــونهم إلى أن استسلموا وأرسل ملكها واسمه صول، يطلب الصلح فصالحه يزيد ودخل عاصمتها قاين، وكتب يزيد بشارة النصر إلى سليمان بن عبد الملك.

وبعد ذلك سار يزيد إلى البلاد المجاورة التي تقع بجوار خراسان جنوبي شـــرقي بحـــر قزوين، فعرفت للعرب باسم جرجان، وسمي البحر باسمها بحر جرجان، وهي عبارة عن سهول كثيرة تجري فيها عدة أنهار توجد حولها سلسلة جـــبال البرز الشاهقة التي عرفت أيضاً بجبال جرجان وقد كانت جرجان تنقسم إلى نواحي كبيرة، مثل دهستان في أدنى البلاد، وبكر أباد، أما جرجان نفسها فلم تكـــن يومـــئذ مديـــنة وإنما كانت جبالاً ومسالك، وقد كان يسكنها الفرس الذين يحكمهـــم مرزبان، والترك بخاصة في دهستان الذي يحكمهم ملك اسمه أو لقبه أيضاً صول.

وقـــد قبلت جرجان دفع الجزية منذ أن اقترب المسلمون من حدودها في ســـنة ١٨هـــ/٦٣٩م ولكن في عهد الخليفة عثمان بن عفان سنة ٣٠هـــ/٦٥٠م دخلهـــا سعيد ابن العاص وصالح أهلها قبل أن يفتح قوهستان وبعد سعيد لم يأت إلـــى جرجان أحد إلى أن جاء يزيد، والذي هيأ ليزيد فتحها هو وجود نزاع بين المزربان الفارسي وصول التركي بحيث اضطر إلى الهروب إلى يزيد وهو في خراسان وتغلبت صول على جرجان، فدخل يزيد مع المزربان جرجان، وحاصر صـــول وهو في بحيرة تقع في بحر قزوين، وقتل عدداً كبيراً من الترك، ولعله صـــالح صول أو قتله، ولكن لم يلبث أهل جرجان أن ثاروا على المسلمين الذين تـــركهم يـــزيد فيها وقتلوهم عن أخرهم، فعاد يزيد إلى جرجان ثانية وقتل عدداً كبـــيراً من أهلها، وهو ما عرف (بالفتح الثاني) وقد بنى يزيد مدينة جرجان في واد عظـــيم تطل على البحر، ولم تكن بنيت قبل ذلك وأصبحت أكبر مدينة بهذه البلاد.

ولما فرغ من جرجان هاجم طبرستان، وهي تسمى أيضاً مازندران، التي تقع في جنوب بحر قزوين، شمال جبال البرز الشاهقة، وتحيط بها بلاد جرجان مـــن الشرق، وجبلان من الجبلية، التي تسكنها شعوب الجبل والديلم من الغرب وهـــي عبارة عن بلدان واسعة وسهول وجبال كثيرة، قصبتها أمل، وقد سكنتها عناصـــر فارسية كانت تميل إلى الحرب، وتستخدم في قتالها الفؤوس ولذلك كان اســـم طبرستان يعني بلاد الفؤوس، لم تكن قد خضعت للمسلمين، فكان يحكمها الأصبهبذر وتعني رئيس الجند، إذ أنه من سلالة أسرة فارسية قديمة كان يوليها ملوك الفرس على أهالي هذه المنطقة.

ولـــم يكـــن مـــن الســـهل فـــتح هـــذه الـــبلاد لحصانتها ومنعتها لذلك صالحهاالمســـلمون لما فتحوا فارس ورضوا منها بالشيء اليسير، ولكن في عهد الخلـــيفة عـــثمان بن عفان سار نحوها سعيد بن العاص، في سنة ٢٩هـــ/٦٥٠م ففـــتح ســـهولها وجبالها من ناحية خراسان وفي عهد معاوية أرسل مصقلة ابن هبـــير، فاستدرجوه إلى ممرات في الجبال وأرسلوا الصخور منها إلى رؤوسهم، فاستشهد عدد كبير من المسلمين.

وفـــي ولاية ابن زياد على العراق، أرسل محمد بن الأشعث فاستدرجوه أيضـــاً واستشـــهد ابـــنه، ولما سار يزيد إلى طبرسان، وتوجهت طلائعه إليها، فاســـتعان أهلهـــا بـــأهل جيلان، والديلم المجاورين، واستطاعوا أن يهزموا هذه الطلـــيعة، وقد كانت هذه الهزيمة من الأسباب التي دعت أهل جرجان إلى الغدر بالمســـلمين ولذلـــك استخدم يزيد الخديعة واضطر إلى مصالحة الاصبهنذ الذي أرسل إليه المال.

استمر حكم سليمان زهاء ثلاث سنين، ووافاه أجله بدابق، وهو ابن تسع وثلاثين سنة في سنة ٩٩هـــ/٧١٧م ويبدو أن الناس أحبوه لحبه للحياة، أما فتوحه

لـــم تكن حاسمة كما هي في عهد سلفة، إلا أن حماسه في مد رفعة الإسلام كان شديداً لا يقل عن حماس سابقيه من الخلفاء.

فتح المغرب والأندلس

فتح المغرب:

لقـــد اســـتطاع المسلمون في عهد عبد الملك بن مروان من طرد الروم نهائـــياً من أفريقية، وفتحوا المغرب ويقصد به التسمية العامة التي أطلقوها على البلاد الواسعة الممتدة من آخر حدود أفريقية حتى المحيط.

وكان زهير بن قيس البلوي مرابطاً في برقة منذ استشهاد عقبة بن نافع، فذكـــر عـــند عـــبد الملك من القيروان من المسلمين وأشار عليه أصحابه بإنفاذ الجيوش إلى أفريقية لإنقاذهم من يد كسيلة بن لمزم المعروف أيضاً بابن كاهنة، وأن يعـــز الإســـلام بها كما كان في أيام عقبة بن نافع، فقال لهم عبد الملك (من للأمـــر أمـــثل مـــن عقبة؟) فاتفق رأيهم ورأي المسلمين على زهير، وكان من أشراف المجاهدين، فوجه إليه عبد الملك، زهيراً وسارع إلى الجهاد.

ولكـــن زهيراً كتب إلى عبد الملك يعلمه بكثرة الروم والبربر، وبقله من معـــه من الرجال والأموال، فأرسل عبد الملك إلى أشراف المسلمين إلى الجهاد فأمرهم أن يلحقوا بزهير، سار زهير في آلاف من المسلمين إلى القيروان وتقابل مع كسيله ومن معه من الروم والبربر في سميس -أحد نواهي القيروان- فالتحم الفـــريقان حـــتى انهزم كسيله وقتل ومضى المسلمون بمطاردة الروم والبربر، فلحقـــوا كثـــيرا مـــنهم وقتلوهم، وجدوا في طلبهم إلى وادي ملوية وواد طنجة بالمغـــرب وفتح مدينة تونس وفي هذه الوقعة ذل البربر وفنت فرسانهم ورجالهم وقـــتل رجـــال الـــبربر والروم فزع أهل أفريقية فلجأوا إلى الحصون والقلاع، واضمحل شأن الروم فلم يعد لهم شأن كبير.

رحـل زهـير مـع عدد من المسلمين إلى مصر، وبعد أن وجه ضربة قاضية للروم في الاستعانة بأهل البلاد على المسلمين وترك زهير القيروان آمنة، لخلـوّ البلاد من عدو ذي شوكة، فبلغ ذلك الروم فخرجوا في مواكب كثيرة من القسطنطينية وجزيرة صقلية وأغاروا على برقة، ووافق ذلك قدوم جيش زهير فأمـر الجيش بالمسير إلى الساحل من أجل إنقاذ المسلمين فالتحم القتال واستشهد زهير بن قيس وأشراف من كانوا معه من المسلمين، وعاد الروم بما غنموا إلى القسطنطينية.

ومـع سوء أحوال الخلافة الأموية الداخلية، أرسل عبد الملك قائداً كفءاً اسـمه حسان بن النعمان الغساني في جيش عدده أربعون ألفاً للانتقام من الروم، فسـار هذا الجيش إلى قرطاجنة التي كانت أهم معاقل الروم على البحر الأبيض وعلـى حد قول ابن الأثير لم يكن المسلمون قد حاربوها وأن ذكر الذهبي أن أبا المهاجـر قد هاجمها على غير جدوى فقاتل حسان أهلها من الروم والبربر قتالاً شديداً حتى طلبوا الأمان فأعطاهم إياه، ثم غدروا فرجع إليهم وقاتلهم حتى ملكها وهدمهـا فهـرب الروم منهم إلى صقلية والأندلس، كذلك سار حسان على بقية الـروم وهزمهم في معاقلهم المتفرقة على الساحل، حتى طردهم من كل أفريقية وعاد بعد ذلك إلى القيروان لأن الجراح كان قد كثرت في أصحابه.

وكـان هـذا مشجعا لحسان على أن يعود إلى حرب بربر جبل أوراس الأشداء، وكان على رأسهم بعد كسيلة امرأة قوية من قبيلة جراوة البئرية عرفت بالكاهـنة لأنها كانت تخبرهم بشيء من الغيب وكانت تلقب بملكة البربر ويذكر ابن الأثير - أن الكاهنة هي التي خرجت لقتال حسان في وادي تبنى في أقصى أفريقية وبقيت الكاهنة تحكم الغرب كله بما فيه أفريقية وذلك بمساعدة أولادها.

وقـــد ظل حسان في برقة إلى أن انتهت فتنة ابن الزبير، وأرسل الخليفة إليه المادة والقوة ليرحل لمحاربة الروم والبربر وفي تلك الأثناء كان الروم الذين طردوا من حصن قرطاجنة قد عادوا إليها لأن سقوطها أحدث أثراً في بلاد الروم فما أن وافى عهد الإمبراطورين (٦٩٥-٦٩٨م) الذي كان يحارب المسلمين في أرمينـــية حتى أرسل إليها أسطولاً استولى عليها في سنة ٧٨هـ/٦٩٧م واشترك فـــي هذه الحملة الفرنجة من القوط ويبدو أن حساناً حاصرها هذه المرة من البر والـــبحر إذ أن عـــبد الملك أوعز إليه باتخاذ دار صناعة لإنشاء الآلات البحرية فتمكـــن حســـان مـــن الاستيلاء عليها، وكانت هذه نهاية الاحتلال البيزنطي في أفريقية.

ولكن مقاومة البربر استمرت بزعامة الكاهنة التي أحست بخطورة حسان هـــذه المـــرة، فكانت تحرق وتدمر القلاع لتعوق تقدمه، وتقطع أشجار الزيتون مصـــدر ثروة البلاد، فصمم حسان على قطع دابر مقاومتها خصوصا وقد أنضم إلـــيه البربر المسلمون والنصارى الذين سئموا سياسة الكاهنة المدمرة ويبدو أن حساناً لم يتمكن من قتلها إلا في سنة ٨٣هـ/٧٠٢م.

ولقـــد تكهنت الكاهنة بموتها و بالقضاء على مقاومة البربر وخضوعهم للمسلمين وبذلك قضى المسلمون على آخر حركة قام بها أهالي البلاد لردعهم، إذ كانـــت الكاهـــنة فـــي الحصن الأخير الذي احتمى وراءه أهل البلاد فلما سقطت انتهت كل المقاومة، ولم يبق أمام المسلمين غير مقاومات طفيفة من بعض قبائل البربر.

وتولـــى موسى بن نصير في عام ٧٠٥م قيادة المسلمين في أفريقية خلفاً لحســـان بن النعمان، وراح يثبت دعائم النصر الذي حققه سلفه وسار أولاً عبر السهل الساحلي، فوصل إلى طنجة وفتحها وإن كان قد فشل في فتح (سبتة) وعاد

فعـــرض الاســتقرار والهدوء على ساحل المحيط الأطلسي، وعاد عبر المناطق الممـــتدة إلـــى الجـــنوب من جبال الأطلس، فأكمل فتح البلاد كلها، وكان الدين الإســـلامي يسير جنبا إلى جنب مع السياسة في هذه البلاد وقد تحول البربر إلى الإسلام.

فتح الأندلس:

ســـميت شبه جزيرة إيبيريا في القرن الخامس الميلادي ببلاد فاندولوسيا أي بلد الفاندال، والفاندال هم القبائل التي استولت على البلاد في القرن المذكور، ثــم اســتولت قبائل القوط الغربيين على فاندولوسيا في القرن السادس الميلادي، وطردوا الفاندال إلى أفريقية وظلت فاندولوسيا تحت حكم القوط الغربيين إلى أن جاء العرب المسلمون وفتحوها وغيروا اسمها إلى بلاد الأندلس كما أطلقوا عليها في بعض الأحيان اسم الجزيرة.

كان المجتمع الأندلسي قبل الفتح العربي الإسلامي قائما على الاستغلال وكـــان الأشـــراف ورجـــال الدين يملكون القطاعات الكبيرة ويسكنون القصور الضخمة ويعملون العبيد بالعسف والظلم ويضطهدون اليهود ويجبروهم على ترك دينهم والتنصر ويستعبدون وينهبون أموال من يمتنع عن التنصر.

وفـــي الوقت الذي كانت فيه إسبانيا تحت نير الظلم والفوضى كان شمال أفريقية ينعم بالعدل والمساواة والتسامح الديني وبعيش بأمن واستقرار تحت ظل العـــرب المســـلمين فلا عجب إذا ما تمنى سكان إسبانيا عيشا رغيدا تحت ظل العرب المسلمين كالعيش الذي ينعم به سكان أفريقية.

وبعـــد أن أمـــن العـــرب خط الدفاع العربي للدولة العربية وقضوا على أســـطورة التفوق البحري البيزنطي في البحر المتوسط قرروا فتح الأندلس، لأن الأندلـــس هـــو الجناح الغربي للمغرب ولأن الأندلس كان المجال الحيوي للفتح

الإســـلامي بعد إنجاز فتح المغرب الإفريقي واستقرار الفتح فيه بانتشار الإسلام وبوجود القوة الضاربة في جانب العرب المسلمين.

لـــم تســـتعص على موسى بن نصير غير مدينة سبتة لمناعتها ووصول الإمـــدادات إليها من إسبانيا القوطية عن طريق البحر، وكان يوليان حاكما عاما علـــى إقليم مورطانية الطنجية وكانت تابعة لمورطانية القيصرية إحدى الولايات السبعة الخاضعة للدولة البيزنطية، فلما عجزت الدولة البيزنطية عن حمايتها ولت ســـبته وجههـــا شطرا إسبانيا القوطية، وقد بدأ يوليان ولايته لهذا الإقليم في سنة مبكرة، وأنه أقام مدة طويلة في أرض المغرب حتى توثقت علاقته بمن جاوره من قبائل البربر.

أمـــا علاقـــته بالدولة القوطية في إسبانيا فمرجعه كان أنه يتوجه بطلب المعونـــة إلى هذه الدولة ليبعد مدينته عن بيزنطة واضطراب أمور بيزنطة في تلك الفترة.

كان يوليان حليفاً لملك إسبانيا (غيطشة) الذي تولى عرش البلاد في سنة ٧٠٠م بعد وفاة أبيه (أخيكا) وقد خلع غيطشة من العرش على أثر ثورة قام بها نفر من أنصار لذريق وآثار اغتصاب لذريق للعرش نقمة أنصار غيطشة وابناءه فهـــبوا ضـــد هذا المغتصب الذي انتزع الملك لنفسه من البيت للمالك الشرعي، وبـــدأت حـــركة استقلالية في أطراف البلاد ظلت مستمرة حتى دخول المسلمين أرض الأندلس.

وقـــد بعث يوليان برسالة إلى موسى بن نصير يعرض فيها تسليم معلقة (سبتة) ويدعوه إلى فتح إسبانيا فكتب موسى بن نصير إلى ابن عبد الملك يخبره بأمر هذا المشروع.

وقد عمل موسى بن نصير على اجتيازه الأندلس بالسرايا بتوجيه الخليفة الوليد خصوصا وأن المسلمين كانت قد عظمت صولاتهم في غرب البحر المتوسط، بالسيطرة على شواطئ المغرب الطويلة المقابلة للأندلس وبإنشاء وصناعة السفن في تونس ولأن دولة القوط نفسها لم تكن دولة بحرية في قوة دولة الروم فهاجم المسلمون في البحر جزيرتي منورقة وميورقة قبالة ساحل الأندلس.

وبعث موسى بن نصير رجلاً من البربر يسمى طريفاً و يكنى بأبي زرعة في مائة فارس وأربعمائة راجل، فسار في أربعة مراكب حتى نزل البحر بالأندلس فيما يحاذي طنجة، وهو المعروف (جزيرة طريف) سميت باسمه لنزوله هناك فأغار عليها ورجع سالما وكان ذلك في شهر رمضان سنة ٩١هـ/ ٧١٠م.

وفي رجب سنة ٩٢هـ/٧١١م جهز موسى جيشا من العرب والبربر يبلغ سبعة آلاف مقاتل بقيادة طارق بن زياد فعبر البحر من سبته بجيشه ونزل بالبقعة الصخرية المقابلة التي لا تزال تحمل اسمه (جبل طارق) وتوالت انتصارات طارق، ففتح مدينة (قرطاجنة الجزيرة) ثم سار غربا واستولى على المنطقة المحيطة بقرطاجنة وأقام قاعدة حربية في موضع يقابل (الجزيرة الخضراء) وبعد معارك محلية أكمل المسلمون فتح (الجزيرة الخضراء) وسيطروا على المجاز إلى الأندلس وتوجه لذريق لصد المسلمين فكتب طارق إلى موسى بذلك فأرسل إليه موسى مددا من خمسة آلاف من المسلمين، وعلى رأسهم طريف بن مالك وأغلبهم من الفرسان وبهم كملت عدة من طارق اثني عشر ألفاً.

والتقى الجيشان في ٢٨ رمضان سنة ٩٢هـ/٧١١م على وادي برباط أو وادي لكه قرب مدينة شذونه واستمرت المعركة ما يقارب من ثمانية أيام وانتهت بهزيمة القوط هزيمة ساحقة. وكانت هذه المعركة هي المعركة الحاسمة التي فتحت أبواب الأندلس وبدأ طارق يجني ثمار جهاده وانتصاره في وادي لكه ففتح شذونه عنوة ثم مضى إلى المدور ثم عطف على فرمونة ثم اتجه إلى إشبيلية فصالحة أهلها على الجزية، ومنها زحف إلى اسنجة وكانت تؤلف المركز الأول للمقاومة، إذ كانت فلول القوط قد تجمعت هناك، فظفر طارق بصاحب المدينة وأرغمه على الصلح وفرض عليهم الجزية.

وقد عبر موسى بن نصير إلى الأندلس في رمضان سنة ٩٣هـ/٧١٢م من طنجة على رأس جيش قوامه ثمانية عشر ألفاً من المسلمين ونزل موسى في جبل الفتح (جبل طارق) ثم دخل الجزيرة الخضراء وأقام فيها أياما للتأهب لخوض المعركة القادمة، فلما عزم على المسير جمع حوله رايات العرب ووجوه الكتائب وعددها يزيد على عشرين راية وتفاوض الجميع على الرأي وكيف تكون الخطة العسكرية للفتح فاجتمعوا على السير إلى (إشبيلية) وفتح ما بقي من غرب الأندلس حتى (اكشونية) إذ لم يبرح موسى موضعه حتى أمر بتخطيط الموضع واتخاذه مسجدا وكان يقابل باب البحر من أبواب المدينة.

وسار موسى إلى (شدونة) فافتتحها عنوة ثم سار إلى (قرمونه) ولم يكن بالأندلس أحصن منها ولا أبعد من أن تنال بحصار أو قتال فسأل موسى عن أمرها، فقيل له -لا تؤخذ إلا باللطف والحيل-فقدم إليها أصحاب يولان وغيرهم فأتوهم في هيئة المنهزمين ومعهم السلاح فأدخلوهم المدينة فلما علم موسى بدخولهم بعث إليهم الخيل ليلاً ففتحوا إليهم باب المدينة، وهو الباب المعروف بباب (قرطبة) فوثبوا على الحراس وقتلوهم ثم دخل المسلمون المدينة عنوة وسار موسى إلى (رعواف) المعروفة بقلعة وادي (ايرة) أو قلعة (جابو) فافتتحها

وبهــذا أمنــت خطوط مواصلات المسلمين من الجزيرة الخضراء إلى قرطبة إذ أصــبحت سلســلة مدائن الجزيرة (وشذونة) و (راعوف) و(قرمونة) و(استجة) و(قرطــبة) فــي يد المسلمين وأصبح بإمكان موسى أن يتجه نحو الغرب ليفتح (إشبيلية) كبرى مدائن شبه الجزيرة بعد (طليطلة) آنذاك.

لقــد كان ترصين قواعد الفتح المتقدمة وتأمين خطوط مواصلات الفتح وحماية الجناح الأسير (الغربي) لمنطقة فتح طارق الأهداف الحيوية الأولى التي حققها موسى بعد إنزال قواته بالأندلس.

فتح إشبيلية:

تقدمــت قــوات موســى بن نصير نحو إشبيلية وكانت من أعظم قواعد الأندلــس شــأنا وأتقنها بناءً وأكثرها أثاراً وكان دار ملك الروم روما قبل غلبة القوطيين على الأندلس فلما غلب القوطيون عليها استوطنوا (طليطله) وأقرر بها ملكهم وبقى بمدينة إشبيلية علماء أهل روما وكتابهم ورؤسائهم وحاصرها موسى حصارا شديدا ولكنها امتنعت عليه شهرا وأخيرا استطاع فتحها وانسحبت حاميتها إلى (باجة) فترك موسى حامية ومضى قدما لتحقيق أهدافه الأخرى.

فتح مارده:

ســار موســى قاصداً (ماردة) متتبعا طريقا رومانية قديمة كانت تصل إشــبيلية بمــادرة، فاستولى في طريقة على بلد تسمى (لقنت) سلم له أهله دون مقاومة فسموا لذلك موالي موسى وسميت الطريق التي سلكها موسى (فج موسى) وتمتد من (لقنت) إلى (ماردة).

وكانت (ماردة) أيضاً دار مملكة لبعض ملوك الأندلس في سالف الدهر، وهي ذات عز وصنعة، وفيها أثار وقصور فحاصرهاأيضاً وكان أهلها في منعة شــديدة وعمــل موسى دبابة ودب المسلمون تحتها إلى برج من أبراج سورها

جعلوا ينقبونه، فلما قلعوا الصخر أفضوا بعده سورها وجعلوا ينقبونة، فلما قلعوا الصخر فضوا بعده إلى شيء يشبه الأسمنت الصلب كان يسمى (الأشه ماسة) فلم تــنل منه معاول المسلمين تحت تلك الدبابة فسمي بذلك الموضع (برج الشهداء) واســتمر موسى محاصرا لما ردة حتى مستهل شوال سنة ٩٤هـ فدخلها صلحا في شوال سنة ٩٤هـ/٣٠ حزيران ٧١٣م حيث صالحه أهلها.

فتح إشبيلية ثانية:

عندما كان موسى بن نصير محاصرا (ماردة) ثار عجم إشبيلية وارتدوا وقاموا على من فيها من المسلمين واستشهد من المسلمين نحو ثمانين شهيدا فلما فــتح ماردة وجه موسى ابنه عبد العزيز في جيش إلى إشبيلية ففتحها وقتل أهلها ونهض إلى (لبلة) ففتحها أيضا فاستقامت الأمور فيها هناك وعلا الإسلام.

ولــم يغــادر عبد العزيز بن موسى إشبيلية إلا بعد أن ترك في إشبيلية وباجــة ولبلة حاميات إسلامية لتؤمنها من أي تدبير يقوم به وكانت حامية باجة قوية بقيادة قائد عربي معروف هو عبد الجبار قائد ميسرة موسى وجد بني زهرة أحد بيوت إشبيلية التي سيكون لها شأن.

لقــد كانت محاولة فلول القوط في استرداد (إشبيلية) خطوة مدبرة لقطع طريق الرجعة إلى قوات موسى لولا أن عبد العزيز بن موسى استطاع أن يخمد الحــركة قبل استفحالها لذلك أدرك موسى بن نصير بضرورة القضاء على بقايا القوط وعلى رأسهم لذريق.

وفي سنة ٩٤هـ/٧١٣م وقعت معركة حاسمة بالقرب من (تمامس) بين جــيش موسى وطارق من جهة، ولذريق وبقايا القوط من جهة أخرى وفي هذه المعــركة لقــي لذريــق حتفه على يد مروان بن موسى ابن نصير وهزم القوط هزيمة نكراء.

فتح طليطلة:

كان طارق بن زياد قد دخل طليطلة سنة ٩٣هـ دون مقاومة تذكر لكن اشتباك المسلمين مع القوط في المعركة الحاسمة بالقرب من بلدة (تمامس) قد شجع نفراً من بقايا القوط وأنصارهم في (طليطلة)على نقض طاعة المسلمين فانتهزوا فرصة خروج طارق وجنده منها ووثبوا بها فاضطر موسى إلى فتحها من جديد ودخولها دخول الظافر.

وفي (طليطلة) سلم طارق إلى موسى الكنوز التي غنمها من الكنائس وغيرها عند فتحه (طليطلة) لأول مرة فأقام بها موسى طوال فصل الشتاء من سنة ٩٤هـ يدبر أمرها، ثم ضرب عملة ذهبية وأخرى برونزية لصرف رواتب الجند وذلك بدار السكة القوطية بطليطلة ثم بعث موسى بن نصير برسولين إلى الوليد بن عبد الملك ينقلان إليه أخبار هذا الفتح العظيم ووقع اختياره على التابعي علي بن رباح وكان رجلا صالحا في نحو الثمانين من عمره ومغيث الرومي فاتح قرطبة ومولى الوليد بن عبد الملك.

فتح شمال الأندلس:

لما انقضى فصل الشتاء، واطمأن موسى إلى هدوء ما بيده من البلاد عزم على متابعة الفتح فأخذ يستعد للسير نحو الشمال لإكمال فتح شبة جزيرة الأندلس وجمع جيوشه وأكمل أمورها الإدارية ثم سار بها نحو (سرقسطة) الواقعة على الضفة اليمنى من نهر (أبره) وكان طارق على مقدمته وسار موسى خلفه في جيوشه وافتتح (سرقسطة) وأعمالها وتقدم في البلاد وطارق أمامه لا يمران بموضع إلا فتح عليهما وقد ألقى الله الرعب في قلوب العدو فلم يعارضهما أحد إلا بطلب صلح، وموسى يجيء على أثر طارق في ذلك كله ويكمله ويوثق للناس على ما عاهدوه عليه.

ولــم تكــد طلائع المسلمين تشرف على (سرقسطة) حتى رعب أسقفها (ينســيو) ومــن معــه من الرهبان، فجمعوا كتبهم المقدسة وذخائرهم الموروثة وقــرروا الهجــرة من البلد والفرار بهذه الذخائر فلم يلبث موسى أن أرسل إليهم رســولاً يؤمــنهم ويعطــيهم عهده فسكنت مخاوفهم وعدلوا عن مغادرة المدينة وفتحــت المديــنة البيضــاء (سرقســطة) أبوابها للمسلمين سنة ٩٤هــ ولم يكد المســلمون يســتقرون في هذا البلد حتى أقام التابعي حنش بن عبد الله الضعاني بإنشــاء مســجد للمدينة وقد قدر لهذا المسجد أن يتسع حتى أصبح مسجداً جامعاً وظل قرونا متوالية مناراً للإسلام وأهله في هذه النواحي.

وبعــد فتح (سرقسطة) فتح موسى (وشقة) و(لاردة) و(طركونة) وكانت أغلب المناطق التي سار فيها الجيش أرضا خضراء وكانت أغلب المناطق التي يــتحدث أهلهــا اللاتينــية وبينما كان موسى يعد العدة لفتح (جليفية) أتاه مغيث الرومي رسول الوليد بن عبد الملك يأمره بالخروج من الأندلس والتوقف عن فتح البلاد وأن يعود إلى دمشق ولكن قدوم مغيث لم يمنع موسى من المضي في ذلك، إذ لــم يكن في الأندلس بلدس لم تدخله العرب إلى وقته غير (جليفية) لذلك طلب مــن مغيث البقاء في الأندلس بعض الوقت ريثما يتم فتح (جليفية) وقبل مغيث بذلــك وقــد وهب موسى مغيثاً الموضع الذي ينسب إليه في عهد المسلمين وهو (بــلاد المغيــث) بجميع أرضه من أرض الخمس وبعد ذلك بادر موسى بالسير شمالا لفتح (فشتالة القديمة) تأمينا للحدود الشمالية لإقليم (طليطلة).

وكــان يتفرع من (سرقسطة) طريقان رومانيان يتجهان من الشرق إلى الغــرب، الأول يذهــب بمحاذاة نهر أبره (الابرو) حتى (هارو) ومن هناك يتبع (برفيسكا) ثم (اماية) ثم (اليون) و(استرقة) والثاني ينفصل من الطريق الأول عند بدايــته ويــتجه نحو (قلونية) و(بلنسية) ويلتقي بالطريق الممتد من (ماردة) إلى

(اســترقة) فــي مديــنة (بنافني) وكان لابد لموسى من السير في كل من هذين الطريقين فقسم جيشه إلى قسمين قسم بقيادته والآخر بقيادة طارق.

واختار موسى الطريق الثاني وعهد إلى طارق بالسير في الطريق الأول أدنى سفوح جبال (كنتبرية) وشرع طارق بمهاجمة (البشكنس) غربي نهر (أبره) فلم يجد زعيم هذه المنطقة (فرتون) بدأ من الدخول في طاعة المسلمين بل اعتنق الإســلام ولذلــك أعفيــت (شية) منطقته من التخميس ثم تابع طارق سيره ففتح (اماية) و(استرفة) كما فتح مدينة ليون.

وســار موســى نفسه على الضفة الشرقية لنهر (ابره) في إقليم (قشتالة) فأطــاع معظــم من مر بهم من رؤساء هذه الناحية وقد لقي بعض المقاومة عند حصن (بارو) في مقاطعة (بلد الولي) وبدلاً من أن يعرج على باب (تارنا) وسار مــتابعا مجرى نهر (النالون) ثم حط رحاله عند قلعة (لك) بــ(اشنوريش) وما زال بهــا حتى فتحها، ثم سار بنفسه حتى بلغ (خيخون) وأقر فيها حامية وجعلها حصــنا لمــا فتحة من البلاد في تلك النواحي البعيدة ثم بعث سرية من فرسانه أدركــت الــبحر عــند صخرة (بلاي) على البحر الأخضر -المحيط الأطلسي- فطاعت الأعاجم ولاذوا بالسلم وبذل الجزية.

وهكذا وصلت جيوش موسى حتى البحر المحيط فاطمأن إلى أن فتح شبه الجزيــرة كلهــا لذلــك شعر أنه لم يعد هناك معنى للاسترسال في الفتح، وكان موســى يترك في كل قلعة يفتحها حامية من المسلمين فتفرق جنده وطال السير بمــن بقــي معه منهم ونال منهم الجهد فمالت نفوسهم إلى العودة فاكتفى موسى بوصــوله إلــى (خيخو) وقرر العودة غير أن عددا كبيرا من القوط قد تراجعوا أمامــه واحتموا في نواحي (اشتوريش) و(جليقية) وكان المسلمون يحسبون أنهم قضــوا علــى القوط حتى لم يبق منهم إلا ثلاثون رجلاً والواقع أن من بقى من

القــوط آنــذاك قلــيلٌ ولكن العرب شغلوا بأمور أنفسهم فاستطاعت هذه الحفنة القوطــية أن تطمئــن فـــي هذه النواحي القاصية القاحلة وأن تنتظر لتنتهز في المسلمين كل فرصة تسنح.

كذلــك فتح عبد العزيز بن موسى ما بقي من مدائن الأندلس، إذ لم يفتح المســلمون جمــيع أنحاء شبه الجزيرة فقد بقيت في البلاد مناطق لم تصل إليها جــيوش المسلمين بعد وقد تجمعت في بعض الأقاليم غير المفتوحة وفي الجيوب الجبلــية النائــية الوعرة ومراكز للمقاومة القوطية ضد المسلمين فاقتضى الأمر إخماد هذه المقاومة وإتمام فتح الأندلس.

ســار عبد العزيز بن موسى بن نصير على رأس جيشه لاستكمال فتح غرب الأندلس (البرتغال حاليا) حيث أنه بينما كان موسى بن نصير وطارق بن زياد يفتحان البلاد من (سرقسطة) عبر (قشتالة) القديمة قام عبد العزيز عام ٧١٤ م بالــزحف بقصد ملاقاة الفرق الإسلامية في (استرقة) حيث أنه فتح (شنترين) و(قلموية) صلحا وذلك أثناء وجود أبيه في الأندلس.

لقــد بــادر موســى بالعودة من (لك) بــ(جليقية) مع أبي نصر الرسول الثانــي للولــيد بن عبد الملك وكان مع أبي نصر رسالة للوليد إلى موسى يأمره بالخروج، فأخذ موسى في طريق العودة في أواخر سنة ٩٥هــ/٧١٤م والتقى مع مغيث الرومي بنواحي (ليون) وهناك أدركهما طارق عائدا من (استرقة) وساروا جمــيعا فاخــترقوا (فــج موسى) في طريقهم إلى (طليطلة) ولم يقم موسى في (طلــيطلة) وإنما مضى حتى دخل (قرطبة) ثم مضى إلى (إشبيلية) حيث ركب الــبحر ومعه طارق ومغيث الرومي وأبو نصر في ذي الحجة سنة ٩٥هــ وفي (إشــبيلية) اســتخلف موســى ابنه عبد العزيز بعد أن اختارها عاصمة للأندلس

لاتصـــالها بالـــبحر وترك معه الجند ومن يقوم بحماية البلاد وسد الثغور وجهاد العدو.

أبحـــر موسى ومن معه من (إشبيلية) وكان يأمل أن يخترق ما بقي عليه من بلاد افرنجة، ويقتحم الأرض الكبيرة حتى يصل الشام مؤملا أن يتخذ مخترقة بـــتلك الأرض طـــريقا واضـــحا يسلكه أهل الأندلس في مسيرهم ومجيئهم من المشرق وإليه على البر لا يركبون البحر.

وقد استخلف موسى ابنه عبد الله على أفريقية وابنه مروان على (طنجة) و(الســـوس) فمر في طريق عودته بـــ(القيروان) ثم قدم (مصر) سنة ٩٥هـــ ثم سار متوجها حتى فلسطين وبلغ دمشق سنة ٩٦هـــ/٧١٥م.

ويـــبدو أن مـــن أسباب استدعاء موسى إلى دمشق وعزله هو أن الوليد مـــن بعـــده ســـليمان اعتقدا أن موسى غرر بالمسلمين، وأنه عرضهم للمهالك بتغلغله إلى حدود بعيدة في الأندلس كما أنهما خشيا من طموح موسى في التغلغل إلى بلاد أبعد من الأندلس فيقود المسلمين إلى رومية، بالإضافة إلى اتهام موسى بـــالخلع واعتقاد الوليد بأن موسى يحاول الاستقلال والتحرر من سلطان الخلافة ولعـــل الذين أدخلوا هذه الشكوك في روع الوليد لم ينسوا أن يذكروا له سيطرته التامة هو وأولاده على أفريقية والأندلس مما ضاعف تلك الشكوك وجعلها بعيدة عن الحدس قريبة من التصديق.

وبهـــذا الفتح العظيم، الذي لم يستمر أكثر من ثلاث سنوات امتدت رقعة أرض الإســـلام إلى قارة أوروبا باقتطاع شبه جزيرة الأندلس التي أصبحت مثل الكم في ثوب الإسلام.

الجبهة الشمالية:

كان عهد عبد الملك وابنيه الوليد وسليمان متميزا في تاريخ الحدود العربية –

البيزنطية، فقد تابعوا سياسة معاوية بإحاطة بيزينطية بالنفوذ العربي عن طريق عقد العهود والأحلاف ثم حماية من دخل في عهد العرب بحملات كبيرة ضد الأراضي البيزنطية ونتيجة لذلك أقام العرب والبيزنطيون وسائل الدفاع على جانبي حدودهما وأصبحت سياسة كل منها تركز على زيادة الجند وبناء الاستحكامات الجديدة.

لقد أحيا عبد الملك في نفوس العرب حب الجهاد ضد البيزنطيين والتطلع مرة أخرى لاحتلال عاصمتهم القسطنطينية وتابع الوليد فتوحات أبيه في آسيا الصغرى وحرص على الاستيلاء على المواقع المهمة في الطريق الرئيس المؤدي إلى القسطنطينية إذ بدأ بحملات استطلاعية وتمهيدية للزحف المباشر على القسطنطينية فقد حاصر مدينة طوانه مفتاح الطريق بين الشام والبسفور والذي تسلكه الجيوش العربية في طريقها لمهاجمته القسطنطينية واستمر حصار العرب لمدينة طوانه عامين متتالين مما اضطر الحامية البيزنطية إلى الاستسلام بعد أن أنهك الجوع جندها ودخلت الجيوش العربية المدينة سنة ٨٩هـ/٧٠٧م.

استمرت السفن الحربية العربية في غاراتها البحرية على مدن آسيا الصغرى ونجحت في إشاعة الذعر في نفوس الجند البيزنطيين خلال عامي ٩٢-٩٣هـ/٧١٠-٧١١م وبعد سنة وصلت قوات بحرية عربية إلى مضيق البسفور على بعض المعاقل المهمة بالقرب منه وقد حاول البيزنطيون تجنب الصدام البحري مع العرب وإيقاف الزحف العربي صوب القسطنطينية فقد أعاد الإمبراطور البيزنطي أمير البحرية العربي خالد كيسان إلى الخليفة الوليد بعد أن كان قد أسره الأسطول البيزنطي سنة ٩٠هـ/٧٠٩م وذلك بغية إعادة العلاقات الودية مع العرب المسلمين.

وبعد النجاح الذي لاقته الحملات العربية الاستطلاعية وظهور علامات الضعف والخور على البيزنطيين قرر الوليد إعداد حملة لمهاجمة القسطنطينية نفسها وأوكل مهمة قيادة الحملة إلى أخيه مسلمة ووصلت أخبار الحملة إلى العاصمة البيزنطية سنة ٩٥هـ/٧١٤م فأرسل الإمبراطور البيزنطي انسطاس وفدا إلى دمشق للتباحث في شأن عقد هدنة بين الدولتين ويبدو أن مهمة الوفد الحقيقية هي التجسس لمعرفة استعداد العرب المسلمين الحربي والتحقق من صدق العرب المسلمين على مهاجمة قسطنطينية.

رجع الوفد البيزنطي من دمشق يحمل أخبارا محزنة للبيزنطيين فقد تحقق له عزيمة العرب على فتح القسطنطينية واقترح الوفد على الإمبراطور البيزنطي انسطاس اتخاذ الاحتياطات للدفاع عن العاصمة وأخذ الإمبراطور بنصيحة الوفد فأعلن للناس أخبار الحملة العربية وطلب من كل مواطن أن يدخر من الموؤنة ما يكفيه ثلاث سنوات وأن يخرج من المدن كل من لم يستطع أن يدخر هذه المؤونة وجدد الإمبراطور أسوار المدينة سيما من الجهات المطلة على الماء وحصن الأسوار البرية بالآلات الحربية المختلفة.

مات الوليد والمسلمون منهمكون بتجهيز الحملة فتبنى الحملة سليمان بن عبد الملك المشروع العربي لحصار القسطنطينية وتعاونت مصر والشام وشمال أفريقية على إنجاح المشروع العربي بحصار القسطنطينية فأبحر أسطول من مصر إلى شواطئ الشام لجمع أخشاب من سواحل الشام لغرض صناعة حربية جديدة في دور صناعة السفن بمصر لمد الأسطول العربي المتجه لحصار القسطنطينية بالسفن الحربية، وعمد الإمبراطور البيزنطي إلى مهاجمة الأسطول القادم من مصر وتخريب الأخشاب قبل وصولها إلى مصر.

ولكن محاولته باءت بالفشل لعصيان الفرق الإمبراطورية لأوامره لكراهيتها له، إذ أعلنت تمردها ضده حين وصولها إلى جزيرة رودس وهي في طريقها لمهاجمة سواحل الشام وقتلت القائد الذي عينه الإمبراطور وعادت إلى القسطنطينية وعزلت الإمبراطور وعينت إمبراطوراً آخر.

أعد الخليفة سليمان بن عبد الملك معسكراً في دابق شمال الشام ليكون مقراً لإدارة العمليات العسكرية ضد البيزنطيين وكان سليمان يشرف بنفسه على سير العمل في هذا المعسكر وأعطى الله عهدا ألا ينصرف حتى يدخل الجيش الذي وجهه إلى عاصمة الروم القسطنطينية.

قاد مسلمة بن عبد الملك الجيوش الإسلامية نحو القسطنطينية سنة ٩٨ هـ/٧١٧م وأمر سليمان مسلمة أن يقيم عليها -أي على القسطنطينية- حتى يفتحها أو يأتيه وأرسل مسلمة كتيبة استطلاعية عبر آسيا الصغرى فتوغلت هذه الكتيبة في إقليم أناتوليا (الإقليم الشرقي للإمبراطورية البيزنطية) حتى وصلت مدينة عمورية وحاصرتها وكان حاكم عمورية (ليو) يدين للإمبراطور السابق (انسطاس) ويناهض الإمبراطور الحاكم في القسطنطينية (ثاود اسيوس الثالث).

أراد حاكم عمورية (ليو) أن يستفيد من العرب لتحقيق مآربه الشخصية فقد أدرك أن العرب عازمين على مواصلة الزحف نحو القسطنطينية ولا طاقة له في مواجهة حصارهم لمدينة عمورية فتظاهر باستعداده لتقديم كل ما في وسعه للعرب ومصاحبتهم للتقدم نحو القسطنطينية أظهر ذلك لأنه أراد أن يصل بواسطة العرب إلى العاصمة نفسها ويخلع الإمبراطور ويستولي على العرش ثم يبدأ بحرب العرب، دخل (ليو) في مفاوضات مع العرب ونجح في إقناعهم برفع الحصار عن عمورية فملك قلوب سكان المدينة لأنه جنب مدينتهم ويلات الحرب

المدمـــرة فنادوا به إمبراطورا على البيزنطيين ثم صحب جيوش العرب المتجهة نحو القسطنطينية.

تقـــدم (لـــيو) بجنوده الجيش العربي الإسلامي المتجه نحو القسطنطينية وتمكـــن من هزيمة ابن الإمبراطور الذي اعترض طريقه ثم عبر (ليو) البسفور إلـــى القسطنطينية وتمكن من دخول المدينة من باب الذهب وبدأ بتوطيد وتثبيت مركزه فيها، استغل (ليو) الهلع والخوف اللذين أصابا سكان المدينة والذي سببته أخـــبار الحملات العربية ليجذب الأنصار حوله فقد أعلن أن العرب سيحاصرون المديـــنة لمدة طويلة بجيشهم القوي والكثير العدة والعدد، وأن الأمر خطيرٌ جداً ويتطلـــب شخصية قوية وحازمة لمواجهته وساعدت العناصر الآسيوية (ليو) في دعـــواه وانضمت إليه ونادت به إمبراطورا وفي سنة ٩٩هـــ/٧١٧م عقد اجتماع حضـــره كـــبار رجـــال العاصـــمة وتقرر فيه عزل (ثادواسيوس) عن العرض وتنصـــيب (لـــيو) إمبراطورا واستعد (ليو) لمواجهة العرب فأسرع في تحصين العاصمة وتقويتها لمواجهة الحصار العربي المتوقع.

وتقدمـــت الجـــيوش العربية نحو القسطنطينية واحتلت في طريقها مدينة برجام ثم عبرت الدردنيل عند ابيدوس وفي سنة ٩٩هـــ/٧١٧م عسكرت القوات العربية أمام أسوار المدينة وكان الفرسان العرب قد مونوا أنفسهم بالمواد الغذائية التـــي يستوجبها الحصار الطويل، ثم دخلت السفن الحربية العربية مياه البسفور وتعاونـــت القوات العربية البرية والبحرية من أجل إحكام الحصار على المدينة واحتلـــت قطـــع مـــن الأســـطول البحري العربي مدخل البسفور الشمالي لمنع التموينات البيزنطية للمدينة والقادمة من الشواطئ الشمالية للبحر الأسود.

ثـــم أخـــتل ســـير السفن الحربية العربية لسوء الأحوال الجوية ورداءة الملاحة في المياه الإقليمية لمدينة القسطنطينية وبعث البيزنطيون سفنهم المزودة

بالنار الإغريقية ليزيدوا من متاعب السفن الحربية العربية ورغم سوء الأحوال الجوية فقد استمر العرب يحاصرون المدينة ما عدا جهتها المطلة على القرن الذهبي الذي لم يتمكن العرب من محاصرته ثم جاء الشتاء القارس جدا الذي مكن المدينة من إطالة مدة مقاومتها للعرب وأثبت العرب بأنهم أولو بأس وعزم شديدين فقد احتاطوا للعوامل الطبيعية القاسية إذ عملوا بيوتا من خشب شتوا فيها وزرعوا واقاموا محاصرين القسطنطينية قاهرين أهلها.

ووصلت نجدات عربية عند حلول الربيع فقد جاء أسطول عربي من شمال أفريقية وآخر من مصر وكذلك وصلت نجدات عربية برية عبرت آسيا الصغرى عن طريق أبواب فيليقيار وعسكرت في نيقوميديا ونيقيا وأخذت النجدات العربية البرية تهاجم إقليم اوبسيكيون الحربي لمنع السفن البيزنطية من الخروج لجلب التموينات للمدينة المحاصرة أو الذهاب لسواحل البحر الأسود لجلب الغلال من شواطئه الشمالية الغنية بحقول القمح.

استخدم المسلمون في حصارهم القسطنطينية النار وآلات حربية أشبه بالمدفعية لدك أسوار القسطنطينية وقد أبلى الجندي العربي بلاءً حسنا في سبيل إعلاء كلمة الإسلام.

وبينما كانت القوات العربية البرية والبحرية تشدد حصارها على القسطنطينية توفي سليمان بن عبد الملك وخلفه عمر بن عبد العزيز الذي اتجهت أنظاره لسحب القوات العربية المحاصرة للقسطنطينية لأنه كان يخشى على العرب المخاطر فأرسل في سنة ١٠٠هـ/٧١٨م إلى مسلمة بن عبد الملك طالبا منه سحب جيشه وأساطيله والعودة إلى الشام.

وهكذا عادت الحملة العربية الكبرى إلى قواعدها بعد أن نجحت في حمل أباطرة بيزنطة على التخلي عن مشاريعهم وأحلامهم القديمة في استفادة الأراضي

العربية التي خضعت لهم قبل الإسلام لقد جنى العرب ثمار جهودهم ضد القسطنطينية حيث صرفوا أذهان الأباطرة عن التفرغ لدفع العرب عن شمال أفريقية واعتبروا حماية هذا الإقليم في المرتبة الثانية بالقياس إلى الدفاع عن عاصمتهم. وتمكن العرب من جعل شمال أفريقية ركنا هاما من أركان الدولة العربية الإسلامية وتعتبر هذه الحملة آخر حملة قام بها العرب لاحتلال القسطنطينية.

ويذكر أن أسباب فك العرب لحصارهم ضد القسطنطينية هو وقوف البلغار ضد العرب وقسوة الشتاء وقله التموينات الغذائية التي كانت تصل للمقاتلين العرب وإضافة إلى خديعة (ليو) للعرب.

ويبدو أن السبب الرئيسي هو أن عمر بن عبد العزيز كان يؤمن بعدم تهديد حدود العدو وعواصمه وإنما يكفي أن تحمي مداخل الدولة الإسلامية ولم يكن ينظر إلى هيبة الدولة وقوتها بقدر ما كان ينظر إلى سلامة المقاتلين العرب على مداخل حدود الدولة العربية الإسلامية.



الفصل الخامس

التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية

الأحوال الاجتماعية

استيطان العرب في خراسان:

تقع خراسان في الشمال الشرقي من العالم الإسلامي وهي تتصل بأواسط آسـيا وبـلاد الترك والصين، وتمر بها أهم الطرق التجارية العالمية مع الصين وبلاد الروس وقد دفع موقعها المتطرف المهم الإغريق إلى إسكان جالية يونانية فيها بعد أن كون الإسكندر المقدوني إمبراطورية، وقد تم فتحها في خلافة عثمان ابـن عفـان (رضـي الله عنه) على يد القائد عبد الله بن عامر وبعد أن فتحها صـيرها رباعاً وولى على كل ربع واليا بحيث أن هذه التقسيمات احتاجت إلى وجود حامية إلا أن هذه الحاميات كانت وقتية على الأرجح، وذلك لأنها انسحبت في فترة النزاع بين علي و معاوية.

ولمـا أسس معاوية دولته في الشام اهتم بمنطقة خراسان اهتماما كبيرا ونظـرا لبعد الإقليم عن القواعد الإسلامية في البصرة والكوفة وصعوبة إرسال بعوث سنوية فقد قرر إنشاء قواعد ثابتة تقيم فيها القوات الإسلامية بصورة دائمة فتسـيطر على أقاليم الشرق وتدافع عن الحدود وتدفعها نحو الشرق تتوسع بذلك رقعة الدولة الإسلامية وفي سنة ٤٥هـ عين والي البصرة زياد بن أبيه أمير بن أحمر واليا على مرو مركز خراسان الذي استوطنها وفي سنة ٥١هـ وطن زياد خمسين ألف مقاتل بعوائلهم (٢٥) ألف مقاتل منهم كانوا في البصرة و(٢٥) ألف فـي الكوفـة حيث استطاعوا توسيع حدود الدولة شرقا حتى وصلت إلى أواسط آسـيا وكانـت خراسان وثيقة الصلة بالبصرة التي كانت قاعدة فتوح خراسان، ومـنها كـان أغلب المستوطنين العرب، والولاة اندمجت هذه القبائل مع السكان المحليين لتعمل معهم على إحياء الأرض وزراعتها وكانت ضريبة الخراج تجبى مـن العـرب والموالـي الذيـن امتهنوا الزراعة والتجارة وهكذا شرع العرب

المسـلمون حـال دخولهم خراسان في تشجيع سكانها على إصلاح الأرض بعد توزيعها بالعدل بين الناس، وكشف فاتح خراسان عبد الله بن عامر عهدا إلى كل من هراه يوشينج وباذغيس (جميعها من قرى مدن خراسان على إصلاح ما تحت يديه من الأرضيين وأن يكون عادلا في تقسيم الأراضي).

وهكـذا اسـتمر خلفاء بني أمية على تشجيع الهجرة إلى خراسان وفي الساحتين الشرقية والغربية وفي الاستقرار والعمل فيها كما حدث في خلافة عبد الملك والوليد ابنه وفي أرض الخزر أسكن مسلمة بن عبد الملك قوما من ربيعة وعشرين ألفا من أهل الشام على العطاء وبني هربا للطعام وآخر للشعير وخزانة للسلاح.

استيطان العرب في أرمينيا وأذربيجان:

كانت بلاد أرمينيا خاضعة للروم، وقد تم فتحها في خلافة الخليفة الراشد الثالـث عثمان بن عفان (رضي الله عنه) حين أمر واليه على الشام معاوية بن أبـي سفيان، أن يوجه حبيب بن مسلمة الفهري لطرد الروم عن أرمينيا، فتمكن حبيـب من إجلاء الروم عن مدينة قالقيلا في ضواحي خلاط بعد أن قاتلهم قتالاً شـديداً فصالحوه على الجزية والخراج غير أن الروم ما لبثوا أن حشدوا قواتهم فـي وجـه حبيب بن مسلمة فاضطر إلى طلب الإمداد من الخليفة فأمده معاوية بألفي رجل أسكنهم حبيب قالقيلا ليرابطوا فيها وواصل حبيب فتوحاته في أرمينيا ففـتح ديـبل والنشوى وجرزان وتفليس بمساعدة سلمان بن ربيعة الباهلي الذي أرسله الخليفة مددا له.

وهكـذا أمره معاوية أن يسكن المقاتلين في مدينة قالقيلا وكذلك أقطعهم القطـائع وجعلهم قوة مرابطة في أرمينيا ومن الواضح أن حبيب بن مسلمة كان يهدف من جراء ذلك إلى إنشاء قواعد عسكرية ثابتة في الأماكن الإستراتيجية من

أرمينـــيا وقـــرب الحـــدود البيزنطية لتأمين الأراضي التي تم فتحها من هجمات البيزنطييـــن المحتملة خاصة وأن مدينة قاليقيلا كانت من أهم المنافذ المؤدية إلى أرمينيا وأن موقعها مهم بالنسبة للعرب لأنها تواجه الأرمياق البيونطي الذي كان مصـــدر الخطـــر على أرمينيا لما فيه من قواعد عسكرية بيزنطية مقاتلة، وعلى الرغم من قيام معاوية بن أبي سفيان بتوطين ألفي رجل في مدينة قاليقيلا، إلا أن لـــم يـــبدو في نية الخلفاء العرب معاملة أرمينيا بنفس الصيغة التي عوملت بها الأقاليم المفتوحة قبل خراسان وأذربيجان في العهود الإسلامية الأولى فيما يتعلق بتوطين العرب فيها لكونها منطقة جبلية وعرة، صعبة المسالك لا مجال للتوسع فـــيها فضلا عن وجود اتفاقية بين العرب والأرمن سكان المنطقة الأصليين في ســـنة ٣٣هـــــ/٦٥٤م نصـــت هذه الاتفاقية على المحافظة على استقلال أرمينيا ومقاومـــة كافـــة الاعـــتداءات الخارجـــية التـــي قد تتعرض لها خاصة من قبل البيزنطيين بعد تشكيل قوة عسكرية محلية قوامها (١٥) ألف مقاتل أرميني وفي حالة عجز هذا الجيش عن مقاومة هذه الاعتداءات فإنه يتم استدعاء قوة عربية لحماية حدود أرمينيا وقد تعهد العرب في هذه الاتفاقية بعد إرسال أي جندي إليها دون موافقة مسبقة من حكام أرمينيا.

وكانت هذه الاتفاقية من مصلحة كل من العرب والأرمن على حد سواء فقـــد أمنـــت طـــرح العـــرب في أبعاد الخطر البيزنطي من جهة عن أرمينيا والمحافظـــة على استقلالها وتحييدها في الصراع القائم بين العرب والبيزنطيين وبذلك أمن العرب على فتح الشام والجزيرة دون انشغال أنفسهم بهذه المهمة وما يرافقها من تعبئة الجيوش وتحمل النفقات الكبيرة للصرف على مثل هذه الحملات فضـــلا عـــن أن هذا الإجراء يقلل من احتكاك العرب بالبيزنطيين على الحدود الشرقية للإمبراطورية البيزنطية وقد تعهد الأرمن بتنفيذ الدور الذي كان يتحمله العرب في الدفاع عن أرمينيا ضد الاعتداءات الخارجية.

استفاد الأرمن من هذه الاتفاقية في تحرير بلادهم من السيطرة البيزنطية وتوحيد إداراتها وحكمها حكما ذاتيا كما استفادوا من إيجاد حليف قوي يتمكن من تجهــيزهم بالمقاتلين في أوقات الشدة والخطر التي يتهدد فيها استقلالهم وحريتهم كمـــا حافظوا على تجانسهم القومي ونجحوا في الوقوف أمام استقرار العرب في بلادهم في هذه المرحلة ولقد التزم العرب بما ورد في هذه الاتفاقية وذلك بسبب انشغال الدولة في تسوية أمورها الداخلية التي تعرضت لها منذ النصف الثاني في خلافة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) وحتى نهاية خلافة معاوية بن أبي سفيان ثم ظهور المعارضة أثر تولي يزيد بن معاوية الخلافة التي تمثلت في عبد الله بن الزبــير وأخيه مصعب في العراق حتى حلت المشاكل كلها في خلافة عبد الملك بن مروان حينما اضطر الخليفة عبد الملك إلى تعيين أخيه محمد بن مروان أميرا علـــى أرمينيا لإعادة تحريرها من البيزنطيين فدخلها محمد بن مروان سنة ٧٣ هـــ/٦٩٣م فأعاد أمنها واستقلالها ويبدو أنه ترك حامية عربية في مدينة نخجوان بلغ عدد رجالها (٨) آلاف مقاتل فأصبحت هذه المدينة مقرا للقوات العربية كما أصــبحت مدينة دبيل مركزا آخر للقوات العربية فهي تحوي حامية عربية تقدر ب(٥٠٠٠) مقاتل.

ومن المدن الرئيسية الأخرى ذات الموقع الإستراتيجي التي غدت مركزا للحامــيات العربــية مديــنة باب الأبواب التي أسكن فيها مسلمة بن عبد الملك (٢٤٠٠٠) مقــاتل على العطاء وذلك نظرا لأهمية هذه المدينة فهي منفذ الخزر للدخول إلى أرمينيا وجب تحصينها وشحنها بالمقاتلين القادرين على الدفاع وأن مسلمة بن عبد الملك نظم إسكان هؤلاء المقاتلين فقد أمر بتقسيم المدينة إلى أربعة أقســام خصص قسما لأهل دمشق وقسما آخر لأهل حمص وقسما لأهل فلسطين والقسم المتبقي لأهل الشام والجزيرة كما أسكن مقاتلين عربا في باب الملان الذي

يعد المنفذ الآخر لدخول الخزر إلى أرمينيا وذلك لحمايته وكان هؤلاء المقاتلون من أهل الموصل وديار ربيعة والشام.

لقد كان المقاتلون في العصر الأموي يصطحبون نساءهم وأولادهم معهم في الحروب ويهدف هذا الإجراء إلى مضاعفة قوة المقاتلين العرب وجلدهم في المعارك كارتباط قتالهم بالدفاع عن أولادهم ونسائهم كما كان يهدف إلى استقرار بعض هؤلاء المقاتلين في المدن المفتوحة لضمان استمرار ولاتها للعرب.

والقوات العربية التي دخلت أرمينية منذ فتحها كان من أهل الشام والجزيرة، والعرب الذين هم من القبائل اليمانية والقيسية وكانت القبائل اليمانية الغالبة ومن أهم عشائرهم التي استقرت في أرمينيا:

١- بنو الحكم: وينسبون إلى الحارب بن ددة بن حرب بن سفيان من سهم بن الحكم، وهو من سعد العشيرة من مذبح واصلة من اليمن وقد برز من أبناء هذه العشيرة الجراح بن عبد الله الحكمي وأخوه عبد العزيز.

٢- الأزد: وهم فرع من القبائل اليمانية التي سكنت الجزيرة والموصل وكان محمد بن مروان قد نقلهم من البصرة أثناء إمارته على الموصل والراجح أنه أسكن قسما منهم في أرمينيا بعد إمارته عليها.

٣- كندة: وهم القبائل اليمانية التي سكنت الجزيرة ومن أبرز رجال هذه القبيلة عدي ابن عدي الكندي الذي أصبح أميرا على أرمينيا في خلافة عمر ابن عبد العزيز.

أما القبائل القيسية التي استقرت في أرمينيا واستوطنتها فهي:

١- بنو سليم: وهم من قبائل القيسية التي استقرت في الشام والجزيرة العربية بعد الفتح العربي الإسلامي.

٢- بنو الحريش: وهم من بني كعب بن عامر بن صعصعة التي انتقلت إلى أرمينيا فـــي خلافـــة هشام بن عبد الملك سار إليها برفقة قومه وأولاد عمة وسادت أهل الشام وموقد ومي امرة أرمينيا مرتين وقاتل الخزر.

٣- بنو عقيل: وهم من بنى كعب أيضا، كانت منازلهم الأولى شمال اليمامة ثم انتقل كثير منهم إلى الكوفة والبلاد الفراتية وتقلبوا على الجزيرة والموصل.

وكـــان إســـحاق قـــائدا للقوات القيسية في أرمينيا التي بلغ عددها ستة وعشرين ألف مقاتل من الذين فرض لهم مروان بن محمد العطاء وبقي وأرمينيا بعد أن توجه مروان للسيطرة على الحكم في الشام وظل فيها حتى سقوط الدولة الأموية وممن سكن أرمينيا أيضا من القبائل المضرية قبيلة باحلة التي تنسب إلى باحلة من مضر.

لقد قام العرب بدور بارز في حماية أرمينيا من السيطرة البيزنطية طيلة قرنيـــن مـــن الـــزمان، كما صدوا بالتعاون مع الأرمن هجمات الخزر المتتالية مقدميـــن بذلـــك الألوف من الضحايا في سبيل تحقيق الأمن والاستقرار في هذا الإقليم، ولم يكتف العرب بالدفاع عن هذا الإقليم فحسب بل الهجوم على الأماكن التي تكون مصدر الخطر، فقد تمكن العرب في القرن الأول الهجري من الدخول فـــي إقلـــيم الخـــزر وفرضوا على حكامه وسكانه الإسلام فضلا عن الضرائب الأخـــرى. كمـــا أخضعوا الإمارات المتعاونة مع الخزر على طول امتداد جبل القفقـــاس وفرضـــوا علـــيها الضـــرائب المختلفة كما استغل الكثير من العرب بالتجارة والصناعة والزراعة وفي المهن المختلفة فنقلوا خبراتهم التي اكتسبوها مـــن مواطـــنهم الأولى إلى هذا الإقليم والتي تفاعلت مع حضارته مما أدى إلى تقدمه وتطوره.

رعايا الدول العربية:

كانــت قريش عندما جاء الإسلام من أرفع القبائل العربية وأكثرها غنى ونفوذا ولما جاء الإسلام أعز العرب وقرر مبدأ المساواة بينهم وظلت لهم السيادة في القرن الأول الهجري.

وكـــان العــرب يتميزون حسب فضلهم وسبقهم في الإسلام الذي ساوى بيـــنهم وبين بقية الأجناس والظاهر أن الدولة بعد الفتوحات خشيت على العرب مـــن الضـــياع والاندمـــاج في العناصر الأخرى التي دخلت الإسلام ولذلك اهتم الأمويـــون بصـــورة خاصــــة بهم ولم يحبذوا التزوج بأمهات الأولاد ولم يفضل الأمويـيــن أبن الأمة وبذلك حرم أولاد الإماء من الخلافة مثلا كما هو الحال في عدم عهد عبد الملك إلى ابنه مسلمة على الرغم من شجاعته وإخلاص الأخير له فـــي معظـــم الميادين وكذلك لأخوته الذين جاءوا للحكم من بعد أبيه ومن رعايا الدولة الأموية:

الموالي:

المولى في اللغة لها معان كثيرة فهي تطلق على النصير وعلى ابن العم وعلى المعتق وعلى الحليف وعلى السيد، أما الموالي تاريخيا فهم المسلمون من غـــير العـــرب وأن هناك أنواعا كثيرة من الموالاة فهناك الأومولي العتاقة وهو الرقـــيق الذي أعتقه سيده وهناك مولي الوالاة أو مولي الاصطناع وهو الحليف وكـــأن يقـــول رجـــل لأخر ليس لي عشيرة ولا ناصر وإنني أنضم إليك وإلى عشـــيرتك فإن مت كان ميراثي لك فيعقد بينهما الموالاة وقد اعترف الإسلام بهذا الـــنوع من الولاء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (مولى القوم منهم وحليفهم منهم).

وكـــان العـــرب يطلقـــون على الموالي الفرس لفظ (الحمراء) كما كانوا يســـمونهم العجـــم وقـــد دخل الموالي في الإدارة ومنذ العصر الأموي وخاصة الإدارة المالية وكذلك جندوا في الجيش في الأقسام الشرقية من الدولة الإسلامية.

ثم برز منهم العديد في العلوم النقلية والعقلية وسكنوا في الكوفة والبصرة والفسطاط ودمشق والمدينة والقيروان ولعل نبوغهم هذا يرجع إلى أنهم انصرفوا إلـــى الـــثقافة مـــنذ العهـــود الإسلامية الأولى فقد أتقنوا اللغة العربية وهي لغة العـــرب الفاتحين والدين الإسلامي الذي ساد في الدولة العربية الإسلامية وهكذا كانـــت كـــتاباتهم باللغـــة العربية التي كانت لغة المخاطبة والعلم للفكر العربي الإسلامي.

وقـــد ســـاوى الإســـلام بمبادئه السمحاء بين كل من المسلمين "لا فضل لعربـــي على أعجمي إلا بالتقوى" وبرز من الموالي في العهود الإسلامية الولي بلال الحبشي مولى ابن بكر أول مؤذن في الإسلام وسلمان الفارسي المقرب إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وصهيب الرومي الذي عينه عمر بن الخطاب ليصـــلي بالمســـلمين لمـــا طعن طعنة الموت وأمره عمر بن الخطاب كذلك أن يساوي الموالي بالعطاء بمولاه وأمر الولاة أن يتساوا والرعية بالعطاء، كما ظهر بعـــض المـوالـــي وبرز في ميدان الحروب أمثال موسى بن نصير فاتح الأندلس ولكـــن وجد منهم من كانت أعمالهم وأفكارهم سلبية تجاه العرب والإسلام وأنهم اعتـــنقوا الإســـلام خوفا لا رغبة ومن نتيجة هذا ظهر بعض التنافر في أعمالهم تجـــاه العـــرب والإســـلام بإثارة الفتن وأن الخليفة عمر بن الخطاب نفسه طعن بخنجر مجوسي وأن الحركات الهدامة المعادية للعرب والإسلام كان منشؤها من بلاد العجم وان من بينهم من حاول الوقوف حتى أمام تعريب الدواوين في اللغة الفهلويـــة إلى اللغة العربية عندما حاول الموالي إعطاء مائة درهم إلى صالح بن عـــبد الرحمـــن حينما كلفه الخليفة عبد الملك عن طريق واليه الحجاج بتعريب

ديــوان الخراج في العراق من اللغة الفهلوية إلى اللغة العربية وقدم له مائة ألف درهم فقط لإظهار العجز في عملية التعريب هذه، ولما رفض صالح هذا العرض وأتــم عملــية التعريب قال له مروان بن فروخ -كاتب ديوان الخراج- الله قطع أصـــلك من الدنيا مثلما قطعت أصل الفارسية من الديوان وهذا ما يجسد شعوبية بعضـــهم وحقدهـــم علـــى العرب ولا بد من الإشارة هنا إلى انهم برعوا في فن الكـــتابة واتخـــذ خلفاء بني أمية كتابهم منهم أمثال الخليفة معاوية بن أبي سفيان وعـــبد الملك بن مروان وعمر بن عبد العزيز، وكان عبد الحميد الكاتب لمروان بن محمد من أبرع الكتاب في كتابة الرسائل وأبلغهم.

أهل الذمة:

يطلـــق هـــذا الاصطلاح تاريخياً على أهل الديانات الأخرى من اليهود والمســـيحيين الذين سموا كذلك (المعاهدون) أو أهل الكتاب، وكان أهل الذمة في داخـــل المجـــتمع العربـــي الإســـلامي يتمـــتعون بقسط وافر من الحرية الدينية والشخصـــية مارســـوا طقوســـهم الدينـــية وخضعوا في الأحوال الشخصية إلى رؤســـائهم الروحانييـــن وقد عفى الإسلام أهل الذمة من الخدمة العسكرية حيث أصـــبحوا في ذمة الحاكم المسلم الذي كان يدافع عنهم مقابل دفع ضريبة محددة مـــن الجـــزية، وكان مقدار الجزية يسمى دفع ضريبة محددة من الجزية، وكان مقدار الجزية يسمى بضريبة الرأس محددا بدينار واحد في عهد الرسول (صلى الله علـــيه وسلم) ثم قسمهم عمر (رضي الله عنه) إلى ثلاثة أصناف الغني يدفع أربعـــة دنانير والمتوسط يدفع دينارين والفقير يدفع دينار واحد، ويعفى كل من المرأة والشيخ والطفل والراهب والفقير.

ويذكـــر أن بعـــض الخلفـــاء ومنهم عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) خصص لأهل الذمة ممن يعانون من أمراض فرضة مبلغا من الصدقات كما كان

الحال في إقليم الجابية في الأردن في سنة ١٨هـ كذلك فعل عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ) مع العجزة من أهل الذمة في جملة إصلاحاته المشهورة وأشتهر من الذميين في الطب أمثال الطبيب ابن أثال وأبو الحكم النصراني وكذلك أشتهر منهم بترجمة علوم اليونان إلى السريانية والعربية.

الأحوال الاقتصادية (الزراعة ومشاريع الري):

شهد العصر الأموي نشاطاً زراعياً واسعً كان وليد الأسس والقواعد التي وضعت في عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم) في مجال الإقطاع الأحياء وطرق الري ووسائله ولهذا يعد العصر الأموي استمراراً ومتماً للنظام الراشدي، غير أن الأمويين ومنذ قيام حكمهم (٤١هـ/ ٦٦١م) قد صادفوا ظروفاً مالية صعبة كانت وليدة أمور سياسية وعسكرية وعمرانية وإدارية استوجبت منهم أن ينهجوا سياسة مالية مغايرة لما كان سائدا في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) والعهد الراشدي وانعكست هذه السياسة وأظهرت أثارها في الحقل الزراعي وسوف نفصل كل قسم وكما يلي:

الإقطاع والقطائع:

جمع الأمويين في سياستهم بين سيادة الملكية الصغيرة من جهة وسيادة الملكية الكبيرة من جهة أخرى، ومركز خلفاء أمية وبعض ولاتهم الكبار في منحهم القطائع على بعض قواعدهم و عمالهم وأقربائهم وأولادهم من بنين وبنات واقطعوا جنودهم أيضا وشجعوا على الاستقرار والعمل في الحقل الزراعي.

وقد قطع معاوية قطائع عديدة لمن ينزل السواحل منذ أن كان واليا على الشام في خلافة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) وذلك بغية تحصينها وتعزيز قوتها لمجابهة الأعداء، وبعد أن تولى الخلافة (٤١-٦٠هـ/٦٦١-٦٨٠م) وكذلك لقطع قطائع عديدة في الحجاز لبني أمية فاقطع (خدك) لمروان بن الحكم إلا أن

الأخـــير أهداها لأبن عبد الملك فصارت للوليد وسليمان أولاد عبد الملك من بعد وفاته، وفدك أرض زراعية استصفاها الرسول (صلى الله عليه وسلم) لنفسه كان يعطـــي منها لأبناء السبيل وفي العراق أقطع معاوية الحسن بن علي (رضي الله عـــنهم) (عيـــن الصيد) ومن الواضح أن معاوية أقطع الحسن (رضي الله عنه) بدافع سياسي.

وقـــد أقطـــع الخلـــيفة عـــبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف الثقفي إقطاعات عديدة في فلسطين وبلاد الشام والعراق وكان خلفاء بني أمية يفضلون إقطـــاع الأراضـــي لبعض ولاتهم بدلا من إعطائهم راتبا معينا وفي مجال قطع الأراضي للنساء فقد أقطع الحجاج خيرة بنت ضمرة امرأة المهلب بن أبي صفرة عباسان في البصرة وكان ذلك تقديرا لمجهود زوجها في حربه على الخوارج.

إحياء الأرض واستصلاحها وزرعها:

واجه خلفاء بني أمية -ومنذ قيام حكمهم- مشاكل مالية واقتصادية جسيمة وكانت وليدة أمور سياسية وعسكرية وإدارية وعمرانية وبذلوا جهودا كبيرة في تذلـــيلها واتخذوا تدابير منها عاجلة ومنها أجله وضعها بعضهم بالإيجاب ونعتها بعضهم الآخر بالسلب والخروج عن القيم والتقاليد والمبادئ الإسلامية ومن أهل الذين قاموا بتدابير إحياء الأرض واستصلاحها هو معاوية بن أبي سفيان (٤١-٦٠هـ/٩٩-١٠١م).

فقد واجهت معاوية وقت وصوله إلى الخلافة أزمة مالية خانقة ففي:

- بـــلاد فارس حاول معاوية الاستعانة ببعض أموال هذه البلاد ولكن دون جـــدوى فكتب إلى زياد بن أبيه وكان واليا على هذه البلاد في خلاقة علي بـــن أبي طالب (رضي الله عنه) "إن في يدك مالا من مال الله وقد وليت ولاية فأدِ ما عندك من المال" فكتب زياد إليه "أنه لم يبق عندي شيء من

المال وقد صنعت ما كان عندي في وجهه واستودعت بعض المال لنازلة نزلت وعملت ما فضل به أمير المؤمنين رحمه الله".

- وفي العراق: لم يحصل معاوية على شيء من بيت مال الكوفة التي كان عليها الحسن بن علي (رضي الله عنهما) ولا مما كان في قبضة عبد الله بن عباس الذي سبق أن ولاة علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) على البصرة ويذكر أن من جملة شروط صلح الحسن (رضي الله عنه) لمعاوية كان أن يكون للحسن خراج دار أبجرد وما كان في بيت مال الكوفة والبالغ خمسة آلاف درهم. كما أشترط الحسن على معاوية أن يبعث لأخيه الحسين (رضي الله عنه) ألف ألف درهم سنويا وأن يقدم بني هاشم على بني عبد شمس في العطاء فأجابه معاوية كما صالح عبد الله بن عباس شروط اشترطها بنفسه منها الأموال التي أصابها فشرط ذلك له معاوية.

- وفي مصر: صارت مصر طعمه خالصة لعمرو بن العاص شرطها له معاوية يوم بايع ونسخة الشرط "هذا ما أعطى معاوية بن أبي سفيان عمرو ابن العاص، أعطاه أهلها، فهم له حيانه، ولا تنقص صاعته شرطا".

- وفي فلسطين: غلب نائل بن قيس الجذامي وأخذ بيت مالها.

- خطر الروم: واجه معاوية خطرا جديدا جاء من الخارج فقد بلغه طاغية الروم قد زحف في جموع كثيرة فخاف أن يشغله مما يحتاج إلى تدبير وأحكام فوجه إليه، فصالحه على مائة ألف دينار، وكان معاوية أول من صالح الروم وكان صلحه إياهم في أول سنة ٤٢هـ.

- الحاجة إلى الأموال: وكان الأمويون بحاجة إلى الأموال الكثيرة لسد حاجات البلاط والفتوحات ولتهدئة الثورات.

أما تدابير معاوية في معالجته هذه الأزمة المالية فقد اتجهت سياسته نحو اتخاذ تدابير مالية واقتصادية عاجلة وآجلة يمكن تركيزها مما يأتي:

- مشـــاطرة عماله الأموال: وأول من شاطره ماله كان عمرو بن العاص بعد وفاته سنة (٤٣هـــ٦٦٣م) ولم يكن يحدث لمعاوية عامل إلا شاطر ورثته ماله وكان يردد دائما هذه سنة سنها عمر بن الخطاب.
- استصفاء أموال الناس، ولم يكتف معاوية باستصفاء أموال عماله بل إلى استصفاء أموال الناس.
- فرض الزكاة على الأعطية.
- فرض هدايا النوروز والمهرجان.
- استعانة معاوية ببعض واردات البصرة.

استصفاء الصواخي:

كـــان على رأس التعابير المالية التي ينهجها معاوية تلك التي ركزت في إحياء الأرض واستصلاحها وزرعها، حيث رأي فيها المورد المالي الثابت لذلك وجه معاوية عنايته البالغة نحو استصفاء الصواخي واستصلاح البطائح وإحيائها وزرعها وقد بذل معاوية جهودا كبيرة في تحسين الزراعة وتطويرها فقام بإنشاء مشاريع ري عديدة فأحيا بذلك أراضي واسعة من عملية الإنتاج الزراعي.

والصواخي هي تلك الأراضي الخاصة بالخليفة وهي ملك للدولة وتعود عملية استصفاء الصواخي إلى عهد الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب حيث أصفى من هل السواد عشرة أنواع هي:

١- أراضـــي كســـره ٢- أراضي غيره من أفراد العائلة ٣-أوقاف دائرة البريد وطرق البريد ٤-أوقاف بيوت النيران ٥-الآجام ٦-أراضي من قتل في الحرب

٧-مقايض الماء والمستنقعات كالبطيحة في جنوب العراق ٨-أراضي من هرب من أهل البلاد في فترة الحرب ٩-كل صافية اصطفاها كسرى ١٠-أرجاء (الطواحين).

وكانت في بلاد الشام صواف أخرى، فلما هزم الله الروم وهرب تلك البطارقة لحق ما كان بأيدهم من مزارع وقرى وصارت صافية للمسلمين وكذلك كانت هناك صواف في الجزيرة واليمن والحجاز (مكة والمدينة) وقد حظيت بنصيب وافر في سياسة معاوية بن أبي سفيان صوب البطائح واستصلاحها وزرعها وعلى ضوء هذه التدابير والمنجزات المالية الإصلاحات الزراعية استطاع معاوية أن يتخطى أزمته المالية وقد ساعده لذلك ولاته وعماله خراجه إذ كان في العراق زياد بن أبيه، والمغيرة بن شعبة، وعامله ابن آثال النصراني كاتبه على خراج حمص وسرجون بن منصور الرومي كاتبه وصاحب أمره.

مظاهر عامة أخرى في إحياء الزراعة:

لم تقتصر سياسة الأمويين الزراعية على استصفاء الصواخي واستصلاح البطائح فحسب، وإنما تناولت إحياء أراضي أخرى متعددة شملت مختلف الأمصار الإسلامية التي كانت بحوزتهم وقد ربط الأمويون في سياستهم الاستزراعية بين قطع الأرض ومنحها من جهة وبين أحيائها وزرعها وعدم تحجيرها من جهة أخرى، كما شجعوا الناس على العمل الزراعي وأبدوا عليه اهتماما بالفلاحين وأسهموا من بيت المال في الصرف والإنفاق على الشؤون الزراعية وتعود عملية إحياء الأرض وزرعها إلى عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان وواليه زياد بن أبيه بحيث ربط زياد بن أبيه بين عملية اقتطاع الأرض وبين إحيائها فكان لا يقطع أرضا لشخص حتى يقوم بإحيائها وإذا أقطع لرجل وتمضي سنتان ولم يعمرها يأخذها منه.

وهكـــذا أســـتمر ولاة بني أمية في الاهتمام بالزراعة، ففي العراق أولى الحجـــاج بـــن يوســـف الثقفـــي عناية واهتماما وأنه قام بدور مهم وأساسي في استصـــلاح البطائح وخاصة عندما تقدم مسلمة بن عبد الملك وعرض عليه مبلغ ثلاثة ملايين درهم لاستصلاحها، وكان الحجاج المشرف المباشر على الصرف والإنفـــاق ولما بنى الحجاج مدينة واسط احتضر النيل والتراب وأحيا على هذين النهريـــن الأرض وكـــان الحجـــاج يقـــوم بجولات تفقدية في الحقول الزراعية ويستفســـر من الفلاحين على أحوالهم وأحوال غلاتهم الزراعية ولم يكتف بذلك فسحب بل أنه كان يأمر بإقامة حفلات رسمية في مدينة واسط في أوقات نضوج بعض الغلات الزراعية. وفي مصر أولى عبد العزيز بن مروان في خلافة أخيه عبد الملك عناية كبيرة لشؤون مصر الزراعية فشجع إلى زراعة أشجار النخيل والكروم والتين.

وفي الجزيرة شجع الوليد بن عبد الملك وأخوه مسلمة على إحياء بعض أراضي الجزيرة وزرعها وحفر الأنهار فيها، وكذلك اهتموا بالأراضي الزراعية فـــي أذربـــيجان والواقـــع أن الأمويين أسهموا من بيت مال إلى جانب رؤوس الأمـــوال الفـــردية مساهمة فعاله في إحياء الأرض وزرعتها بحيث أن الحجاج أقـــرض الفلاحيـــن مليون درهم من بين المال تشجيعا لهم على القيام بأمورهم الزراعية، وأن عمر بن عبد العزيز لم يكن يتوانى عن القيام بصرف الأموال من بيـــن المـــال في سبيل إحياء أرض الصواخي وزرعها وبهذا أصبح بيت المال الأمـــوي بمثابة بنك التسليف الزراعي ومن مظاهر اهتمام الأمويين بالحاصلات الزراعـــية ما كان قد أبدوه من اهتمام كبير بإنشاء مخازن خاصة لحفظ الأطعمة والحبوب من التلف، فقد شيد زياد بن أبيه داراً للزرق في البصرة لخزن الحبوب وعين الحارث بن نوفل عاملاً فيها.

مشاريع الري:

كـــان لعملـــية مسح الأراضي أهمية أساسية في الكشف عن طوبغرافية الأرض وتمهيد الطريق إلى معرفة قابليتها الزراعية والإنتاجية والى إقامة العديد من مشاريع الري فيها، وأول من وضع الأسس الأولى لعملية مسح الأرض في العــراق الخلـــيفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وقد تميزت عمليـــته باتجاهين رئيسيين الاتجاه الأول: المسح العام الذي قامت به اللجنة التي شكلها عمر بن الخطاب والمتكونة من عثمان بن حنيف وحذيفة بن اليمان لمسح أرض السواد ولما جاء الأمويون اعتمدوا مسوحات عمر (رضي الله عنه) أساسا لعملـــية المســـح مع التركيز في العملية نفسها مع ما قام به كل من زياد بن أبيه والحجاج بن يوسف الثقفي اللذين يرجع إليهما الفضل في عملية مسح الأراضي تركـــزت فـــي الســـواد وأن زياد بن أبيه قد أبتكر وحده قياسية سميت (بالزراع الزيادي) والتي تساوي وفق حساباتنا الآن (٦٦,٥سم) وهناك مسوحات في مصر اتخـــذت الفـــدان وحدة قياسية، وهكذا استمر الأمويين في المسح العام ولمختلف الخلفـــاء إذ قام عمر بن هبيرة بمسح عام لمنطقة السواد في خلافة يزيد بن عبد الملـــك سنة ١٠٥هـــ، والتي استمرت في العصر الأموي أهمية كبرى في إنشاء العديد من مشاريع الري التي لعبت دورا كبيرا في الحملات الاستزراعية الكبرى التـــي قـــام بها معاوية بن أبي سفيان فأرست بذلك قواعد للدولة المالية وأنقذت الخزيـــنة من أزمتها المالية وقد تتابعت الحملات الاستزراعية الأخرى بعد ذلك فـــي خلافة عبد الملك بن مروان وابنه الوليد حتى بلغت ذروتها في خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٢-١٢٥ه) وواليه خالد بن عبد الله القسري.

وقد وسع الخلفاء الأمويون وولاتهم وطوروا مشاريع الري التي وضعت أسســـها خـــلال العصر الراشدي فقد شهد العصر الأموي نشاطاً واسعا في هذا المجـــال تجلى في حفر الأنهار وشق القنوات والجداول وإقامة السدود وأحواض

المياه وإنشاء الجسور والقناطر ونصب آلات مقاييس الماء وسوف نتطرق إلى الخلفاء الأمويين بالتسلسل في سرد أعمالهم في مشاريع الري.

١- في خلافة معاوية بن أبي سفيان: في خلافة معاوية بن أبي سفيان وولاية واليه على البصرة زياد بن أبيه، بذلت جهود كبيرة في هذا المجال وكان زياد بن أبيه قبل أن يوليه معاوية ولاية البصرة مسؤولا عن الديوان وبيت المال في خلافة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) في البصرة، وفي ولاية عبد الله بن عامر بدأ نشاطه في حفر الأنهار وقد نشط في حفر الأنهار أول ما جاء لولاية البصرة في عهد الخليفة معاوية، بحيث أصبحت البصرة عبارة عن شبكة من الأنهار والقنوات والجداول بحيث انتعشت الحياة الزراعية ووصلت واردتها إلى سنين مليون درهم، أما في الكوفة فقد أقيمت الجسور والقناطر وفي خراسان شيدت قناطر على ثلاثة أنهار في بلخ فقيل لها قناطر عطاء.

٢- في خلافة عبد الملك وابنه الوليد: نشطت حركة مشاريع الري نشاطا واسعا في خلافتي عبد الملك وابنه الوليد بحيث بذل ولاة هذين الخليفتين جهودا كبيرة في هذا المضمار شملت مختلف الأمصار الإسلامية، وكان والي العراق الحجاج الذي قدم العراق سنة ٧٥هـ وقبل اتخاذ واسط مركزا لولايته في العراق، أراد نزول الصين من كسكر.وثم لما أتخذ واسط واحتفر النيل والزاب أحيا ما على هذين النهرين من الأرض وأحدث المدينة التي تعرف بالنيل ومصرها، والنيل نهر كان يأخذ من الفرات مياهه إلى دجلة في منطقة تقع شمال مدينة بابل وقد سماها الحجاج بالنيل تيمنا بنيل مصر العظيم وبنى مدينة النيل التي تقع بين بغداد والكوفة وكانت أجمل مدينة في الناحية كلها، وأطلالها اليوم بن المدحتية قرب الفرات والنعمانية على دجلة والتي تسمى بتل النيل والنيليات النيلية وقد أكمل الحجاج حفر نهر

الأنهار وفي الموصل ولى عبد الملك بن مروان ابنه سعيد عليها فحفر نهرا فيها سمي باسمه وفي الجزيرة قام سعيد بن عبد الملك أيضا في خلافة أخيه الوليد بحفر نهر فيها وعمر ما هناك من أراض وكان يقال له سعيد الخير.

٣- وفي مصر: أقام عبد العزيز بن مروان مقياسا للماء في منطقة الجزيرة (بين الفسطاط والجيزة) وكانت تدعى جزيرة النساء، وكذلك بنى قنطرة في الفسطاط سنة ٦٩هـ وقام بتشيد قناطر أخرى عندما كان واليا على مصر لأخيه عبد الملك.

٤- وفي الحجاز: أمر الوليد بن عبد الملك واليه على المدينة عمر بن عبد العزيز بحفر آبار فيها وتم ذلك في عام ٨٨هـ-٧٠٣م.

٥- وفي فلسطين: بنى سليمان بن عبد الملك مدينة الرملة ومصرها واحتفر لأهلها قناتها التي تدعى بردة واحتفر آبارا فيها.

٦- في خلافة عمر بن عبد العزيز: ولما تولى عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ) الخلافة أولى عناية بالغة لمشاريع الري لما رأى فيها من أهمية في إحياء الأرض واستصلاحها حيث تم حفر نهرين في البصرة ومن مظاهر اهتمام عمر بن عبد العزيز بالماء والآبار والجداول أنه كتب كتابا إلى عمالة قال فيه:"غلب الماء على شيء فهو له".

٧- في خلافة هشام بن عبد الملك: يظهر أن حركة إنشاء مشاريع الري قد بلغت أوج عزها وتقدمها في خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ) ولعل الأسباب التي أدت إلى ذلك هو ميل الخليفة في امتلاك الضياع الواسعة وما كانت تدر عليه من غلات وواردات طائلة وقد ساعد على ذلك طول مدة خلافته البالغة عشرين عاما، فضلا عما أبداه ولاته من نشاط واسع في هذا الميدان شمل مختلف الأمصار الإسلامية ويبدو أن العراق بمدنه الثلاث

البصـــرة، وواســـط، والكوفة كان المحور الأساسي التي تركزت فيه حركة إنشـــاء مشاريع الري المتعددة في حفر الآبار وشق القنوات والجداول وإقامة الســـدود والقناطر وقد حظي بنصيب وافر في هذه الميادين في خلافة هشام وولاية خالد القسري عليه.

الجزية والخراج

إصلاحات عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠٥هـ):

لمـــا جاء عمر بن عبد العزيز إلى الخلافة أبدى مرونة وبعد نظر فائقين في الناحية المالية، بأن وضع حلا يحفظ حقوق بين المال ويراعي مبادئ الإسلام حـــتى ســـمي بعمـــر الثاني فقد ميز ولأول مرة في تاريخ المسلمين بين الجزية والخراج وعدّ الجزية ضريبة يدفعها غير المسلم وتسقط عنه بإسلامه أما الخراج فعـــده إيجـــارا لـــلأرض وقـــال بأن أرض الخراج كانت أولا ملكا مشتركا بين المســـلمين وأنهـــا تركـــت بيـــن المغلوبين يزرعونها لقاء إيجار يدفعونه للأمة الإســـلامية وهو الخراج ولذلك فعلى المسلم حيث يشتري أرض الخراج أن يدفع خراجها كإيجار للأرض إذ هي وقف للمسلمين.

وفـــي حالـــة إسلام الذمي يعفى من الجزية ولكن أرضه تبقى خراجية، وكانـــت نظـــرته للصواخي تدل على اهتمام بشؤون الخزينة، فإنه لم يتجه إلى إقطاعهـــا بل فضل أن تعطى بالزراعة بالنصف وما لن تزرع فأعطوها بالثلث فإن لن تزرع فأعطوها حتى بلغ العشر فإن لم يزرعها أحد فامنحها فإن لم تزرع فـــأنفق علـــيها من بيت مال المسلمين ولكنه لم يتعرض للإقطاعات التي وهبها أسلافه، بل أقر القطائع التي أقطعها أهل بيته.

إصلاحات الأشرس بن عبد الله السملي ونصر بن سيار:

إن سياسة عمر بن عبد العزيز توقفت بوفاته الفجائية في سنة ١٠١هـ إلا أنها تركت أثارا عميقة في سياسة الأمويين المالية والزراعية، تجلت بصورة واضحة خاصة في محاولتي الأشرس بن عبد الله السلمي وينصر بن سيار، إذ كان الأول عامل هشام بن عبد الملك في خراسان للفترة ما بين (١٠٥-١١٧هـ/٧٢٧-٧٢٩م) إذ حاول الأشرس أن يعفي المسلمين في ما وراء النهر من الجزية، فنجحت دعوته لدرجة كبيرة، فرغب الوالي لنقص الوارد من جهته وتذمر الدهاقين لأنهم لا يودون نشر دين فيه روح المساواة، بحيث جاء دهاقنة بخارى إلى الأشرس يذكرونه بالنقص الذي حصل وقالوا له: "ممن تأخذ الخراج وقد صار الناس كلهم عربا" فكتب إلى عاملة على الخراج "أن يأخذوا الخراج ممن كانوا يأخذونه منه، فأعادوا الجزية على من أسلم".

وهكذا كان دور دهاقنة الفرس واضحا في عرقلة الإصلاح أما نصر بن سيار (١١٦-١٢٦هـ/٧٣٨-٧٤٨م) فقد وضع حلا عادلا ثابتا لمشكلة الضرائب في خراسان وقد تصرف وفق أسس سياسة عمر بن عبد العزيز في العراق، فقرر إعفاء المسلمين من الجزية ولم يجد صعوبة في ذلك إذ وجد ثلاثين ألف رجل يدفعونها وثمانين ألف رجل من المشركين رفعت عنهم الجزية وكان أكثرهم من أعوان الدهاقين، فأعاد عليهم الجزية وعفا المسلمين ثم قسم أراضي خراسان إلى مناطق فرض على كل منطقة كمية ثابتة معينة تجبى على الأرض مهما كان دين مالكها وكان هذا التدبير ضربة عالية قوية للدهاقين أفقدتهم أغلب امتيازاتهم يسرعون بالانضمام للدعوة العباسية وهكذا جاءت إصلاحات الأشرس ابن عبد الله السلمي ونصر بن سيار متأخرين في الوقت الذي كانت فيه الدولة الأموية تسير نحو الانهيار والسقوط.

الرزق والعطاء:

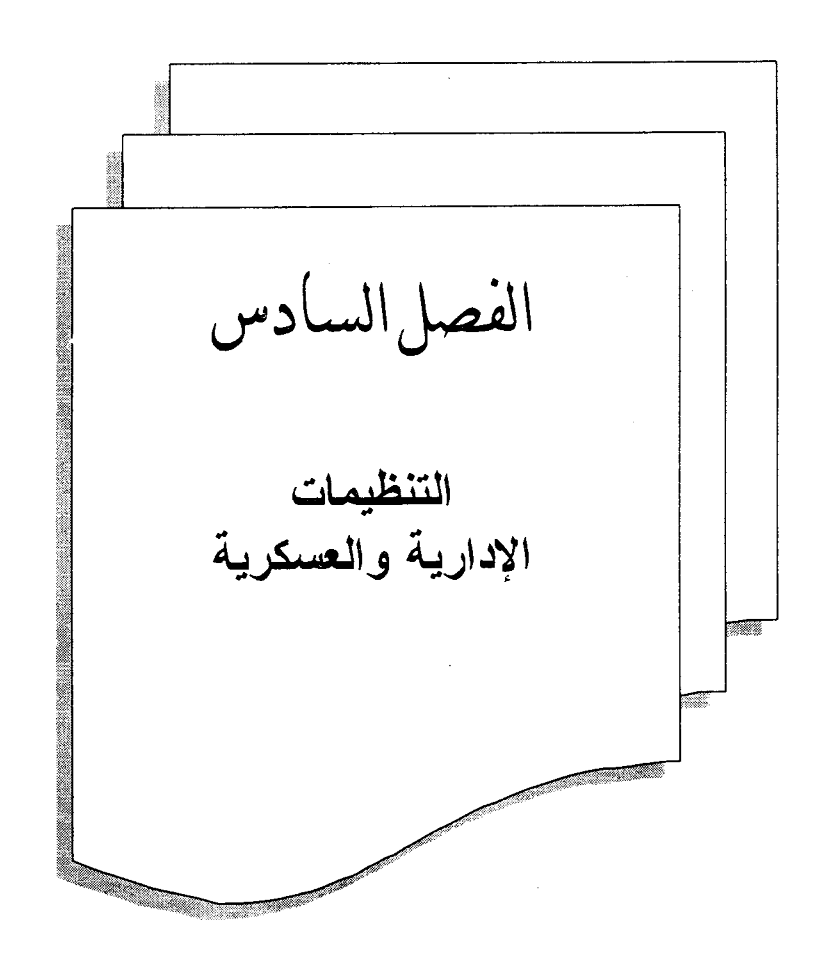
يذكر البلاذري، أنه لما أتم فتح العراق والشام، الخليفة "الراشد الثاني عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وهيأ الخراج، جمع أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقال لهم: إني قد رأيت أن أفرض العطاء لأهله فقالوا له: نعم الرأي يا أمير المؤمنين ومن ثم استشارهم بمن يبدأ فأجابوه: إبدأ بنفسك فرفض وقال لهم: ولا ولكني أضع نفسي حيث وضعها الله وإبدأ بآل بيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهكذا فقد وضع العطاء بحسب القرابة والسابقة والفضل والحاجة، وبدأ بأزواج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثم لعلي (رضي الله عنه) ومن ثم من شهد بدرا من المهاجرين والأنصار ولأبناء البدرين إلا حسنا والحسين (رضي الله عنهم) فرض لهما ما فرض لمن شهد بدرا وكذلك فرض عطاء للمرأة والطفل الرضيع فإذا كبر زاد من عطاءه وفرض عطاء خاصا لكل من شهد القادسية وساوى في العطاء فلحق الموالي بمواليهم ومن هذا يتبين أن عمر فرض العطاء وأراد أن يدون هذا العطاء فدون الديوان وكان ذلك في سنة ٢٠هـ على الأرجح فعين لجنة تتكون من مخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وأمرهما أن يكتبا الناس على منازلهم لما انتهت اللجنة من عملها سجل المعلومات في سجل وكان أول ديوان (سجل) يتوضح من أحد ممن لم يأخذ وهكذا كان ديوان الجند للمقاتلة بأسمائهم وأعطياتهم حتى يتفرغوا للجهاد في سيبل سيادة الإسلام وكذلك رغبة عمر (رضي الله عنه) في جعل أمة العرب أمة عسكرية وإن هؤلاء المقاتلة يأخذون عطاء ليتفرغوا للمهام العسكرية ولا ينشغلوا بأمور حاجتهم أثناء أوقات السلم.

ومما تجدر الإشارة إليه أن عمر (رضي الله عنه) عندما أراد فرض العطاء وجمع الزكاة من المسلمين وجد هناك اختلافا في وزن الدراهم الواردة من العراق وغيره فأمر كذلك أن تتساوى هذه الدراهم بالأوزان، قال:"انظروا

الأغلب مما يتعامل به الناس من أعلاها وأدناها. فجمع بين الأعلى والأدنى وأخذ وسـطها فكان وزن الدرهم الإسلامي وتتفق المصادر على أن عمر (رضي الله عـنه) قد أوضح سياسته المالية في توزيع العطاء أمام صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ففرض العطاء أولا ثم دونه كان الديوان (ديوان الجند) وعلى هذا فقد ساوى عمر كل طبقة في العطاء مع مواليهم. ولكن الأحوال لم تبق فقد تبدل الوضع وخاصة في العصر الأموي واحتياج خلفاء بني أمية للمال أولا للسيطرة علـى الوضـع الداخلـي وثانيا للإنفاق على حاجات دولة متطورة في مجتمع متحضـر فـي الشام وثالثا لتوسع إدارة الدولة وزيادة نفقاتها وهذا ما رأيناه في تدابير معاوية المالية عندما واجهته الأزمة المالية حال مجيئه للخلافة، ويظهر أن سياسـة الدولـة الأموية العربية وتأكيدهم على هذه الناحية استوجبه تعديل على سياسـية الدولـة الراشدة وعليه فهو يعتبر عصرا متمماً للنظام الراشدي وممهدا للنظام العباسي فقد دفعهم أن يهتموا أكثر في الزراعة والحاصلات لحفظ الأطعمة والحبوب من التلف، فقد شيد زياد بن أبيه دارا للرزق في البصرة لخزن الحبوب فـي خلافة معاوية بن أبي سفيان وفي أرض الخزر أسكن مسلمة بن عبد الملك قوما من ربيعة وعشرين ألفا من أهل الشام على العطاء وبنى هريا للطعام وهريا للشعير وخزانة للسلاح.

علـى أن الإصلاحات الداخلية التي تمت في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ) تدلل على سمو روح الإسلام وعظم مبادئه وتوجيهاته وتدل كذلـك على عبقرية هذا الخليفة العظيم، وأنها أعمال لو تمت في العصر الحديث لكانـت مفخرة ومنها أن تعهد الأيتام وكفلهم ورتب لهم المؤدبين ورتب لهؤلاء الأرزاق المنـتظمة كمـا رتب من يقود المبصرين ووضع المجذومين في بيت يرعاهم طبيبا حتى لا يخرجوا إلى الناس بعاهاتهم ورتب لهم الأرزاق وعين لكل مقعـد خادما يهتم بأمره وأجرى لهم الأرزاق. ولما انتقلت الخلافة إلى عمر بن

عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ) كانت الحالة الاقتصادية قد وصلت إلى مستوى يدعو إلـــى الدهشـــة فتؤكد المصادر التاريخية أن الفقر والعوز قد اختفيا في عهد هذا الخليفة الزاهد حتى قيل إن دافع الزكاة لا يجد من يأخذها منه، ويروى أنه عندما جـــيء بصـــدقات أفريقيا وطلب الفقراء لإعطائهم هذه الصدقات لم يجدوا فقيرا، فاشـــتريت بتلك المبالغ رقاب فأعتقت ومن سياسة عمر بن عبد العزيز أنه رفع زرق العـــامل (راتبه) إلى ثلاثمائة دينار ولما سئل لماذا أجاب أردت أن أغنيهم عن الخيانة.



الفصل السادس

التنظيمات الإدارية والعسكرية

الخلافة:

لم يستخلف علي بن أبي طالب أحدا، فانتخب الكوفيون ابنه الحسن لتوفر شروط الخلافة فيه، ثم تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان الذي كان لـــه الأثر الكبير في تطور الخلافة الإسلامية وذلك بإدخاله مبدأ الوراثة سنة ٥٧ هــــ/٦٧٦م في محاولته للحصول على البيعة لابنه يزيد مما أثار سخط العرب وبعض الأمويين لأن ذلك يتنافى مع الإسلام الذي لا يعتبر الخلافة ملكا متوارثا يمكـــن أن يورثهـــا الخليفة لمن يشاء، ويتعارض مع القيم القبلية التي وإن أقرت بقاء السلطة في القبيلة لكنها لا تقر بالوراثة مباشرة من الأب إلى الابن.

وعلى رأي الدوري فإن الدوافع التي دفعت معاوية للأخذ بمبدأ الوراثة هـــي رغبته في تجنب المشكلات التي قد تحصل بعد وفاة كل خليفة، أو معرفته بقوة العصبية على بني أمية ورغبتهم في حفظ الملك فيهم.

تمكـــن معاوية بدبلوماسيته أن يأخذ البيعة لابنه يزيد من الأمصار وهذا يعنـــي أن الخلافـــة ظلت انتخابية نظريا، ولم ينظر إليها البتة على أنها منصب وراثي، لكنها فقدت قيمتها لأن معاوية كانت تسنده القوة وإن تردد في استعمالها صراحة.

وهكذا فإن معاوية قد ابتعد عن فكرة انتخاب الخليفة وأغفل مبدأ الخدمة والسبق في الإسلام وأكد على عامل القوة والنفوذ في الوصول إلى الخلافة وكان نجاح معاوية يمثل ظهور المبادئ القبلية واختفاء المبادئ الإسلامية، ويعلق حسن إبراهيم حسن على تطور البيعة بقوله:"على أنه ينبغي ألا يغرب عن أذهاننا أثر البيـــئة في تطور نظام البيعة، إذ أنه لما كانت المدينة حاضرة الدولة العربية في عهـــد الخلفاء الراشدين، كانت السيادة والنفوذ للعنصر العربي، وقام ذلك النظام الـــذي يـــتفق وطبيعة العرب، فلما أصبحت دمشق حاضرة الدولة العربية، تأثر

العـرب بالبيـئة التي عاشوا فيها وغدا نظام الخلافة أشبه شيء بالنظام الملكي القيصري.

ثـم جددت البيعة ليزيد بعد وفاة معاوية، فأصبح تجدد البيعة عادة يسير عليها الخلفاء وقد شهد العصر الأموي صراعا بين ثلاث مبادئ:

١- مبدأ الوراثة المباشر من الأب إلى الابن.

٢- المبدأ الإسلامي الذي يؤكد على اختيار من تتوفر فيه شروط الخلافة.

٣- المـبدأ القبلـي الذي يقر بسيادة القبيلة ويقبل باختيار أكثرهم قدرة وموهبة وحنكة وأكبرهم سنا.

يمثل الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير المبدأ الإسلامي، ويمثل مروان ابـن الحكـم المـبدأ القبلي، ويمثل خالد بن يزيد مبدأ الوراثة. وقد درست هذه المبادئ في فصول سابقة من هذا الكتاب.

وقـد شهد القسم الثاني من تاريخ الدولة الأموية (عهد الفرع المرواني) صراعا بين المبادئ الثلاث المار ذكرها، فقد ثار العلويون والخوارج والعباسيون باسـم الدين وكان فشل الوليد في تنحية أخيه سليمان صدمة لمبدأ الوراثة وكان عهـد سليمان إلى عمر بن عبد العزيز وعهد يزيد الثاني إلى أخيه هشام ثم إلى ابن الوليد نصرا للمبدأ القبلي، وكان مقتل الوليد الثاني ومجيء يزيد الثالث خطرا للانتصـار المـبدأ القبلي لعداء اليمانية للوليد الثاني ولأن الوليد تحدى المشاعر القبلية بالعهد لابنيه الصغيرين وكان مجيء مروان الثاني للخلافة بسبب مساعدة قيس وتأييدها له إضافة إلى حنكته وقوته نصرا للمبدأ القبلي على مبدأ الوراثة.

إن ترشيح شخص واحد للخلافة في عهد بني سفيان قد حل محله ترشيح اثنين في عهد بني مروان فقد رشح مروان ابنيه ليخلفاه على التعاقب، وهما عبد

الملـــك وعــبد العزيز ولما كان الأخير فقد توفي قبل الأول فقد رشح عبد الملك ولديـــه الوليد وسليمان ورشح سليمان ابن عمه عمر بن عبد العزيز ثم أخاه يزيد بـــن عبد الملك ورشح يزيد أخاه هشام ثم ابنه الوليد ولم يتبع بنو مروان القاعدة القائلة بأن يخلف الابن أباه.

وكـــان حكـــم معاويـــة الثاني فاشلاً إذ لم يكن بمقدوره أن يحكم العرب المســـلمين لصـــغر سنه وقله تجربته ولذا فإن مروان ومن جاء بعده استنوا سنه تعيين شخصين بالغين لتجنب حكم الصغار.

ولما كانت سلطة الخليفة في العهد الأموي تستند إلى قوة القبائل لذا صار الخلـــيفة يراعـــي شـــعور رؤساء القبائل ويتصرف معهم كأنه أحدهم وإن كان أكبرهم وأخذ الخلفاء الأمويين يهتمون بالعادات والعرف والتقاليد القبلية أكثر من اهتمامهم بالمبادئ الإسلامية وكان الحكم عربيا صرفا لاعتزاز بني أمية بأفضلية العرب.

ورغـــم اهتمام الخلفاء الأمويين بالمبادئ والقيم القبلية أكثر من اهتمامهم بالمـــبادئ الإســـلامية فقد كان الخلفاء الأمويون يتمسكون ببعض الأمور الدينية فـــيؤمون الـــناس فـــي الصلاة، ويلقون خطبة الجمعة على المسلمين ويرسلون الجـــيوش للأقطار البعيدة لنشر الإسلام فيها وكان للدين أثره على بعض الخلفاء فقـــد كان معاوية الثاني متدينا وكان عمر بن عبد العزيز رجل دين أكثر مما هو رجل سياسة وجاء يزيد الثالث إلى الحكم باسم الدين.

الولاية:

بلغت الدولة العربية أقصى توسعها في العهد الأموي وكانت مقسمة إلى خمس ولايات كبرى هي:

أ. العـــراقان: العـــراق العربـــي ويشمل بلاد بابل وآشور القديمة والعراق العجمـــي ويشـــمل بلاد فارس وكرمان وسجستان وخراسان وكابل وبلاد السـند ومـــا وراء النهر وبعض أقسام البنجاب وعُمان والبحرين وكان العـــراق وحاضـــرته الكوفة يتولى إدارة العراق العجمي بواسطة عمال يعينهم والي العراق.

ب. مصر.

ج. الحجاز واليمن

د. الجزيرة ويتبعها أرمينية وأذربيجان وبعض أراضي آسيا الصغرى.

ه. أفريقيا الشمالية حتى غربي مصر وبلاد الأندلس وجزر صقلية وسردينيا والبلـــيار ومركـــزه القيروان وأناب والي أُفريقية ولاة من قبله لحكم بلاد الأندلس وجزر البحر المتوسط وطجنه.

حـــرص الخلفـــاء الأمويون في اختيار الولاة من العرب وبلغ اهتمامهم باختيار الولاة أن بعض الولاة كانوا من أفراد البيت المالك، ويعتبر عبد الملك بن مروان المؤسس الحقيقي لنظام الولاية لأنه صبغ النظام الإداري والإدارة المالية بالصبغة العربية.

كانـــت سـلطة الوالـــي كبيرة جدا كما يتبين لنا من سياسة زياد بن أبيه والحجـــاج ابـــن يوســـف ومن سيرة موسى بن نصير. فقد كانت سلطة الحجاج قويـــة جدا في العراق وكان يجتهد في القيام بأمور كثيرة دون مراجعة الخليفة، وسار على خطته ولاة كثيرون منهم خالد بن عبد الله القسري والي العراق، وقد طالـــت مدة حكم بعض الولاة فقد حكم الحجاج في العراق والشرق لمدة عشرين سنة ٧٥-٩٥هـ/٦٩٤-٧١٣م وحكم خالد القسري خمس عشرة سنة ١٠٥-١٢٠ هـ/٧٢٣-٧٣٧م وكانت سلطة بعض الولاة تطغى على الخليفة رغم أن وظيفة

الوالي هي إمامة الناس في الصلاة وقيادة الجيوش الإسلامية في ولايته أو ينيب عنه قادة مناسبين ويعين عمال الولاية ويقمع محاولات التمرد فإن عدداً كبيراً من الولاة قاموا بتجفيف المستنقعات وحفر جداول الري وضربوا النقود وعربوا الدواوين باسم الخليفة ويذكر الكبيسي أن اختيار الولاة في عصر الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ/٧٢٤-٧٤٣م) لم يكن يتم حسب قاعدة معينة وربما كان يتم لمصالح الدولة الاعتبار الأول في اختيار هشام لولاته كما أن استمرارهم في مناصبهم يتوقف فضلا عن رضا الخليفة والناس عنهم إلى حد كبير على حسن تصرفهم.

ويساعد الوالي في إدارة الولاية موظفون يعينهم هو وهم -العامل وصاحب الخراج والكاتب- فأما العامل فهو الذي يتولى موارد الولاية عندما استقرت دعائم الإمبراطورية العربية تماما، وكان رأيه فيما يختص بصالح الخزينة يفضل أحيانا على رأي الأمير.

وصاحب الخراج هو الموظف الذي يختص بجمع ضريبة الأرض عندما صار الخراج مورداً من موارد بيت مال المسلمين وهو يدير دخل الولاة وكانت إدارة الدخل منفصلة عن الشؤون التنفيذية منذ السنوات الأولى للعصر الأموي، فصاحب الخراج كان يتولى جمع وتوزيع دخل الولاية، فهو يجبي الخراج والزكاة والجزية والضريبة من الأمراء والإقطاعيين وتصريف جميع تكاليف الولاية من الرواتب والعطاءات وبقية الشؤون العامة وكان الخليفة بعض الأحيان هو الذي يعين صاحب الخراج ويجعله مستقلا عن الوالي وربما عزل بعض الولاة لعدم رضا صاحب الخراج عنهم.

وأما الكاتب فكان رئيسا لديوان الوالي والمخفف عن الوالي قدرا كبيرا من العمل، وبعد أن توسعت الدولة العربية تعقدت الأمور الإدارية أصبح الوالي

مضطرا أن يعين عدة كتاب لمساعدته ومن الشروط الواجب توافرها في الكاتب أن يكون حسنا ويتمتع بعدة خصال منها بعد الغور وحسن المداراة وأحكام للعمل ولا يؤخر عمل اليوم إلى الغد والنصحة لصاحبه.

يتقاضى الوالي خمسة وعشرين ألف درهم شهريا ويتقاضى رؤساء الكتاب ثلاثة مائة درهم شهريا، أما صغارهم فيأخذون ثلاثين درهماً شهرياً وقد رفع زياد بن أبيه رواتب رؤساء الكتاب إلى ألف درهم شهريا وجعل راتب صاحب بيت المال ألف درهم شهريا ورغم سلطات الوالي الواسعة والثقة العالية التي أولاها له الخلفاء الأمويون فإن الخلفاء جعلوا من واجبات عمل البريد مراقبة سير الولاة والعمال في الأقاليم العربية والإسلامية وإحاطة الخليفة علما بما يبدر منهم من أعمال حسنه أو سيئة.

القضاء:

لم تكن مكانة القاضي في العهد الأموي بالجودة التي كانت عليها في عهد الخلفاء الراشدين إذ كان لابد من التضحية بأمور كثيرة تحد من استقلالهم ومقامهم لإرضاء نزوات الولاة والعمال.

ولكن ظل معظم القضاة مستقلين غير متحيزين في مسائل النزاع الخاصة بالعامة وحدهم وكان للقاضي قدر من الحرية في الفصل في القضايا لعدم تعين قواعد الشريعة إذ ذاك أو أن القاضي يكتب للخليفة ليستوضح منه قضية ما في الشريعة.

وقد بين عمر بن عبد العزيز مستلزمات القاضي وهي أن يكون رجلا عفيفا مجتهدا سليما من العيوب تقيا عالما لا تأخذه في الله لومه لائم. قال عمر ابن عبد العزيز: "إذا كان في القاضي خمس خصال فقد كمل علم بما كان قبله، ونزاهة عن طمع، وحلم عن خصم، واقتداء الأئمة، ومشاركة أهل العلم والرأي".

واكتسب منصب القاضي في عصر عمر بن عبد العزيز مكانة مرموقة في الدولة الأموية وجاء في كتاب وجهه عمر بن عبد العزيز إلى عقبة بن زرعة عاملة على الخراج في خراسان:"أن للسلطان أركان لا يثبت إلا بهما فالوالي ركن والقاضي ركن وصاحب بيت المال ركن والركن الرابع أنا.

ولأهمية مكانة القاضي في الدولة كان عمر بن عبد العزيز يهتم في اختيار القضاة حتى كتب إلى عامل البصرة:"أن أجمع إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعه فول القضاء أنفذهما وافقههما".

وكان قاضيه على مدينة الرسول أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم من خيرة القضاة علما ودراية في الحكم، حتى أن مالك وصفه بأنه لم يكن أحد بالمدينة عنده من علم القضاء ما كان عند أبي بكر بن حزم.

وعندما ولّيَ عمر بن عبد العزيز ميمون بن مهران على قضاء الجزيرة وعلى خراجها كتب إليه ميمون:"كلفتني ما لا أطيق أقضي بين الناس وأنا شيخ كبير، ضعيف، رقيق" فكتب إليه عمر بن عبد العزيز"أن أجلب من الخراج الطيب واقضِ ما استبان لك، فإذا التبس عليك أمر فأرفعه إلي فإن الناس لو كانوا إذا كبر عليهم أمر تركوه ما قام دين ولا دنيا" وقد أشار فلها وزن إلى ارتقاء مكانة القاضي في عهد عمر بن عبد العزيز فقال "إن منصب القاضي قد أصبح على عهد عمر أكثر استقلالا وأكبر شأنا مما كان".

ومع أهمية منصب القاضي في الدولة الأموية فقد كان تعيين قضاة الولايات من صلاحيات الولاة فهم الذين يختارون القضاة يولونهم. أما دمشق فكان الخليفة يختار لها قاضيا.

لم تكن المذاهب الفقهية قد تبلورت في الدولة الأموية فكان المجال مفتوحا أمام القضاة لإصدار أحكامهم وفق المعايير الإسلامية فكانوا يصدرون

الأحكـــام بحسب رأيهم مستندين إلى العادات العملية المشتملة بطبيعة الحال على قواعـــد إدارية مراعين نص (التشريع) القرآني وروحه وكذلك المقاييس الدينية الإسلامية المعترف بها.

وطـــيلة العهدين الراشدي والأموي كان لكل من الخليفة والولاة والقضاة حـــق القضــــاء والحكم بين الناس ولكن الخلفاء والولاة كانوا ينظرون غالبا فيما يـــتعلق بالشؤون الإدارية والقانون العام، أما القضاة فكانوا ينظرون في القضايا المـــتعلقة بـــالأحوال الشخصـــية من مواريث وزواج وطلاق أو شؤون اليتامى والأرامل أو المعاملات في الأسواق.

وظـــل القضاء محتفظا بمكانته وخطورته حتى أواخر الدولة الأموية فقد جـــاء فـــي كتاب كتبه عبد الحميد بن يحيى الكاتب عن الخليفة مروان بن محمد لبعض ولاته:"فاعلم أن القضاء من الله بمكان ليس به شيء من الأحكام ولا يمثل محلـــه أحد من الولاة لما يجري على يديه من مغاليظ الأحكام ومجاري الحدود فليكن من توليه القضاء في عسكرك من ذوي الخير في القناعة والعفاف والنزاهة والفهم والوقار والعصمة والورع".

وللقاضي كتاب يساعدونه في أمور كثيرة، وقد أساء بعض هؤلاء الكتاب الســـيرة فقـــد كانوا لا يكتبون إلا برشوة ويذكر أن كتاب قاضي مصر يحيى بن مـــيمون كانوا لا يكتبون قضية إلا برشوة فحكم يحيى في ذلك فلم ينكره ثم كلم مـــرة بعـــد مرة فلم يعزل منهم أحداً من كتابه، وشكا يتيم وصيه إلى يحيى بن ميمون فلم ينصفه منه وشهد له جماعة من قومه أنه مظلوم فلم يستمع يحيى إليه فتمثل اليتيم بأبيات شعر منها:

حكمت بالباطل لم تأت حقا   ولم يسمع بحكم مثل ذاكا

فلمـــا بلغ الشاعر يحيى سجن اليتيم فرفع أمره إلى هشام فعظم ذلك عليه وكتب بصـــرفه، وذكر هشام في كتابه إلى والي مصر الوليد بن رفاعة أصرف يحيى عمـــا يتولاه من القضاء مذموما مدحورا وتخير لقضاء جندك رجلا عفيفا ورعا تقيا فعزله.

وتوســع الأمويــون في إفاضة الأموال على القضاة فكان قاضي مصر ابـــن حجـــير الأكبر يأخذ ألف دينار في السنة وكان شريح يرزق على القضاء خمس مائة درهم شهريا وكان رزق اياس بن معاوية قاضي البصرة مائة درهم، وكـــان قاضـــي الفسطاط يأخذ في زمن معاوية سنويا ثلاث مائة دينار في زمن مـــروان بـــن محمـــد ٢٤٠ دينار وفي زمن المهدي الخليفة العباسي ثلاث مائة وستون دينارا.

أمـــا القضاة في الأندلس فكانوا يسمون قضاة الجند وذلك لأن العرب في فـــترة الولاة كانوا جندا ولهذا فقد كان القاضي قاضيهم فلما قامت الدولة الأموية واجتمع الناس حولها وكان الإسلام قد انتشر تغير اسم القاضي من قاضي الجند إلى قاضي الجماعة.

ويبدو أن تحقيق تولية القاضي في الأندلس لم تتقرر على وجه محدد في فـــترة الـــولاة، فقـــد كان عامل الأندلس يولي القاضي أحيانا كما ولى عقبة بن الحجـــاج الســـلولي القاضي مهدي بن مسلم وهو أول قاضي في تاريخ الأندلس ويبدو أن العامل كان يقوم بالقضاء بين الجند بنفسه قبل ذلك.

الجيش:

جـــاء الإســـلام بمبادئ إنسانية تهدف إلى القضاء على واقع فاسد وبناء دعـــائم مجـــتمع إنساني جديد وقد حاول بعض العرب إيقاف هذا التيار الإنساني الواسع بالقضاء على الدعوة الإسلامية فكان لابد للرسول (صلى الله عليه وسلم)

وللمسلمين من أن يدافعوا عن دينهم ومبادئهم فحدث الصدام الفكري والحربي بين العرب والمسلمين وبين أعداء الإسلام وهكذا تكونت أول نواة للجيش في الإسلام فقد أصبح العرب المسلمون الأوائل جميعا جنودا يقودهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) ليدافعوا عن دينهم ثم تشكلت الطلائع الأولى للجيش من المهاجرين والأنصار وازداد عدد المقاتلين فكانوا في معركة بدر أكثر من ثلاثة مائة وارتفع عددهم حوالي سبع مائة مقاتل ثم أزداد العدد فيما بعد عندما أخذت القبائل العربية تدخل الإسلام أفواجا وجماعات.

وفي العصر الراشدي انضمت إلى الجيش العربي الإسلامي قبائل عربية من اليمامة ونجد واليمن والحجاز وأصبح الخليفة هو القائد الأعلى للجيش واهتم الخلفاء الراشدون بتوسيع الثكنات والمعسكرات لخزن الأرزاق والأطعمة وبناء الإسطبلات وكانت هذه المعسكرات جيدة التهوية وفسيحة وفي أماكن صحية معروفة والحق بكل جيش عدد من الأطباء والجراحين خاصين به

وفي بداية تحرير العراق والشام ومصر وفلسطين استقر العرب في هذه البلدان ومارسوا الزراعة وامتلكوا البيوت والضياع ففترت عندهم روح الحرب وانصرفوا عن الجيش ففطن عمر إلى ذلك فمنعهم من الاستقرار في المدن والانصراف إلى الجهاد وضمن لهم مرتباتهم وأرزاقهم وأرزاق أوائلهم.

وكان أقل راتب للجندي في عهد عمر هو ٢٠٠ درهم في السنة ثم زاد إلى ٣٠٠ درهم، ونال الضباط رواتب ٧٠٠ إلى ١٠٠٠ درهم في السنة وخصص إلى جانب هذا الراتب لزوجة كل جندي وطفله عطاء من الدولة بالإضافة إلى ذلك فقد خصص لكل جندي الملبس والنعال وأمور أخرى ووزعت بين الجند أربعة أخماس الغنائم من الثروات الهائلة التي كانت تؤخذ من العراق والشام ومصر.

وزادت رواتب الجند في عهد معاوية إلى (١٠٠٠) درهم سنويا للشخص بمـا فـي ذلـك عطـاء أسرته، وفي سنة ٧٤هـ/٦٩٣م كان في العراق وحدة ٦٠,٠٠٠ مـن أصـحاب العطاء بلغت رواتبهم وعطاء أسرهم ٦٠ مليون درهم سـنويا وبالإضـافة إلى ذلك فقد كان الجند يقبضون مبالغ إضافية بسبب قيامهم بمهمات خاصة.

وكـان عمـر أول من جعل الجندية مهنة مخصوصة وأنشأ ديوان الجند ليـنظم أجور الجند وتقييد أسماءهم وأسماء قبائلهم ورتبهم ومقدار مرتباتهم وبعد أن اتسـعت حركة التحرير والفتح الإسلامي تطور الجيش في التنظيم إذ دخلت علـيه الكثـير مـن أساليب التنظيم وفنون التدريب من خبرات البلاد المفتوحة، فأصـبح لكل فرقة قائد، وتطورت طبيعة المعارك فبعد أن كان العربي يحارب العربـي مـن غـير المسلمين صار العربي يحارب أقواما مختلفة تمتلك جيوشا ضخمة مدربة ومنظمة ولها أساليبها القتالية الراقية في الشام والعراق.

وحرص عمر بن الخطاب أن يجنب الجيش مما قد يصيبه من انحرافات أخلاقية نتيجة لغياب الجند فترة طويلة عن عوائلهم وذلك بإيجاده لنظام الإجازات الدوريـة حيث لا يبتعد الجندي أكثر من أربعة أشهر عن أسرته فيما عدا حالات الطوارئ غير العادية.

واهتم الأمويون بالجيش وتطويره وتدريبه، وأصبحت عملية إعداد الجند وتهيـئة المقاتلين تأخذ الحيز الأكبر من سياسة الدولة الأموية وقد أولى الخليفة معاويـة بـن أبي سفيان هذه العملية اهتماما خاصا وقد أعانته قابليته السياسية والإداريـة والخـبرة التي اكتسبها خلال توليه الشام في خلافة عمر وعثمان في اختيار الولاة الأكفاء لإدارة الأمصار الإسلامية كعمرو بن العاص وزياد بن أبيه والمغيرة بن شعبة ولغرض كسب رجال القبائل العربية الذين هم العمود الفقري

للجيش فقد استخدم مقدرته الكبيرة في فهم عقليات هؤلاء الرجال ثم نفذ من خلال ذلـــك وبمـــا ملكه من مال إلى التحكم فيهم والسيطرة عليهم، فأغراهم بالأموال والمناصب وقرب رؤساءهم سواء من القبائل اليمنية أو القيسية واستطاع أن يجند مـــنهم أعـــداداً كبيرة في الحملات البرية والبحرية وقد أظهرت هذه السياسة أن عملـــية تجنيد المقاتلين ترتبط ارتباطا وثيقا بقوة الولاة وكفاءة تدابيرهم الإدارية والعسكرية.

وعـــندما تولى المغيرة بن شعبة الكوفة سنة ٤١هـ/٦٦١م ورأى تهاون الناس مع الخوارج وتثاقلهم في الخروج جهز جيشا قوامه ثلاثة آلاف رجل وأمر أن يعلـــن فـــي الكوفة بأن كل من وجد من أفراد هذا الجيش في المدينة بعد يوم واحد تعرض لأشد العقوبة.

ويمكن اعتبار ولاية زياد بن أبيه على البصرة سنة ٤٥هـ/٦٦٥م البداية الحقيقة لتشديد في النفير ومعاقبة المتخلفين، لأن سياسته قائمة على الحزم وعدم التهاون مع المخالفين لم تدع أحدا من الجند يجرؤ على الإخلال بمكانه أو الهرب من الجيش لأن ذلك كان يعرضه لأشد العقوبات وقد أظهرت خطبته التي استهل بها ولايته على البصرة مدى تصميميه على تنفيذ ذلك ويبدو أنه نجح فيما صمم عليه وفي ذلك يقول الطبري:" وكان زياد أول من شد أمر السلطان ، وأكد الملك لمعاوية، وألزم الناس الطاعة وتقدم في العقوبة وجرد السيف وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة وخافه الناس في سلطانه خوفا شديدا وكان من نتيجة هذه السياسة أن ازداد عـــدد المقاتلة في البصرة حين قدم زياد أربعين ألفا فأصبح عددهم ثمانين ألفا.

وقد شعر زياد بن أبيه أنه لا يمكنه السيطرة على الجند وليس باستطاعته تهيـــئة قـــوات كبـــيرة قادرة على إنجاز مهام القتال إلا بإعادة تنظيم القبائل في

البصرة والكوفة ليضمن السيطرة عليها من الناحية العسكرية فقسم قبائل البصرة إلــى أخمــاس على كل خمس رجلاً وقسم قبائل الكوفة إلى أرباع بعد أن كانت مقسمة إلى أسباع.

وبالــرغم مــن اضطراب الحياة السياسية في العراق بعد وفاة يزيد بن معاوية واستفحال حركة ابن الزبير في الحجاز والعراق وما تركته من آثار سيئة على عملية تجنيد المقاتلين إلا أن مجيء الخليفة عبد الملك بن مروان الذي شهد عهــده تطورا كبيرا في مؤسسات الدولة الأموية، قد أعاد للتجنيد فاعليته وقوته فعندما سار عبد الملك إلى العراق لقتال مصعب بن الزبير كان بعض جند الشام يتهاونون في المسير ويتخلفون عن اللحاق بالجيش فأمر عبد الملك، الحجاج بن يوســف وكان على ساقة الجيش باستنفار من تخلف من الجند وفي سنة ٧٢هــ/ ٦٩١م كتــب الخلــيفة عبد الملك إلى أمير العراق بشر بن مروان يأمره بإعداد الجــند وتجهيز حملة من خمسة آلاف رجل لمقاتلة الخوارج وأمره أن يصرفهم إلــى الــري بعــد انتهائهم من الخوارج ليكونوا كمسالح لجباية الخراج ومن ثم يستبدلهم بآخرين مكانهم".

وفي سنة ٧٣هــ/٦٩٢م أوعز عبد الملك إلى قائده عمر بن عبيد الله بن معمــر أن يجند من الكوفة والبصرة من أراد الخروج للجهاد فانتدب معه عشرة آلاف من الكوفة وعشرة آلاف من البصرة وعين المهلب بن أبي صفرة سنة ٧٤ هــ/٦٩٣م لقتال الخوارج فكان الجند يتهربون من القتال والاشتراك في الحملات والــبعوث رغم تهديدات والي البصرة بشر بن مروان بعقاب المخالفين حتى إذا تولى الحجاج العراق سنة ٧٥هــ/٦٩٤م أعاد تنظيم ديوان الجند والعطاء وأنذر المتخلفين من الجند بالتعرض للعقوبة الشديدة التي قد تصل إلى حد الإعدام، فقد أعلــن في خطبته عند قدومه الكوفة واليا عليها أنه من وجد في الكوفة من جند المهلب بعد ثلاثة أيام ضربت عنقه، ثم دعا عرفاء الجند وطلب منهم إلحاق الجند

بالمهلب واستلام البراءات منه موافاتهم وهددهم بضرب أعناقهم إن تباطأوا في تنفيذ الأمر وقد نفذ الحجاج وعيده بإعدام المخالفين عندما ضرب عنق أحد زعماء القبائل ويدعى عميرة بن ضابئ الذي طلب أن يحل ابنه بدلا عنه فجعله عبره لغيره.

لقد قام الحجاج بتطبيق الإجراءات الصارمة بحق المتخلفين من الجند بصورة أكثر جدية واستخدام القوة والبطش لتحقيق ذلك، وقد شملت هذه الإجراءات أصحاب الديوان ومن أهل العطاء الذين كانوا ملزمين بالقتال عندما تدعوا الضرورة إلى ذلك.

ويمكن اعتبار هذه الإجراءات التي اتخذها زياد والحجاج البدايات الأولى للتجنيد الإلزامي في الجيش الأموي لأن الظروف السياسية والعسكرية كانت تفرض اتخاذ مثل هذه الإجراءات كحركات الخوارج واستمرار المعارك في الأقاليم الشرقية حيث كانت تتطلب تجنيد أعداداً كبيرة من المقاتلين.

وقد أثمرت هذه الإجراءات فقد استطاع الحجاج في سنة ٧٧هـ/٦٩٦م أن يجند لقتال الخوارج من الكوفة وحدها خمسين ألف مقاتل وبلغت عدة الجيش الذي كان تحت قيادة قتيبة بن مسلم في خراسان حوالي أربعة وخمسين ألف مقاتل، كما استطاع الحجاج في سنة ٨١هـ/٧٠٠م أن يجهز جيشا قوامه أربعون ألف مقاتل من مقاتلة البصرة والكوفة وسيره إلى سجستان لقتال الترك بقيادة عبد الرحمن بن الأشعث وجهز الجند بكل ما يحتاجونه من السلاح والعدة الكاملة وزودهم بالخيول الروائع حتى سمي الجيش بجيش الطواويس لحسن هيئتهم.

وفي جبهة أرمينية وأذربيجان كانت عملية إعداد المقاتلين تهدف إلى إيجاد مقاتلين أشداء بالنظر لوعورة المنطقة وبعدها عن مقر الخلافة مما يشكل صعوبة في إيصال الإمدادات إليها عند الضرورة وقد اتخذت الإجراءات

لاصطحاب المقاتلين لنسائهم وأولادهم في الحروب، وكان الهدف من ذلك مضاعفة قوة المقاتلين العرب وجلدهم في المعارك ويرتبط قتالهم بالدفاع عن أولادهم ونسائهم إضافة إلى استقرار بعض هؤلاء المقاتلة في المدن المحررة.

وبالنظر إلى أهمية مدينة باب الأبواب وموقعها الإستراتيجي في جبهة أرمينية وحاجتها إلى المقاتلين القادرين على الدفاع عنها وإيقاف هجمات البيزنطيين، قرر الأمير مسلمة بن عبد الملك وضح حامية من أربعة وعشرين ألف مقاتل من أهل الشام وجعلهم فرقا كانوا كأجناد الشام جند دمشق وجند حمص وجند فلسطين والقسم الأخير لما تبقى من جند الشام والجزيرة.

أما في بلاد الشام مقر الخلافة الأموية فإن نظام الأجناد فيها يقدم أوضح الأمثلة على عملية إعداد الجند وتطبيق قواعد التجنيد في الدولة الأموية، فالأجناد أقاليم استقرت فيها فرق الجيش العربي الإسلامي حمايتها وقبض أعطياتهم فيها وهي امتداد للتقسيم البيزنطي الذي وجده العرب قائما في الشام بعد تحريرها والذي يسمى بنظام البنود وهي تضم المحاربين المقيمين في كل إقليم ويكفل خراج الإقليم أرزاق وأعطيات جنوده.

كانت الأجناد في بلاد الشام تتألف من جند دمشق وجند الأردن وجند فلسطين وجند حمص أما جند قنسرين فكانت مضمومة إلى حمص حتى خلافة يزيد بن معاوية فجعلها جندا بعد أن أضاف إليها إنطاكية ومنبج، فأصبحت الأجناد العربية في بلاد الشام خمسة أجناد جمعت فيها القبائل العربية حيث أصبح من الممكن توجيه مقاتلة هذه القبائل في حملات فصلية أو حملات ذات أمد طويل.

لقد اعتمد الأمويون اعتمادا كبيرا على هذه الأجناد في إعداد المقاتلين وتهيئة الحملات الفصلية (الصوائف والشواني).

التي أصبح تنظيمها وتهيئتها يتم بإشراف الخليفة الأموي نفسه وتقوم بها الفرق الشامية والجزرية التي كانت تشترك في هذه الحملات وتتبادل الخدمة في القتال البري والبحري وذلك لتلافي الخلاف الذي قد يحدث بسبب ذلك وللحفاظ على التوازن بين القبائل وقد ساهمت هذه الأجناد في استكمال تحرير مصر وكانت قاعدة لإمداد القوات المصرية فقد كتب أحد قواد الأمويين إلى معاوية يشكو قلة الجند الذين معه في الإسكندرية ويطلب منه المدد فأجابه معاوية "إني قد أمددتك بعبد الله بن مطيع في أربعة آلاف من أهل المدينة وأمرت معن بن زيد السلمي أن يكون بالرملة في أربعة آلاف ممسكين بأعنة خيولهم حتى يبلغهم عنك فذع يعبروا إليكم".

وبالنظر لتأييد القبائل العربية في الشام للأمويين وتفضيل هؤلاء لهم في العطاء فقد نجح الأمويون في الاعتماد على جند الشام وتوجيههم للقضاء على الحركات والفتن التي كان تهدد الخلافة الأموية ففي الوقت الذي فشل فيه الحجاج لمرات عديدة في القضاء على حركة الشيباني الخارجي كان لجند الشام الذين أرسلهم الخليفة عبد الملك بقيادة سفيان بن الأبرد الكلبي وحبيب بن عبد الرحمن الحكمي دور كبير في القضاء على هذه الحركة كما كان لهؤلاء الجند ومهارة قائدهم سفيان بن الأبرد الفضل في انتصار الحجاج على حركة ابن الأشعث سنة ٨٣هـ/٧٠٢م.

وقد اصبح التجنيد الإلزامي في عهد هشام بن عبد الملك من ضمن التنظيمات العسكرية للجيش الأموي فلم يكن يسمح لأحد بالتخلف عن الجهاد وحروب التحرير واشترط على كل من يأخذ العطاء من أصحاب الديوان أن يخرج إلى الجهاد أو يخرج عنه بديلا، ويظهر أن هذا الشرط كان في عهد الخليفة هشام ساريا حتى على أعضاء البيت الأموي ولم يستثن الخليفة نفسه من ذلك فقد كان يعقوب مولى الخليفة هشام يأخذ عطاء هشام ويخرج بدلا عنه.

ومما يدل على الجدية في تطبيق هذا الشرط في عهد هشام أن أحدا لم يجرؤ على التخلف أو التهرب في الخروج للجهاد إلا إذا تولى بعض الأعمال التي تعفيه من ذلك كالاشتغال ببعض أعمال الديوان.

ولما حج الخليفة هشام سنة ١٠٦هـ/٧٢٤م أمر بأن يفرض على أهل المدينة بعث أربعة آلاف فسمي ذلك العام عام الأربعة آلاف. وكان واجب هؤلاء الجند الذين فرض عليهم البعث الخروج والمرابطة في سواحل الشام طيلة غياب الجند في حملات الصوائف ولما كتب هشام يطلب منه الإمدادات جهز له عشرة آلاف من جند البصرة وعشرة آلاف من جند الكوفة وجهزه بالسلاح الكثير ومنحه صلاحية تجنيد ما لا يزيد عن خمسة عشر ألف مقاتل.

وفي سنة ١٢٦هـ/٧٤٣م تمكن مروان بن محمد في خلافة يزيد الثالث أن يضم إلى عسكره أعداداً كبيرة من جند الشام والجزيرة ممن حاولوا بعد مقتل الوليد بن يزيد الهروب من أجنادهم والعبث بالنظام ونهب القرى فضبطهم ثم أمرهم باللحاق بأجنادهم وفي الوقت نفسه استطاع أن يجند من أهل الجزيرة أكثر من عشرين ألف رجل.

أما بالنسبة لتجنيد المقاتلين في المغرب والأندلس فلم يكن إلزاميا أو خاضعا لإجراءات أو قواعد صارمة كما هو الحال في الأقاليم الشرقية وإنما كان طوعيا واختياريا بسبب تمسك البربر بالإسلام وحماسهم للجهاد.

لقد حقق نظام التجنيد للدولة العربية الأعداد الكبيرة من المقاتلين وإذا ما استعرضنا جبهات القتال وساحات العمليات الحربية التي خاضتها الجيوش العربية الإسلامية خلال العصر الأموي-والتي ذكرنها سابقا- والتي شملت الجبهة الشرقية وجبهة المغرب والأندلس والجبهة الشمالية، أمكننا أن نتصور الأعداد الهائلة من الجنود التي كانت تطلبها الجبهات ولهذا دأبت المؤسسة

العسكرية للدولة العربية المتمثلة بدواوين الجند لتهيئة الأعداد الكبيرة من المقاتلين من أصحاب الديوان إضافة إلى المتطوعين.

وكان الأمويون يختارون قواد جيوشهم من ذوي المكانة في العشائر والمقدرة العسكرية فقد اختار زياد بن أبيه بن الربيع بن محمد اليشكري والحكم بن عمرو الغفاري وأما الرتب العسكرية فهي كما يلي:

١- أمير عشرة: وهو مسؤول عن عشرة جنود ويسمى عريف.

٢- قائد: وهو مسؤول عن كل عشرة أمراء عشر .

٣- أمير: وهو المسؤول عن كل عشرة قادة.

وهناك موظفون مدنيون مرتبطون بالجيش وهو الصراف والخازن والقاضي والمترجم والواعظ وقد استحدث زياد وظيفة المنكب وهي غامضة اختلفت فيها المصادر فبعضها تقول أن المنكب هو رئيس العرفاء وبعضها تقول أنه أقل منه رتبه وذلك استحدث وظيفة النقيب حيث يذكر البعض أنها أعلى من وظيفة العريف والبعض يذكر أنها أدنى.

أما بالنسبة لتسليح الجيش، فقد حرص العرب على تسليح الجيش بمختلف أنواع الأسلحة والمؤن وكان الجيش يتكون من الرجالة الذين يتسلحون بالدروع والحراب والأقواس والسهام، وكان الرماة من أهم عناصر الرجالة في الجيش وهم يقفون في صفوف متراصة يتقدمهم حاملو الرماح لصد هجمات الفرسان ويرتدون أقبية قصيرة متدلية إلى تحت الركبة، وأما الفرسان فيلبسون الدروع والخوذ المصنوعة من الصلب المزينة بريش النسور وفي العصر الأموي استخدم المشاة رماحا طول كل منها ٨ قدم وأُقواسا وسهاما في جعب ومزاريق وسيوفا ذات حدين وصوالجة ذات عقدة حديدية حادة وفؤوس الحرب ودرعا طويلة تغطي الجسم وأخرى صغيرة مستديرة أيضا لها عقدة في الوسط ولبسوا

الخـــوذ وقمصانا من الزرد لحماية الجسم، وكانت أيديهم وأرجلهم مغطاة بالحديد وتســـلح المقاتلـــة بالدبابيس لاستخدامها عند الالتحام وأحيانا استخدمت مفاتيح، وتســـليح الخـــيالة بالرماح والأقواس والسهام وسيوف طويلة وعريضة مستقيمة يحمـــي الخـــيول علـــى الصدر والجبارة ألواح حديدية ومن أسلحتهم لدك المدن المحصـــنة الدبابة مثل الدبابة التي استعملها موسى بن نصير لدك حصون مدينة ماردة الأندلسية.

وكانت التعبئة العسكرية تختلف من عصر إلى عصر، ففي عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان المسلمون يقفون للقتال صفوفا كما يفعلون في الصلاة ثم يسيرون لمواجهة العدو متكاتفين متضامنين لا يتقدم أحد منهم الصف أو يتأخر عـــنه وتغير الحال في العصر الأموي فقد ترك نظم الخط المستقيم وقسم الجيش إلـــى كتائب تكون الأولى في الوسط (قلب الجيش) بأمر القائد العام وواحدة على يمينها وتسمى الميمنة وأخرى على يسارها وتسمى الميسرة ثم كتيبة من الفرسان تكون أمام القلب وتسمى المقدمة وكتيبة خاصة في خلف القلب وتسمى الساقة.

تسير الطليعة في مقدمة الجيش تتجسس الطريق وتتفحصه ثم يتبعهم إلى مســـافة كبـــيرة إلى الوراء الجيش في ترتيبه الحربي فالمقدمة تسير إلى الأمام يتـــبعها القلب والجناحان ثم تسير المسافة المتاع والآلات الحصار وكان الجندي العربي يصحب عائلته وقطعاته وماشيته وكان الجند يكبرون ويتلون آيات القرآن فـــي أثـــناء ســـيرهم للمعارك كما كانوا يدقون الطبول ويقرعون الصنوج لبث الحمـــاس في نفوسهم وقد امتاز الجندي العربي بالنشاط والخفة وسرعة الحركة والمثابرة والصبر والحماس وبذل النفس ونصرة الدين.

وعنـــيَ الأمويـــون بتنظـــيم الأرزاق (وهو ما يعطى للمقاتل وعياله من المـــواد العينية شهريا إضافة إلى عطائه السنوي) فأنشأ زياد بن أبيه دار الرزق

فـــي الطرف الشرقي من مدينة البصرة حيث كانت تخزن فيها الحبوب لتوزيعها علـــى الـــناس وكان توزيع الأرزاق يجري شهريا وغالبا ما يكون ذلك في شهر رمضـــان حيث يَتمَوَّن الناس استعداداً للصيام وغالبا ما يذكر البلاذري:"أن زياد كان إذا أهل هلال المحرم أخرج للمقاتلة أعطياتهم وإذا رأى هلال شهر رمضان أخرج للذرية أرزاقهم".

لقد كانت الحنطة هي المادة الرئيسية التي يعتمد عليها الناس في حياتهم المعيشية لذلك كانت الأرزاق توزع من الحنطة غالبا إضافة إلى المواد الأخرى كالسمن والتمر.

وفـــي سنة ٩٨هـــ/٧١٦م احتل يزيد من المهلب دهستان والبحيرة التي كـــان يتحصـــن بهـــا الترك فطالبه الجند بالأرزاق وكانت البحيرة منطقة تموين للأعداء وفيها أعدادا كبيرة من ظروف وأكياس مملوءة بالقمح والشعير والسمسم والعســـل ولصـــعوبة إحصاء وحصر ما هي هذه الأكياس والظروف من المواد اقترح أحد أصحاب يزيد أن يعلم على كل كيس أو ظرف ما فيه من مواد ويدعو الجـــند لـــيأخذ كل منهم ما يريد ويثبت ما أخذ كل رجل من هذه الأكياس فأخذوا شيئاً كثيراً وفي خلافة هشام بن عبد الملك فتح الأمير مسلمة بن عبد الملك باب الأبواب في أرمينية وبنى فيها مخازن للحبوب (الحنطة والشعير) وبالنظر لكثرة إنتاج القمح في تلك المناطق فقد أصبحت مدينة الباب مركزا لخزن الحبوب.

فبعد أن تولى مروان بن محمد ثغر أرمينية في خلافة هشام وفتح كثيراً مـــن مدنهـــا فرض على أهالي تلك المدن كميات كبيرة من الحنطة وجعلها في أهـــراء مديـــنة الـــباب لتأميـــن أرزاق الجـــند وبسبب غنى الأقطار الإسلامية بالمنتوجات الزراعية وخاصة الحنطة والشعير وتوفر هذه المادة الحيوية فلم تنشأ للدولـــة أي مشكلة في توزيع الأرزاق إضافة إلى ما يحصل عليه المقاتلون من

غنائم البلاد المفتوحة وإمكانهم شراء المواد الغذائية من عطائهم أو من أسهم غنائمهم.

الشرطة:

أصبح لصاحب الشرطة في العصر الأموي اختصاص أكبر من القاضي فقد كان يستطيع أن يتصرف معتمدا على التقارير التي يقدمها إليه الضباط الذين يعملون من تحت إمرته دون انتظار شكوى يقدمها إليه المعتدى عليه وهكذا عكس القاضي وكذلك كان في استطاعته أن يحبس شخصا مشتبها في أمره وأن يعذبه حتى يكرهه على الاعتراف على الرغم من أن الفقه الإسلامي يعتبر الاعتراف كرها باطلا، وكذلك باستطاعة صاحب الشرطة سماع شهادة أهل الذمة وغيرهم من الأشخاص الذي لا تصح شهادتهم في مجالس القاضي وقد ساءت سمعة من شغل منصب صاحب الشرطة لاشتهار الشرطة بالقسوة.

وحظيت الشرطة باهتمام الأمويين ففي البصرة مثلا عهد زياد إلى الشرطة تنفيذ أوامر الأمير ومطاردة قطاع الطرق والأشقياء والمتمردين واللصوص كما كانوا يحفظون الأمن في البصرة ضد هجمات الخوارج على المدينة، غير أن عملهم كان محصورا في المدينة ولم يذكر اشتراكهم في الحملات العسكرية أو في الفتح، ويختلف تنظيم الشرطة عن تنظيم المقاتلة وكان عددهم في عهد زياد أربعة آلاف، ويظهر من أسماء الشرطة أنهم من قبائل مختلفة.

وقد نجحت شرطة زياد في تحقيق النظام والأمن في سائر أنحاء البصرة، واستظل الناس في حكمه في أمن وسلام حتى أنه كان يسقط من الرجل والمرأة الشيء فلا يأخذه أحد حتى يعود صاحبه فيأخذه بعد أن كان الناس لا

يأمـــنون فـــي بـــيوتهم وأصبحت المرأة تبات ولا تغلق عليها بابها بعد أن كانت تستغيث من الاعتداءات فلا تغاث.

ويسمى رئيس الشرطة في الولاة (صاحب الشرطة) وقد يكون أكثر من صـــاحب شـــرطة في المدينة الواحدة ففي البصرة مثلا كان صاحب الشرطة أيام زيـــاد يســـيران بيـــن يديه بحربتين وكان زياد يحرص على أن يكون صاحب الشرطة شديد الصولة قليل الغلبة.

وكـــان تعيين صاحب الشرطة مرهوناً بالوالي فهو المسؤول عن تعينه ولم يتدخل الخلفاء في تعيين صاحب الشرطة إلا في حالات قليلة ويذكر البلاذري أن خـــالدا القســـري والـــي العراق عين صاحب شرطة صغير السن فكتب إليه الخلـــيفة هشام بن عبد الملك:"..أنك وليت شرطتك رجلا حدثا فلو وليتها ذا حيلة ونقلـــت صاحبك إلى ما هو أجدى عليه.. فولاه فارس وولى الشرطة للعريان بن الهيثم".

وفي أيام معاوية سجل جميع المشبوهين في دمشق وروقبوا وعين زياد جعـــد بـــن قـــيس لمراقبة نشاطات الفساق ومطاردتهم، وكانت الشرطة تطارد المغنين وشاربي الخمر.

فعـــندما فشـــى الغناء بالكوفة أيام خالد بن عبد الله القسري كاتب خالد صاحب شرطته فسجن الأخير بعض المغنيات وكثيراً ما كان مدمنو الخمرة من المســـلمين يرشـــون الشرطة ويحملونهم على السكوت والتستر على بيع الخمر وشربها.

وفي خلافة هشام بن عبد الملك أدخل نظام الأحداث على الشرطة وكان صاحبه يضطلع بالأعمال العسكرية التي تعتبر وسطا في أعمال صاحب الشرطة والقائد، فتكون وظيفته نصف حربية ونصف بوليسية إذ كان عليه المحافظة على

القانون والنظام وإذا لزم مناوشة الثائرين في المعركة والنظر في شؤون الشرطة في الولاية.

وكان صاحب الشرطة في مصر ينوب عن الأمير في الفسطاط إذا غاب عنها ولذا فإنهم يعبرون عن هذه الوظيفة أحيانا بخلافة الفسطاط وكان صاحب الشرطة في مصر هو الذي يصلى بالناس إذا غاب الأمير أو الوالي وهو الذي يتولى أعطيات الجند وغير ذلك من الأعمال، وتقسم الشرطة في مصر إلى قسمين:

١- الشرطة السفلى ومقرها الفسطاط وقد أنشأت داراً لهذه الشرطة بعد فتح مصر ٢٠هـ/٦٤٠م.

٢- الشرطة العليا ومقرها مدينة العسكر وقد أنشأت داراً لهذه العسكرة عندما أسس صالح بن علي العباسي سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م مدينة العسكر. وربما سميت بهذا الاسم لأن مكان العسكر أعلى من الفسطاط لذلك سميت الشرطة العليا لعلو مكانها.

ومن المحتمل أن الشرطة كانوا يعطون رواتب ومخصصات منتظمة مقدارها يزيد نسبيا عن عطاء المقاتلة ولكن لا توجد معلومات عن رواتبهم سوى أن صاحب شرطة أخذ عن عمله مائة ألف درهم في أوائل عهد عبد الملك بن مروان.

الأسطول:

أبدت الدولة الأموية اهتماما كبيرة بالأسطول فمعظم سواحل الشام من فتوح معاوية بنفسه بغزو جزره وهكذا رأينا الأمويين جينما نقلوا مركز الدولة العربية الإسلامية من الحجاز إلى الشام غيروا وجهتها بصورة واضحة تغييرا بدت بوادره منذ عملوا لأبي بكر وعمر في فتح الشام ومصر، لكن هذا التغيير لم

تتوضـــح معالمه إلا في عهد معاوية الذي حرص أن يوجه الدولة وجهة غربية بيزنطية وتابعه على ذلك خلفاؤه فتحولت دولة الإسلام من دولة قارية صحراوية إلى دولة بحرية.

كان معاوية بن أبي سفيان هو منشئ الأسطول العربي فقد أحس بحاجة العرب إلى قوة بحرية لمواجهة البيزنطيين الذين كثيراً ما كانوا يهددون السواحل الشـــامية ولذ فقد أسس قواعد لصناعة السفن الحربية في الإسكندرية والشواطئ الفلسطينية وخاصة عكا التي استقدم إليها صناعاً مصريين ليبنوا السفن الحربية فـــيها ورتـــب الشواتي والصوائف لغزو الإمبراطورية البيزنطية وهذا يعني أن معاوية وضع نظاما يكفل استمرار الحرب بين العرب والبيزنطيين صيفا وشتاءً وبلغ أسطول الشام في عهد معاوية ١٧٠٠ سفينة.

وقد ساهم ولاة معاوية في إنشاء قواعد بحرية لصنع السفن الحربية ففي مصر قام مسلمة بن مخلد بإعداد القوات البحرية وتوفير وسائل قوتها حفاظا على سيادة العرب في الحوض الشرقي للبحر المتوسط فبنى دوراً لصناعة السفن في مصر وأشرف بنفسه على صناعة السفن الحربية بدار صناعة السفن الحربية في جزيـــرة الروضة وذلك سنة ٤٥هـــ/٦٦٥م وبنى العرب أيام معاوية أسطولا لهم في مياه المغرب.

وقد تجلى نشاط البحرية العربية في شمال أفريقية ضد صقلية في خلافة معاويـــة إذ قام واليه معاوية بن حديج منه ٤٤هـــ/٦٦٤م بحملة على صقلية من بـــرقة ثم وافقه بعد ذلك الإمدادات من مصر وظلت الحملات العربية توجه إلى جزيرة صقلية منذ خلافة معاوية وحتى أيام عبد الملك بن مروان وابنه الوليد.

وفي سنة ٦١هـــ/٦٨٢م اتخذ البيزنطيون من جزيرة صقلية قاعدة لإدارة الحـــرب البحرية ضد العرب في برقة ولذا فقد سار عبد الملك على نهج معاوية

مـــن حيث الاهتمام بالقوة البحرية العربية في شرق البحر المتوسط وسار الوليد على سياسة أبيه عبد الملك بن مروان في تقوية الأسطول وتدعيم وسائل التعاون بين القوة البحرية والبرية.

واهـــتم الولاة الأمويون في أفريقية بإنشاء دور لصناعة السفن، فقد أنشأ حســـان بـــن الـــنعمان الغساني والي أفريقية (٦٩-٧٨هـ/٦٨٨-٦٩٦م) داراً لصناعة السفن في مكان يسمى ترشيش (تونس حاليا) سنة ٧٣هـ/٦٩١م ثم بدأ بصناعة المراكب البحرية التي الفت أسطول افريقية العربية.

واســـتطاع العرب في عهد عبد الملك بن مروان أن يسيطروا بصورة تكـــاد تكـــون تامة على شواطئ معظم الجزر الواقعة في حوض البحر المتوسط الشـــرقي وتمكنوا من إخراج هذا البحر من دائرة السيادة البيزنطية ونالت القوة البحرية اهتمام الخليفة هشام فقد أنشأ داراً لصناعة السفن الحربية في صور وبنى فـــيها فـــندقا وكانـــت أغلب الحملات البحرية في البحر المتوسط يرسلها والي أفريقية.

أحرز الأسطول العربي في العصر الأموي سلسلة من الانتصارات على الأسطول البيزنطي، ففي سنة ٨٠هـ/٦٩٩م قام عبد الواحد بن كنود بحملة أقلع بهمـــا من الإسكندرية وأغار على جزيرة قبرص ثم عاد إلى الإسكندرية محملا بالغـــنائم ثم هاجم الأسطول العربي هذه الجزيرة عام ١٢٥هـ/٧٤٣م في خلافة الوليد الثاني.

وفـــي ســـنة ٨٥هـ/٧٠٤م أرسل والي أفريقية موسى بن نصير حملة بقـــيادة ابـــنه عبد الملك لغزو جزر البحر المتوسط وغنم العرب كثيراً من هذه الغزوة وفي سنة ٩١هـ/٧١٠م أرسل موسى حملة أخرى ضد سردينا.

وفـــي ســـنة ١٠٢هـــ/٧٢٠م قام الأسطول العربي من إحدى قواعده في القيروان في شمال أفريقية بغزو جزيرة صقلية وتكررت هجمات العرب بعد ذلك على صقلية.

وفـــي سنة ١٠٩هـــ/٧٢٧م قام بشر بن صفوان الكلبي بغزو صقلية ثم توالت الحملات الخاطفة على الجزيرة دون انقطاع.

وفـــي ســـنة ١١٢هـــ/٧٣٢م قام العرب بحملة من سورية ضد قبرص وتكـــررت هذه الحملة سنة ١١٤هـــ/٧٣٢م وفي الوقت نفسه غزا العرب جزيرة سردينيا.

وفـــي سنة ١١٥هـــ/٧٣٣ وأمر والي أفريقية بغزو قبرص دون جدوى ثـــم أرسل والي أفريقية عبد الله بن حبيب حملة ضد صقلية سنة ١١٦هـــ/٧٣٤م دون جدوى أيضا وبعد سنة أرسلت حملة أخرى إلى سردينيا أيضا.

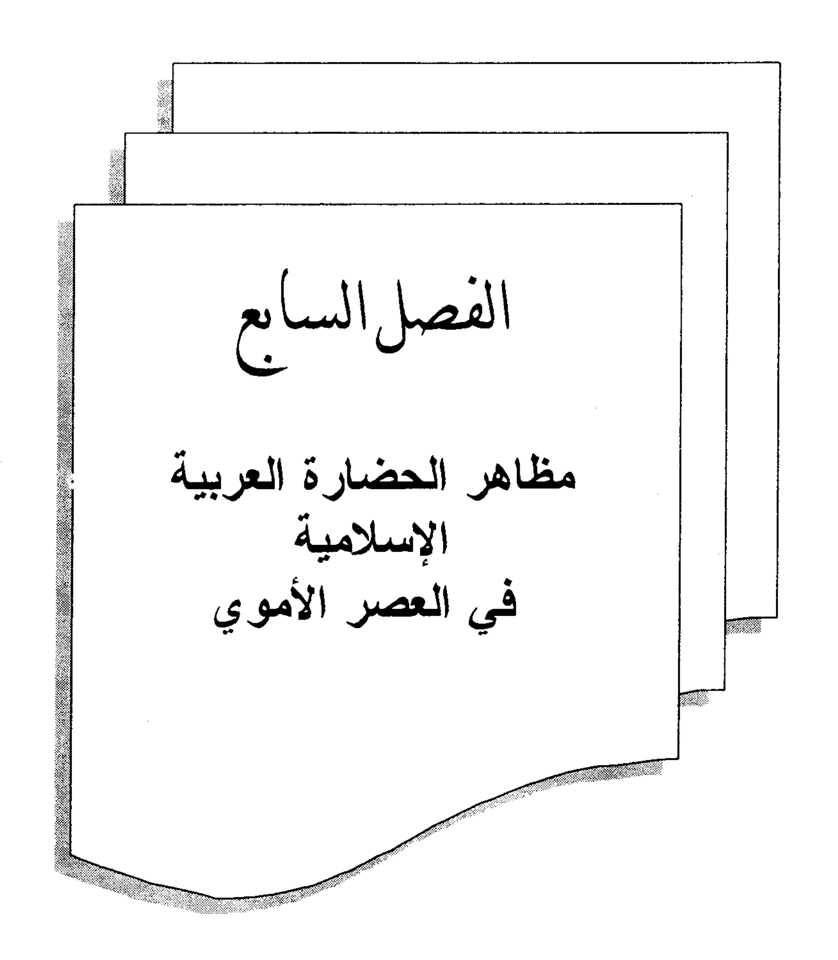
وفـــي ســـنة ١٢٣هـــ/٧٤٠م نجح العرب في احتلال أقسام من جزيرة صقلية وأرغموا أهلها على دفع الجزية وتمكنوا من احتلال مناطق أخرى وقوي نفوذهم في الجزيرة أثر حملة أخرى قاموا بها سنة ١٣٦هـــ/٧٥٣م.

ويمكـــن القول أن العرب في العصر الأموي قد كسروا الوحدة التاريخية للبحر المتوسط وحولوه من بحيرة داخلة في نطاق العالم اللاتيني اليوناني إلى حد بين ذلك العالم وعالم آخر هو العالم العربي الإسلامي المشرقي.

كان لكل سفينة عربية قائد (مقدم) له القيادة في كل ما يختص بالبحر في سفينته وهو المسؤول عن تدريب الجند وتجهيز الحملات.

وهـــناك موظـــف آخر يسمى الرئيس وهو مسؤول عن الإشراف على الملاحة ويسمى قائد الأسطول أمير البحر ومنه استقل لفظ **Amiral**.

لقــد أتقن العرب علوم البحار فأصبحوا أساتذة أوروبا يدل على ذلك أن بعــض المصــطلحات البحرية المستعملة في أوروبا لا تزال تلفظ بعربيتها إلى الوقــت الحاضر ومن تلك الاصطلاحات Cable المأخوذة من لفظ حبل وكلمة **Arsenal** المأخوذة عن لفظ دار الصناعة.


الفصل السابع
مظاهر الحضارة العربية
الإسلامية
في العصر الأموي

الحياة الفكرية

العلوم الدينية:

تعـد العلـوم الدينية في مقدمة العلوم التي نالت اهتمام العرب المسلمين وعناياتهم خلال العصور المختلفة حيث تأسست المدارس الدينية في أقاليم الدولة العربـية الإسـلامية ببعض الجهود التي بذلها الصحابة الذين شاركوا في حركة الفـتح الإسلامي وتفرقوا في الأمصار وكان أساس تلك المدارس القرآن الكريم والحديـث الشـريف وعلـوم الفقه، فكان بداية التأليف العلمي عند العرب وثيقة الصلة بهذه المصادر وكان المدينة والبصرة والكوفة والفسطاط ودمشق من أقدم وأهـم مراكـز الحركة العلمية ويعد علم القراءات أساس علوم التفسير ويتناول أسـاليب قراءة القرآن نتيجة لانعدام التشكيل والنقاط، ومن أشهر العلماء في هذا المـيدان نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني في المدينة، وعبد الله بن كثير مولـى عمر بن علقمة الكناني (ت ١٢٠هـ) في مكة، وعاصم أبن أبي النجود (ت ١٢٨هـ) في الكوفة وعبد الله بن عامر اليحصبي (ت ١١٨هـ) في دمشق.

ثـم يأتي تفسير القرآن الذي نشأ في عصر النبي (صلى الله عليه وسلم) وتولـى صحابته هذه المهمة من بعده، باعتبارهم الواقفين على أسراره المهتدين بهدي الرسول الكريم ومن أشهر المفسرين من الصحابة عبد الله بن عباس، وعن الصـحابة أخـذ الـتابعون وعن التابعين أخذ تابعوا التابعين، فجمعوا أقوال من تقدمهم وصنفوا التفاسير.

وإلى جانب علم القراءات والتفسير يأتي علم الحديث ويراد به ما يروى عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من قول أو فعل وقد آخذ الناس الحديث من الصحابة وآل بيت الرسول الكريم، ثم ظهرت طبقة التابعين الذين أخذوا الحديث عن الصحابة، غير أن الحديث لم يتم تدوينه إلا أواخر القرن الأول الهجري في

خلافـــة عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هــ) وكانت الأحاديث تحفظ في صدور الرجال أو تكتب في صحائف متفرقة، وخشية انتشار الأحاديث التي انتحلت لتلبية حاجــة الــبدع والـــترهات فقد حرص الخليفة عمر بن عبد العزيز على تدوين الأحاديـــث الصـــحاح، وأمر بعض من كان يثق بهم من علماء الحديث بجمعها فكتبـــت فـــي دفاتر وأرسلت نسخة منها إلى أقاليم الدولة العربية الإسلامية ومن أشهر المحدثين في العصر الأموي سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري بالبصرة (ت ١٦١هــ) وهو صاحب كتاب الجامع الكبير، وأبو عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمـــن بـــن المغيرة (ت ١٥٩هــ) صاحب كتاب السنن، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج (ت ١٥٠هــ) ومغيرة بن مقسم الظبي (ت ١٣٦هــ) صاحب كـــتاب الفرائض وزائدة بن قدامة الثقفي (ت ٦١هــ) ومن مؤلفاته كتاب السنن وكـــتاب القراءات وكتاب التفسير ومحكول الشامي (ت ١١٦هــ) صاحب كتاب السنن في الفقه وكتاب المسائل في الفقه، ومن أشهر المحدثين في العصر الأموي عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي (١٥٩هــ) وله من الكتب كتاب السنن في الفقه وكتاب المسائل في الفقه.

علوم اللغة:

اضطر العرب بعد اختلاطهم بالروم والفرس وغيرهم من الشعوب التي دخلـــت الإسلام إلى وضع قواعد اللغة العربية للمحافظة على العربية من اللحن والخطأ فظهرت مدرسة النحويين في البصرة يرأسها أبو الأسود الدؤلي الذي قيل أنـــه سمع قارئاً يقرأ أن الله بريء من المشركين ورسوله بالكسر فقال: ما ظننت أن أمر الناس آل إلى هذا فأتصل بزياد بن أبيه وطلب منه أن يعين له كاتبا يفعل مـــا يقول له، فأتاه بكاتب من عبد القيس، فلم يرضه، فأتاه بآخر لعله المبرد فقال لـــه أبو الأسود: إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فأنقط نقطة فوقه على أعلاه، وإن ضـــممت فمي فأنقط نقطة بين يدي الحرف، وان كسرت فمي فاجعل النقطة

من تحت الحرف، وقد أخذ عدد من النحاة عن أبي الأسود منهم يحيى بن يعمر، وعنبسة بن معدان، وميمون الأقرن، وعيسى بن عمر الثقفي الذي كان من مشاهير رجال النحو بالبصرة وعنه أخذ الخليل بن أحمد، وأصدر كتاب المكمل، وممن أخذ عن الدؤلي يونس بن حبيب (ت ١٨٣هـ).

ومما تجدر الإشارة إليه ظهور الغلظ ومصطلحات جديدة لم يكن للعرب سابق عهد بها استحدثته الشريعة الإسلامية والنظم السياسية والإدارية التي شهدتها الدولة العربية وقد ازدادت هذه المصطلحات بما نقله المسلمون عن الشعوب الأخرى في مختلف ميادين العلوم كالطب والرياضيات والفلسفة والكيمياء، وأدى ذلك إلى البحث في مفردات اللغة من حيث معانيها وأصولها واشتقاقاتها فظهر المعاجم العربية، حيث يعد الخليل بن أحمد الأزدي (ت ١٧٠ هـ) أول من وفق في جمع أول معجم في اللغة العربية وهو أول من استخرج العروض وحصن به أشعار العرب، وصنف الخليل كتابه المشهور المسمى العين، كما صنف كتبا أخرى منها كتاب النغم وكتاب العروض وكتاب الشواهد وكتاب النقط والشكل، وكتاب فائت العين وكتاب الإيقاع.

الشعر:

كان الخليل بن أحمد قد وضع قاموسا للغة وأنشأ علم العروض لوزن الشعر فتطور الشعر في العصر الأموي واتخذ اتجاهات جديدة لم تكن معروفة عند العرب قبل الإسلام فظهر شعر الغزل ومن أشهر شعراء هذا اللون عمر بن أبي ربيعه في الحجاز وجميل عذره، كما ظهر الشعر السياسي الذي غدا وسيلة للدعاية فوجد شعراء أبلوا بلاء حسنا منهم -عبيد الله بن قيس الرقيات والكميت ابن زيد الاسدي- كما كانا هناك شعراء موالين للخلافة مثل الفرزدق شاعر عبد

الملك بن مروان والوليد وسليمان ويزيد وجرير شاعر الحجاج بن يوسف الثقفي والأخطل شاعر معاوية وخلفائه وقد سجل هؤلاء الشعراء المفاخرات القبلية.

علم الكلام:

شـــهد العصر الأموي عددا من الحركات الفلسفية الدينية كالمرجئة التي كانـــت تقول بأرجاء (بتأجيل) الحكم على مرتكب الكبيرة -امؤمن هو أو كافر- إلى الله يوم القيامة. فالله هو الذي يحكم على أعمال العباد وليس للعبادان أن يحكم بعضهم على أعمال بعض ووقف المرجئة هذا الموقف هربا من الثورة على بني أمـــية وكـــان المرجئة يعتقدون أن يزيد ونفرا من الأمويين فاسقون أو كافرون ولكـــنهم كانوا لا يريدون أن يصارحوهم العداء أو يقاتلوهم ومن أشهر المرجئة ثابت قطنة (ت ١١٠هـ).

أمـــا القدريـــة وهم القائلون بالقدر بمعنى القدرة، أي قدرة الإنسان على اكتســـاب أعماله وهم منكرون للقضاء والقدر. وأول من قال بالقدر معبد الجهني وخـــرج معبد مع ابن الأشعث على عبد الملك فأخذه الحجاج وقتله سنة ٨٠هـ/ ٦٩٩م وممـــن قال بالقدر أو محمد عطاء بن يسار القاص البصري (١٧-١٠٣ هـ) وأول من وسع القول في القدر غيلان الدمشقي.

ولمـــا تولـــى عمر بن عبد العزيز الخلافة سنة ٩٩هـ استدعى غيلان واســـتتابه مـــن القول بالقدر وبخلق القرآن وأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ولا يتفاضل الناس فيه فأظهر غيلان التوبة بعد أن أمر عمر بن عبد العزيز بقتله إن لـــم يكف عن القول بذلك كله، فلما توفي عمر سنة ١٠١هـ وجاء يزيد بن عبد الملـــك وكان صاحب لهو ولذات عاد غيلان إلى ما كان يقول به فلما مات يزيد وخلفه أخوه هشام سنة ١٠٥هـ، أمر هشام بقتل غيلان.

ومـــن القدرية الجعد بن درهم وكان من أهل دمشق يقول بالقدر وبخلق القـــرآن وبنفـــي الصفات عن الله سوى الخلق والفعل وقتل الجعد بن درهم يوم الأضحى من سنة ١٠٥هـــ، قتله خالد بن عبد الله القسري.

أما المعتزلة فهي من مدارس الفكر والكلام في الإسلام وظهرت في بداية القرن الثاني الهجري في البصرة ويرجع أصل هذه التسمية إلى واصل بن عطاء الذي اعتزل حلقة أستاذه الحسن البصري بمسجد البصرة لاختلافه معه في الرأي وتتلخص أراء المعتزلة في القوم بعدم تكفير مرتكب الكبائر واعتباره في منزلة بيـــن المنزلتيـــن أي بين المؤمن والكافر وقالوا بالقدرة أي ان الله تعالى قادر لا يخلـــق أفعال الناس وإنما يخلقون أفعالهم، كما ذهب المعتزلة إلى القول بسلطان العقـــل وقدرتـــه على معرفة القبيح من الحسن وقالوا بالتوحيد فنفوا أن تكون لله تعالى صفات أزلية من علم وقدرة وحياة وسمع وبصر غير ذاته بل أن الله عالم وقادر وحي وسميع وبصير بذاته.

أمـــا الجـــبرية وهـــي التي تذهب إلى القول بأن إرادة الله تعالى مطلقة وقدرته تضع حدا لإدارة الإنسان والإنسان مجبر لا اختيار له ولا قدرة وان الله يخلـــق في الإنسان الأعمال والأفعال ولا قدرة للإنسان على تغييرها، وأول من قـــال بالجبرية جهم بن صفوان الذي سمي اتباعه بالجهمية وكان جهم من الذين يدعون إلى الإصلاح بالقوة وقد انضم إلى الحارث بن سريج في قتال نصر ابن ســـيار والى الأمويين على خراسان فأرسل نصر بن سيار إليهما سلم ابن أحرز فأنهزم الحارث ووقع جهم في الأسر فقتله سلم سنة ١٢٨هـــ ويبدو أن قتلة كان بدافـــع من السياسة لخروجه على بني أمية ولا صلة له بأقواله لأنه قتل في أيام مـــروان بـــن محمـــد، وكان مروان تلميذات للجعد بن درهم كجهم بن صفوان ومشاركا كالجهم في عدد من أقواله.

علم التاريخ:

كانت المدينة مركزا للدراسات التاريخية التي قامت على دراسة سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأخبار الغزوات والهجرة الأولى إلى الحبشة ثم إلى يثرب، وقد اعتمد المؤرخون الأوائل على الروايات الشفوية فكان كل جيل يستمد أخباره من الجيل السابق، وكان الخبر التاريخي يستمد من السماع عن الحفاظ والموثوق بهم وهو ما يعرف بالأسانيد التي اتبعها المحدثون في روايتهم للحديث فكان الخبر التاريخي يتألف من عنصرين، رواة الخبر على التتابع وهو ما يعرف بالسند أو الإسناد، ثم نصر الخبر ويسمى المتن.

وأقدم المؤلفات التاريخية التي جمعت بين الحديث والتاريخ كتب المغازي والسيرة وقد ازدهر هذا النوع من التأليف في المدينة باعتبارها دار الرسول (صلى الله عليه وسلم) ودار السنة التي عاش فيها الصحابة وسمعوا الحديث ورواه إلى التابعين وتوزع مؤرخو السيرة والمغازي في مدرسة المدينة ومكة على ثلاث فئات فبرز في الأولى أبان بن عثمان بن عفان (ت ١٠٥هـ) وعروة ابن الزبير (ت ٩٢هـ) ومن رجال الفئة الثانية عبد الله بن أبي بشر بن حزم الأنصاري (ت ١٣٥هـ) وعاصم بن عمرو بن قتادة الأنصاري (ت ١٢٠هـ) الذي عهد إليه الخليفة عمر بن عبد العزيز الجلوس في جامع دمشق ليحدث الناس عن مغازي الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومناقب الصحابة وعليه اعتمد ابن اسحق والواقدي كذلك يأتي ابن شهاب الزهري (ت ١٢٤هـ) ضمن هذه الفئة ويعد من أعظم مؤرخي المغازي والسير ويرجع الفضل إليه في تأسيس المدرسة التاريخية في المدينة. أما الفئة الثالثة ضمن رجالها محمد بن اسحق (ت ١٥٢هـ) أشهر تلامذة الزهري وتنسب إليه أقدم كتب السيرة التي وصلتنا. ومحمد بن عمر الواقدي مولى بني هاشم (ت ٢٠٧هـ) الذي فاق ابن اسحق في

دقته في المادة وفي الأسلوب مع زيادة العناية بالتاريخ وتحقيق تواريخ الأحداث وتوضع الإطار الجغرافي المتصل بالواقع.

وقـد ظهـرت خـلال العصر الأموي أيضا مدرسة أخرى للتاريخ في البصـرة والكوفـة تمـيزت بتـناول الموضوعات الخاصة بالمعارك والفتوح الإسـلامية ودراسـة الأنساب ولم تخل هذه المدرسة من كتاب السير والمغازي مـنهم معمر بن راشد اليماني البصري (ت ١٥٠هـ) ومن أشهر كتاب التاريخ والأخـبار من بين أصحاب هذه المدرسة أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي (ت ١٥٧هـ) الذي اهتم بكتابة الأحداث التاريخية العامة في الإسلام كالردة والفتوح والأحـداث الـبارزة في خلافة علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) واستشهاد الحسـين (رضـي الله عـنه) وأخبار الازارقة الخوارج بالإضافة إلى اهتمامه بالأنسـاب ومنهم سيف بن عمر الكوفي الأسدي، (ت ٩٨هـ) وعوانة بن الحكم الكوفي ومما تجدر الإشارة إليه أن الأمويين قد أبدوا اهتماما بموضوع الأنساب ووضـع سجلات لهذا الغرض ويعد محمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦هـ) من أشهر نسابي العراق وهو من علماء الكوفة الذي اهتموا بدارسة الأنساب.

كما شهد القرن الأول والثاني الهجري عناية كبيرة بدراسة تاريخ العرب قـبل الإسـلام حيث تم تدوينه خلال العصر الأموي ومن ابرز المؤرخين الذين اشـتهروا فـي هذا الميدان عبيد بن شريه الجرهمي الذي ألف لمعاوية بن أبي سفيان كتاب الملوك وأخبار الماضين وتضمن الكثير من أخبار العرب في عصر مـا قـبل الإسلام وقد أدريك عبيد خلافة عبد الملك بن مروان ويأتي بعد عبيد الجرهمي مؤرخ آخر هو وهب بن منبه (ت ١١٠هـ) وكان يمنيا من أهل ذمار وقيل أنه من أصل فارسي كما قيل أنه كان يهوديا وأسلم، ومن الكتب التي تنسب إلـيه كـتاب الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم ويغلب على أخباره طابع القصص الشعبي الخرافي كما هو الحال عند عبيد بن شريه.

علوم الكيمياء والطب:

بـــرز الاهـــتمام بهـــذه العلوم خلال وقت مبكر من الدولة الأموية حيث أشار المؤرخون إلى أن أول من اهتم بالكيمياء خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي ســـفيان الـــذي قـــيل أنه أخذ هذا العلم على يد راهب من أهل الإسكندرية يدعى سريانوس الراهب وكان خالد قد نزل بمصر في خلافة مروان بن الحكم، فيذكر أن خالدا هذا رافق مروان في حملته في سنة ٦٥هـــ.

أمـــا في مجال الطب فقد اشتهر عدد من النصارى خلال العصر الأموي منهم الطبيب المعروف بابن أثال وكان طبيبا لمعاوية بن أبي سفيان وعرف بسعة معرفـــته بالأدوية المفردة والمركبة ثم طبيب الحجاج بن يوسف الثقفي (تيادوق) وماســـر جوية اليهودي الفارسي طبيب مروان بن الحكم الذي ينسب إليه كتاب في الطب باللغة السريانية إلى العربية وهو كتاب - أهرن بن أعلين القسي ثم أبو الحجـــاج النصـــراني طبيب معاوية بن أبي سفيان ثم ابن أبجر السكندري طبيب عمر بن عبد العزيز.

الحركة العمرانية

تخطيط المدن وبناؤها:

اســـتطاع الأمويون بفضل سياستهم أن يسيروا بالعرب في طريق القوة والمـــنعة فمـــثلما زخـــر عصرهم بالفتوحات العربية فإنه زخر بحركة عمرانية واسعة شملت منشآت مدينة ودينية تمثلت بإنشاء المدن والمساجد والقصور، وقد اتخـــذ العرب في عصرهم طرازا للعمارة خاصا بهم يتناسب مع طبيعتهم وحال معيشتهم وكان لطراز العمارة طابع جديد بما ادخل فيه من عناصر فنية مختلفة وصارت العمارة العربية تمتاز بالقباب والمآذن والأعمدة والمنخبات.

بناء القيروان:

عندما ولى معاوية بن أبي سفيان القائد عقبة بن نافع الفهري أفريقية في سنة ٤٩هـ فكر عقبة بعد انتصاراته التي حققها هناك ببناء مدينة عربية تكون قاعدة أمامية لحروب التحرير في المغرب، ومركزا لنشر الإسلام وذلك جريا على السياسية التي ابتدأها العرب في المشرق العربي عندما انشأوا الكوفة في العراق ثم الفسطاط في مصر فأختار عقبة موقع القيروان لبعده عن ساحل البحر حتى يكون العرب بمأمن من غارات الأسطول البيزنطي، فضلا عن قرب الموقع من السبخة حيث ممكن أن ترعى الإبل في أمان.

وحسب الطريقة التقليدية في بناء المدن العربية الإسلامية منذ بناء البصرة والكوفة والفسطاط فقد اختط عقبة دارة الإمارة والمسجد الجامع واختط الناس الخطط والدور.

وتختلف الروايات في تقدير مساحة المدينة، فيقول ابن الأثير أن دورها (أي محيطها) كان ٣٦٠٠ (ثلاثة آلاف وستمائة) باع بينما يقول ابن عذارى أن دورها بلغ ١٣,٦٠٠(ثلاثة عشر ألف وستمائة) ذراع، ويعتقد البعض أن المساحة الأولى التي تقدر بحوالي ٥٨٠٠ متى مربع معقولة بالنسبة لخطة المدينة الأولى وإقامة الأسوار ووسائل الدفاع- أي بالنسبة للمدينة العسكرية - أما المساحة الثانية التي تقدر بحوالي ٧٠٠٠ متر مربع فهي معقولة بالنسبة لساكني العسكر والقبائل ومن انضاف إليهم من أهل البلاد وعلى ذلك يمكن القول أن المدينة العسكرية الأصلية المسورة حيث المسجد الجامع ودار الإمارة والذخائر كان محيطها ٣٦٠٠ باع بينما انتشرت حولها مساكن القبائل والمساجد الخاصة بها في محيط بلغ ١٣,٦٠٠ ذراع وهذه ليس بغريب.

وبطبيعة الحال لم يتم بناء المدينة بهذا الشكل دفعة واحدة إذ كمل البناء سنة ٥٥هـ وكانت المدينة تعمر وتتسع شيئا فشيئا خلال تلك الفترة ولم يوجه عقبة خلال ذلك الوقت كل همة للبناء إذ كان يوجه السرايا لتوطد سلطان العرب في البلاد وتبعد السيطرة البيزنطية عنها ووصل الجندي العربي مطمئنا إلى مقامه في القيروان.

وفي الوقت الذي أتم عقبة بن نافع بناء تلك المدينة (القيروان) أتى أمر الخلافة بعزله عن ولاية أفريقية فكان جزاءً غريباً بعد قيام الرجل بهذا العمل الكبير في خدمة الإسلام.

بناء واسط:

لقد رأى الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ) أن الحجاج بن يوسف الثقفي (٧٥-٩٥هـ) خير من يوكل إليه أمر العراق لما عرف من شدة وحزم وكان الخليفة عبد الملك باختيار الحجاج قد اختار أكفأ رجال دولته لمواجهة خطر الأزارقة في الشرق وإعادة النظام والاستقرار في العراق الذي حتمت ظروفه الإدارية القلقة إلى إنشاء مدينة واسط.

وكان اختيار موضع واسط بعد تفتيش متواصل وبحث دقيق أبرزت نتائجه فيما بعد أنه اختيار موفق بدليل أن إنشاء مدينة واسط في هذا الموضع كان ختاما للفتن التي قامت في ذلك العصر.

ويمكن حصر العوامل التي دفعت الحجاج لاختيار موضع واسط في عامل إداري وعامل إقتصادي وعامل صحي فالعامل الإداري يتضح في اختيار الموضع وسط بين الكوفة والبصرة ويبدو أن إعجاب الحجاج بموقع واسط حصل نتيجة إدراكه لأهمية الموضع من الناحية الإدارية لأن الحجاج كان قد اكتسب خبرة إدارية من جراء تنقله بين الكوفة والبصرة وعرف مضار ازدواجية الإدارة

لذلك عول على اختيار هذا الموضع ليوحد به إدارة ولايته ويقضي بالانتقال إليه على الإزدواجية ومضارها بالنسبة للإدارة فيها.

كما أنه يجب أن لا نغفل من جانب آخر أهمية موضع واسط من الناحية العسكرية التي تعتبر إحدى فوائد موضع واسط الإدارية فوجود دجلة في شرق الموضع والفرات في غربة يكون له استراتيجية حربية ممتازة فإنه يصعب العبور من دجلة أو الفرات إذا ما قطعت الجسور فتتهيأ للحجاج الفرص للاستعداد والقضاء على الثورات من المدينة المنيعة واسط، هذا بالإضافة إلى أهمية موضع واسط من ناحية قريبة من المشرق فإن الحجاج بعد أن تم له القضاء على الفتن التي قامت عليه في العراق أراد أيضا من هذا الموضع أن يدير العمليات العسكرية لمواصلة الفتوحات في المشرق فجهز الجيوش وسيرها للفتح.

أما العامل الاقتصادي فكان من مميزات موضع واسط فوقوع هذا الموضع على نهر دجلة أدى إلى أن تكون للمدينة أراضي خصبة تمتد من دجلة إلى الفرات فقد استفاد الحجاج والأمراء من مياه هذين النهرين وقد أفاض المؤرخون والبلدانيون العرب في ذكر الأراضي الزراعية التابعة لمدينة واسط، فقال ابن حوقل "إنها خصبة كثيرة الشجر والزرع وليس لها بطائح ولها أرض واسعة ونواح فسيحة وعمارة متصلة ونواحي واسط عمل مفرد من أعمال العراق يعامل جليل تيية خطير" ووصفها المقدسي بقوله "واسط قصبة عظيمة كثيرة الشجر معدن السمك حسنة الأسواق واسعة السواد.

ومنح موضع واسط أهمية تجارية واسعة النطاق فقد كانت منذ إنشائها ملتقى عدة طرق برية ومائية ساعدت على تنشيط الحركة التجارية وتبادل السلع في أنحاء مختلفة من البلاد.

وتبرز نظرة الحجاج الاقتصادية في اختيار موضع واسط حيث أراد أن تكون المدينة في موقع خصب يتصل بطريق ليكون مرتقا للرعية ومصدر رزق لها.

أمـــا العامل الصحي فقد كان لـــه أثر واضح في اختيار موضع واسط، فعـــندما أراد الحجاج بناء مدينته حذا حذو أسلافه بتأكيده على الناحيتين الطبيعية والصـــحية إلى جانب النواحي الإدارية والاقتصادية فأرسل الحجاج رجلا وأمره أن يلـــتمس له مكانا في كرش من الأرض وليكن على نهر جار ويبدو أنه سار علـــى ما يقرر ياقوت إلى قرية يقال لها واسط القصب فبات بها واستطاب ليلها واســـتعذب أنهارها واستمرأ طعامها وشرابها فكتب إلى الحجاج بالخير ومدح له الموضع.

ولاختـــيار الموضع المقترح أرسل الحجاج الأطباء للتأكد من صحة ما أخـــبره بـــه ففحصـــوا الموضع وجالوا في مواضع أخرى غيره ولكنهم رجعوا وقالوا: ما أصبنا مكان أوفق من موضعك هذا في حفوف الريح واثق البرية.

وعـــندما وضـــحت للحجـــاج صـــورة الموضـــع الإدارية والاقتصادية والصـــحية، بعث من يشتري له هذا الموضع فاشتراها من صاحبها ليقيم مدينته عليه، بعد أن أذن له عبد الملك في بناء مدينته بين المصرين.

كانـــت خطـــط مديـــنة واسط على مثل ما خططت به كل من البصرة والكوفـــة فقـــد ذكـــر البلاذري أنه عندما وصلت إلى الحجاج أخبار خروج ابن الأشـــعث ســـنة ٨١هـــ أتى إلى موضع واسط فابتنى به مسجدا يذكر موقعه - المقدســـي- في الغرب من طريق الأسواق بعيدا عن الشاطئ ويجنبه بينما يذكر الـــبعض أن مقـــر الحجاج هو في الجانب الغربي منه وفيه قبة مشرقة خضراء تـــرى من قم الصلح وهي بلدة تقع شمال واسط على ضفة دجلة الشرقية وكانت

دار الإمـــارة في واسط تقع على الجدار القبلي من مسجد الحجاج وبالقرب منها أقيمت دواوين الحكومة ودار الرزق والسجن.

فكانت هذه المنشآت الدينية منها والحكومية تؤلف قسما من أقسام المدينة لـــه كيانه الخاص ويقع على الأغلب في وسط المدينة وعمل الحجاج فراغا حول هـــذا القسم يسمى الرحبة يشرع منه الطرق وإليه تفضي الشوارع ثم عين مكان الســـوق العـــام مـــنه وبعدها شرع المخططون يقطعون القطائع، ويقيمون فيها المرافق فاختطت كل قبيلة المكان المخصص لها.

وقـــد أمدتـــنا المصادر التاريخية بأسماء مساجد أخرى صغيرة يمكن أن تطلق عليها اسم مساجد الأحياء مثل مسجد سيار بن دينار وهو أحد رواة الحديث فـــي مديـــنة واسط كما ذكر مسجد عبد الحميد ومسجد حسان النبطي على دجلة قرب المدينة.

ويبدو أن هذه التشكيلة البنائية أحيطت على ما يقوله المبرد بسور وخندق وكان على دجلة جسر متخذ من السفن طوله ستمائة وثمانين ذراعا كان يربطها بالجانب الغربي وله في جانبه الغربي رصيد من الأجر طول قاعدته (٤٧) مترا وهـــو مـــتحرش الجانبيـــن يبلغ سمكة من الوسط أكثر من مقربة أما في جانبه الشـــرقي فكان يوجد مسفاه خاصة به وهي تقابل تماما الرصيف الأجري الممتد مـــن الجهة الغربية مقابلة تامة. وبالقرب من الجسر كانت هناك مشرعة، أطلق علـــيها اسم مشرعة الفيل وأن سبب هذه التسمية على ما يعتقده البلاذري هو أن عـــامل الحجـــاج على السند محمد بن القاسم الثقفي أهدى إلى الحجاج من السند فـــيلاً، فأخـــرج في هذه المشرعة ولابد أن هذه المشرعة كانت تستخدم لإنزال البضائع التجارية إلى السفن وتفريغها منها.

أمـــا تـــاريخ بنائها فقد أعطت المصادر التاريخية نصوصاً متقاربة في تـــاريخ بـــناء هـــذه المديـــنة، فابن قتيبة يذكر أنه عندما هرب ابن الأشعث إلى سجســـتان أمر الحجاج جيشه بالرجوع إلى مدينة واسط حيث كان قد بناها وأقام بها في ذلك الوقت.

ويذكر البلاذري أنه عندما وصلت إلى الحجاج أخبار خروج ابن الأشعث أتـــى إلى موضع واسط فابتنى لـــه مسجدا وقال هذا مكان وسط فسميت واسط القصب ثم بناها بعد ذلك.

وأشـــارت المصادر إلى فتنة أبن الأشعث أنها بدأت سنة ٨١هـــ ويذكر الذهبي أن الحجاج في سنة ٨٢هـــ انشأ مدينة بالعراق وفي واسط جعل فيها دار الإمارة أما اليعقوبي فيذكر أن الحجاج بنى مدينة واسط في السنة التي هرب فيها ابـــن الأشـــعث أي سنة ٨٣هـــ ويتفق الطبري مع اليعقوبي في تاريخ بناء هذه المدينة.

ففي ضوء ما تقدم أن المؤرخين قد تقاربت إشارتهم في تاريخ بناء مدينة واسط وهي تحصر تاريخ البناء بين سنة ٨١هـــ وسنة ٨٣هـــ.

ويـــبدو من سير الأحداث التاريخية أن الحجاج أخذ يعد العدة لبنائها من تعيين الموضع وشرائه وجلب المواد الإنشائية له وتهيئة العمال والفنيين لبنائها، حيـــن قيام فتنة ابن الأشعث في سنة ٨١هـــ التي لم يؤثر قيامها على سير العمل فـــي بناء هذه المدينة وعندما بلغة أخبار فتنة ابن الأشعث أمر بالشرع في بنائها وأنه بعد هروب أبن الأشعث أمر الحجاج أصحابه بالتوجه نحو مدينة واسط.

ويتضح مما تقدم أن الحجاج بدأ في بناء مدينته في سنة ٨١هـــ واستمر هذا البناء إلى نهاية سنة ٨٢هـــ وأصبحت جاهزة للسكنى مع بداية سنة ٨٣هـــ.

ومـــنذ ذلـــك التاريخ اضطلعت مدينة واسط بإدارة العراق وأقاليم الدولة الأمويـــة فـــي المشـــرق وأن أمراء العراق منذ نشأتها كان بعضهم يقيمون فيها ويشـــرفون مـــنها علـــى إدارة العراق والمشرق الإسلامي كما كان ولاة واسط مســـؤولين عـــن تعين عمال البصرة والكوفة، وكان هؤلاء العمال تابعين لوالي واسط ومسؤولين أمامه.

الجابية:

كانت الجابية في الأصل قرية من أعمال دمشق وعندما حرر العرب بلاد الشـــام من السيطرة البيزنطية اعتبرت الجابية من أعمال مدينة دمشق كذلك، ثم ألحقـــت بكـــورة الجيدور الواقعة في شمالي حوران والتي تعد والجولان كورة واحدة.

ويـــبدو أن موضع الجابية اكتسب شهرة طيبة حتى سمي بها أحد أبواب دمشـــق (باب الجابية) الذي تردد ذكره عند المؤرخين العرب أثناء تحرير دمشق وفي موضع الجابية مر الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في طريق إلى بيت المقدس.

والراجح أن الجابية حظيت باهتمام الخلفاء الأمويين بما تحتله من بعض الذكـــريات التاريخية، نجد أن المصادر أغفلت بيان هذا الاهتمام ولعل ذلك يعود إلـــى اهتمام المؤرخين بإبداء المعلومات عن المنشآت الدينية والمدنية في دمشق وغيرها من مدن الشام الرئيسية وأغفلوا الجابية التي قال فيها ابن عباس "أرواح المؤمنين بالجابية من أرض الشام".

الرملة في فلسطين:

كان الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ) قد ولى أخاه سليمان جند

فلسطين فانتقل إلى الرملة ومصرها وكان أول من بنى فيها قصره وداراً تعرف بدار الصياغين وجعل في الدار صهريجا متوسطا لها ثم اختط مسجدا فيها فبناه.

وعندما تسلم سليمان الخلافة (٩٦-٩٩هـ) أذن للناس أن يبنوا دورا لهم في الرملة فابتنوا واحتفر لهم القناة التي تدعى بردة كما احتفر لهم أيضا آبارا عذبة لتيسر استقرار الناس في أرضها الرملية.

وظل خلفاء بني أمية ينفقون على آبار الرملة وقناتها لكي لا تندثر فيهجر الناس تلك المدينة، ولما استخلف بنو العباس أنفقوا عليها أيضا، وكان الأمر في تلك النفقة يخرج في كل من خليفة بعد خليفة، فلما استخلف المعتصم أسجل بذلك سجلا فانقطع الاستئمار وصارت النفقة يحتسب بها للعمال وشربهم من الآبار المالحة والموسرون لهم بها صهاريج مقفلة وكانت الرملة أكثر البلاد صهاريج مع كثرة الفواكه وحصة الهواء.

رصافة الشام:

وهي المعروفة برصافة هشام بن عبد الملك في غربي الرقة، بينها أربعة فراسخ على طرق البرية بناها الخليفة هشام لما وقع الطاعون بالشام وكان يسكنها في الصيف وينزل فيها بقصره المعروف بالزيتونة.

وكان يحيط بالمدينة سور، ولا يجري عندها نهر ولا عين ماء، بل كان أهلها يشربون من صهاريج عندهم وكانت مياه الآبار تستخرج من آبار يتراوح عمقها بين مائة وعشرين ذراعا وأكثر.

ويبدو أن أهل المدينة كانوا يعانون كثيراً من شحة المياه فإذا صادف وفرغت صهاريجهم، اضطروا إلى جلب الماء من الفرات الذي يكون بعيدا عنهم، وإزاء مشكلة شحة المياه في موضع رصافة الشام فإننا لا نتوقع قيام

زراعة فيها اللهم إلا إذا اعتمدت على مياه الأمطار وهذا يفسر لنا اعتماد بعض أهلهـا في معاشهم على التجارة ونلاحظ أيضا أن جل أهلها كانوا يمتهنون عمل الأكسـية التـي لا بـد أنها تدخل في تجارتهم وقد أشتهر أهلها بصناعة النسيج وأوضـح يـاقوت ذلـك بقولـه "وكل رجل فيها غنيهم وفقيرهم يغزل الصوف ونساؤهم ينسجن".

بناء المساجد:

أبـدى الأمويون اهتماما متزايدا بتجديد المساجد الأولى التي أسست في عصر الخلافة الراشدة مثل جامع البصرة وجامع الكوفة وجامع الفسطاط وجامع المديـنة المنورة الذي أعيد إنشاؤه في عهد الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عـنه) وجامع صنعاء الكبير الذي أعيد بناؤه في زمن الوليد بن عبد الملك، كما اهتموا بإنشاء عدد كبير من المساجد الجامعة مثل جامع دمشق والمسجد الأقصى وقبة الصخرة وجامع الزيتونة بتونس وجامع عقبة بن نافع في القيروان.

تجديد المساجد الأولى:

بـدأ العـرب المسلمون بتجديد مسجد الرسول الكريمفي المدينة تجديدا شـاملا فـي خلافـة الوليد بن عبد الملك في سنة ٨٨هـ حتى أصبح بحق درة المسـاجد واستعان الوليد بعض المهرة من صناع مصر والشام في بنائه وكسوة جدرانـه بالفسيفسـاء والـرخام وجعل صالح بن كيسان متولي البنيان الأساس بالحجارة في حين جعل عمد المسجد من حجارة حشيت بعمد الحديد والرصاص مدت فوقها السقوف الخشبية المباشرة.

وتـم تجديد جامع البصرة الذي بني باللبن والطين في خلافة معاوية بن أبـي سفيان في سنة ٤٤هـ فأعيد بناؤه من الآجر والجص وسقف بخشب الساج واتخذت له عمد من الحجر وثم ذلك على يدي زياد بن أبي سفيان وذكر أيضا أن

زيــاد بنى منارة الجامع بالحجارة وأقام للجامع مقصورة. أما مسجد الكوفة الذي يعــود تاريخ إنشائه إلى سنة١٧هـــ فقد جدد بناؤه في سنة ٥١هـــ على يد زياد أيضا وزاد في المسجد ووسعه.

كذلك أضيف إلى جامع صنعاء الكبير الذي بناه ويرين يخس الأنصاري الصـــحابي فـــي سنة ٦هـــ وقيل فروة بن مسيك المراري وقيل أبان بن سعيد، فعـــندما أفضت الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك كتب إلى أيوب بن يحيى الثقفي بالولايـــة على صنعاء واليمن، وأمره أن يزيد في مسجد صنعاء ويبنيه بناءً جيداً محكما، فبناه أيوب وزاد فيه من جهة القبلة الأولى.

وزيد أيضا في جامع عمرو بن العاص بالفسطاط الذي أسس في سنة ٢١ هـــــ، عدة مرات في العصر الأموي واتخذت له أربع مآذن في ولاية مسلمة بن مخلـــب الأنصـــاري سنة ٥٣هـــ في أركان الجامع وأعاد الوالي فره بن شريك بناءه في سنة ٩٢هـــ واستحدث فيه المحراب المجوف لأول مرة.

إنشاء المساجد الجامعة الجديدة

الجامع الأموي في دمشق:

ويعتـــبر مـــن أشـــهر المساجد التي بناها الأمويون ويذكر البلاذري أن موضـــع بـــنائه كنيسة يوحنا المعمدان التي أقامها الإمبراطور تيورسيوس داخل معـــبد الإلـــه جوبتـــير الدمشقي وهو معبد وثني قديم احتفظت الكنيسة بجدرانه الخارجية وأبراجه الأربعة القائمة في الأركان فلما حرر العرب المسلمون دمشق دخلهـــا خالد بن الوليد من الجهة الشرقية عنوة وانتهى إلى النصف الشرقي من الكنيسة فاتخذ المسلمون مسجدا بينما دخل أبو عبيدة بن الجراح المدينة من الجهة الغربـــية صـــلحا، فـــترك النصـــف الثاني من الكنيسة للنصارى وبذلك شارك المســـلمون نصـــارى دمشق في كنيستهم الكبرى، وأقاموا صلواتهم في النصف

الشـــرقي دون أن يقومـــوا بإجراء أي تغيير معماري فيه واكتفوا باتخاذ موضع القبلة في الجدار القبلي.

وقــد حاول معاوية بن أبي سفيان أن يقنع نصارى دمشق بالتنازل عن نصــيبهم لضـــمه إلى المسجد، فأبوا ذلك فأمسك عن طلبه وعاود عبد الملك بن مـــروان مطالبتهم بهذا الشطر لإدخاله في الجامع وبذل لهم مالا فأبوا أن يسلموه إلـــيه فلما تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة رأى أن يقيم مسجدا جامعا للمسلمين يقــل نظـــيره فبادر بمفاوضة أصحاب الكنيسة في التخلي عن شطرهم وعرض عليهم مالا كثيراً وأبدى استعداده لأن يعرضهم عن ذلك الشطر بكنيسة أخرى في أي مكـــان شاءوا لقاء تنازلهم عنه فلما بلغ أبوا أنتزعه منهم وأمر بهدم الكنيسة والجامع القديم، وبناء الجامع وتم بناؤه في عام ٨٧هـــ ويعد هذا الجامع بحق آيه مـــن آيـــات الفن العربي في البناء وعلى الرغم من تعرضه للحريق لعدة مرات وأضـــيف إلـــيه وجدد عدة مرات فإنه ما يزال بحق حافظا لرونقه وبهائه حتى اليوم.

يشـــتمل جـــامع دمشق هذا على بيت للصلاة وصحن تحيط به مجنبات ويـــتألف بيت الصلاة من ثلاثة بلاطات (أروقة) موازية لجدار القبلة تحملها عدة أعمـــدة رخامـــية ويعترض هذه البلاطات في منتصفها بلاط واسع عمودي على جـــدار القبلة ينتهي بالمحراب. يتجاوز في ارتفاعه البلاطات العرضية الأخرى الممـــتدة من الشرق إلى الغرب فبينما يبلغ ١٥متراً في هذه البلاطات يصل نحو (٢٣) متر في البلاطة الوسطى وتعلو هذه البلاطات سقوف منشوريه الشكل في حيـــن يقوم عليها في منتصف بلاط القبلة قبة حجرية أضيفت في عصر متأخر ســـنة ٤٧٥هـــــ وكانت جدران المسجد مكسورة بزخارف من الفسيفساء الملونة والمذهبة التي تمثل مناظر طبيعية دمشقية.

والواقـــع أن الوليد بن عبد الملك قد بالغ في بناء هذا المسجد حتى كان محرابه مرصعا بالجواهر الثمينة عليه قناديل الذهب والفضة ومحلى بالفسيفساء والسلاســل الذهبية حتى أن الناس أخذوا يرمونه بالتبذير وأنه بناه من بيت مال المســلمين فلما بلغت هذه الأموال إلى مسامع الوليد خطب من في المسجد فقال: إنكــم تقولون وتقولون وفي بيت مالكم عطاء ثماني عشرة سنة إذا لم يدخل لكم فيها قمح.

قبة الصخرة:

تعد قبة الصخرة ببيت المقدس من أروع العمائر الدينية الأموية، أنشأها الخلــيفة عبد الملك بن مروان سنة ٧٢هـــ في وسط الحرم الشريف، وكانت هذه البقعة موضع احترام أهل الديانات السماوية الثلاث على السواء.

وقـــبة الصـــخرة بناء حجري مثمن الشكل تتوسطها الصخرة التي ذكر الرسول (صلى الله عليه وسلم) أسرى عندها ليلة الإسراء والمعراج فسميت القبة بذلك بقبة الصخرة.

ونظـــام قـــبة الصخرة التخطيطي، اتخذ شكل بناء مثمن أقيمت فوق قبة عالية تغطيها الفسيفساء المزينة باللون الأخضر والذهبي وحملت القبة على دائرة من العقود نصف الدائرية تقدم على أعمدة قديمة جلبت من عمائر قديمة، وعلى أكتاف وارتبطت فيما بينها عند رؤوس التيجان بأوتار خشبية ضخمة ويفصل بن الصـــف الدائري للعقود التي تقوم عليها القبة والمثمن الخارجي للبناء كله مثمن من العقود التي تقوم على الأعمدة والأكتاف وقد ظل تخطيط قبة الصخرة فريدا فـــي العمارة الإسلامية في عصورها المختلفة لأن تصميمها يطابق الفرض الذي أقيمت من أجله وهو تحويط الصخرة المقدسة بالحرم الشريف.

المسجد الأقصى:

يعد المسجد الأقصى ثالث المساجد المقدسة في الإسلام بعد مكة والمدينة المنورة، وأول القبلتين وقد سرى الرسول (صلى الله عليه وسلم) إليه.

فقد أنشأ الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) مصلى من الخشب في سنة ١٦هـ عندما تم الصلح بينه وبين أهل القدس ثم بناه الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان سنة ٦٥هـ وقيل أن الذي بناه الوليد بن عبد الملك.

ويتألف بيت الصلاة في هذا المسجد من عدة بلاطات طويلة عمودية على جدار القبلة، وقد تهدم بعض بناء هذا المسجد، وأعيد بناؤه في زمن الخليفة العباسي المهدي ثم أصيب أيام الغزو الصليبي بعد استيلاء الصليبين على بيت المقدس واتخذوه كنيسة وأغلب الظن أن قسمه الأوسط ما زال يحتفظ بعناصره الأموية الأولى.

بناء القصور:

حرص الأمويون على الاستمتاع بالحياة الدنيا والتظاهر بمظاهر الترف والأبهة فاهتموا ببناء القصور المنمنمة والمزينة بالزخارف النباتية والهندسية، وتدل الآثار الأموية الباقية من القصور الخلافية على تجاوز الأمويين استخدام الزخرفة إلى استعمال التصوير في القصور.

ويتجلى في بناء القصور الأموية في البادية، ميل الأمويين الأصيل إلى الفن والانجذاب إلى البادية حيث التمتع بهدوء الطبيعة في الصحراء التي عاش فيها آباؤهم ولا شك أن البادية هي التي تبعث منها ملكات العرب الفكرية، ونعني بها ملكات الحس والشعور والخيال وهي مصدر الإلهام بالنسبة للشعراء والحكماء، ولهذا آثرها خلفاء بني أمية ولم تغنهم حياة الترف واللهو في المدن أن

يقصدوا البادية لتنعم فيها بالراحة والهدوء أو الفرار من الطواعين التي تجتاح المدن ولهذا أقاموا معظم قصورهم على أطراف البادية.

وما زالت آثار بعض القصور التي بناها خلفاء بني أمية في البادية باقية حتى اليوم، وأهمها آثار (قصر المشتى) الذي قيل أن الوليد الثاني أقامه على أنقاض قصر غساني في شرق الأردن، ويحيط بالقصر سور خارجي مربع الشكل تدعمه أبراج نصف دائرية قي بدناته وأبراج أسطوانية في الزوايا الأربع ويبلغ طول كل جانب منه ١٤٤متراً والقصر يتكون من مجلس أمامي مزود بغرف بجانبيه وفناء مركزي كبير يتوسطه حوض ماء. أما القاعة الرئيسية فأشبه ما يكون نظامها (بالنظام المستطيل) القائم على ثلاثة أروقة تمتد عمودية على الجدار الرئيسي وكان القصر مزودا ببوابة واحدة يكتنفها على كل من الجانبين برج نصف دائري مطول ويزين الجدران الجانبية واجهة من النقوش الدقيقة حفرت زخارفها في الكسوة الحجرية حفراً غائراً وقد نقلت هذه الواجهة مع الأسف بزخارفها ونقوشها المكتظة إلى متحف الدولة برلين.

وإلى الخليفة الوليد الثاني أيضا يرجع الفضل في بناء قصر خربة المنية الذي يقع إلى الشمال الغربي من بحيرة طبرية، ويذكر المؤرخون أن هذا الخليفة قام ببناء قصر القسطل أيضا الذي يبعد نحو عشرين ميلا جنوبي عمان، ويشير المؤرخون أيضا إلى انه كان ينزل بالقصر الأزرق ببادية الأردن ويقع بين أرض بلقين وفزاره على ماء يقال له الأغدق.

ومن القصور التي تنسب إلى الخليفة هشام بن عبد الملك قصر خربة المفجر ويقع على بعد ثلاثة أميال شمال أريحا قريبا من البحر الميت وكان قصرا شتويا تزدان جدرانه رسوم آدمية وحيوانية والى الخليفة هشام أيضا ينسب قصر الحير الغربي الواقع على بعد أربعين ميلا إلى الجنوب الغربي من تدمر،

ولعلـــه نفـــس القصر الذي ذكره الطبري باسم الزيتونة وهناك بقايا قصر يسمى الحـــير الشـــرقي يقع على بعد أربعين ميلا إلى الشمال الشرقي من تدمر ينسب بناؤه إلى نفس الخليفة.

ومـــن القصـــور التـــي تنســـب إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك القصر المعـــروف بقصـــر عمره الذي يقع على بعد خمسين ميلاً من عمان، وهو بناء صـــغير نســـبيا يقع على حمام وقاعة للاستقبال تنفذ على الجانب الجنوبي منها غرفـــتان مـــن الجانبيـــن أشـــبه بالمخدعين وقد ازدانت ارض الغرف والقاعة بالفسيفساء التي تمثل زخارف نباتية أما الغرف الأخرى فكانت مكسوة بالرخام، وتزدان جدران الغرف بصور ملونة من النوع المعروف بالفريسكو وكذلك ازدان الحمام بصور ملونة آدمية وحيوانية.



الفصل الثامن

سقوط الدولة الأموية

كان الحزب العلوي من بين الأحزاب العربية المعارضة للخلافة الأموية، فهـو يـرى أن أبـناء علي بن أبي طالب هم أحق الناس بالخلافة وقد عبر عن معارضته للأمويين بعدة ثورات منها ثورة الحسين بن علي وحفيده زيد بن علي.

ثـم ظهر فرع من الحزب العلوي نقل الإمامة من العلويين أبناء فاطمة بنـت الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى محمد بن الحنيفة وهو ابن الإمام علي ابن أبي طالب من غير فاطمة (رضي الله عنها) ثم انتقلت الإمامة بعد موت ابن الحنـيفة إلى ابنه ابن هاشم عبد الله بن محمد بن الحنيفة الذي تنسب إليه الفرقة الهاشـمية، وقـد جمـع أبو هاشم حوله الأنصار والمؤيدين وتسلم منهم الخمس والهدايا. وكان حركته سرية.

وكـان أبـو هاشـم يزور الأمويين فيستقبلونه بترحاب، لكن الأمويين وضعوا عليه عيونا يتتبعون حركاته وسكناته، وتروي معظم المصادر التاريخية أنه في سنة ٩٧هـ/٧١٥م أو ٩٨هـ/٧١٦م كان أبو هاشم في طريق عودته من الشـام إلى الحجاز بعد زيارة لسليمان بن عبد الملك وكانت حالته الصحية على غير ما يرام، إما بسبب مرض طارئ أو بسبب سم دسه له سليمان بن عبد الملك أو بسبب طبيعي وكان في منطقة الشراه لذا فقد أمر أصحابه أن يعرجوا به إلى الحمـيمة مقـر العباسين ومركز دعوتهم فأوصى هناك لمحمد ابن علي العباس وجعلـه إماما للحركة السرية الهاشمية إذ لم يكن لأبي هاشم ولد ولذلك فقد أمر اتـباعه باتخاذ محمد بن علي العباسي إماما فهو أعلم من غيره، وأنه درس على يده.

لـم تذكـر المصـادر التاريخية أن عبد الله بن العباس كان طموحاً من الناحـية السياسية وكانت علاقته بالعلويين حسنة جدا وقد ظهر الطموح السياسي للبيـت العباسي بظهور علي بن عبد الله بن العباس الذي كان نشطا من الناحية

السياسية وقد نظرت إليه الخلافة الأموية بعين الحذر إلا أن عبد الملك بن مروان كان يتودد إليه لأنه كان يرى بأن التصادم معه ربما يؤدي إلى ازدياد شهرته بين الناس، ولكن الوليد بن عبد الملك سجنه وضربه بالسياط ثم نفاه إلى الشراه فاتخذ الحميمة مكان لإقامته، وبعد وفاته سنة ١١٨هـ/٧٣٦م ظهر ابنه محمد كشخصية قوية بين العباسيين ومحمد هذا هو الذي أوصى له أبو هاشم بوصيته المشهورة وأعلمه أسماء دعاته وأتباعه، وبهذا انتقلت القيادة من العلويين إلى العباسيين.

ويذكر المسعودي أن أبا هاشم أوصى إلى علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، وأن علي بن عبد الله أوصى إلى ابنه محمد بن علي وأن محمد أوصى إلى ابنه إبراهيم الإمام المقتول بحران وأن إبراهيم أوصى الى أخيه أبي العباس بن عبد الله بن الحارثية.

وعلى الأرجح فإن هذا التنازل كان لمحمد بن علي لا لأبيه علي، ذلك لأن محمد بن علي كان تلميذا وصديقا لأبي هاشم ولم يكن أبو هاشم ميالا لعلي ابن عبد الله وأن للوراثة الروحية أثر في ذلك التنازل ومن المحتمل أيضا أن عليا العباسي لم يشأ أن يورط نفسه وهو رجل كبير السن بأمور كالتي سبق ذكرها يضاف إلى ذلك المنافسة وعدم الوئام بين الفرع الفاطمي والفرع الحنفي من الحزب العلوي.

وبعد وفاة أبي هاشم وفد الدعاة العرب القاطنين في خراسان على محمد ابن علي العباس وربما كان الوفد قد وصل في حدود عام ١٠٠هـ على حد قول الطبري ثم رجع الوفد إلى خراسان وانتخبوا أثني عشر نقيبا من أنصارهم وأرسلوا أسماء النقباء إلى محمد بن علي ويذكر الطبري أن أعضاء الوفد

اخـــتاروا ســبعين آخرين مساعدين لهم. وكان النقباء ينتمون إلى مختلف القبائل العربية وهم:

'- من تميم: القاسم بن مجاشع وعيسى بن كعب، لاحظ بن قريظه وموسى بن كعب.

١- من شيبان: خالد إبراهيم الذهلي.

٢- من طيء: قحطبة بن شبيب.

٤- من خزاعة: سليمان بن كثير، مالك بن الهيثم، طلحة بن زريق، زياد بن صالح.

٥- من بجيلة: أسلم بن سلام.

٦- ومولى حنيفة: شبل بن طهمان.

ويتضح من أسماء النقباء أعلاه أن أحد عشر نقيبا كانوا من العرب و نقيبا واحدا كان من الموالي وهذا يؤكد الدور القيادي الهام الذي اضطلع به العرب في قيادة الدعوة العباسية وتنظيمها.

ثــم اخـــتار الدعاة من بقية السبعين ٥٨ رجلاً من عرب مرو وخراسان وهناك دعاة الدعاة وهم مسؤولون عن تنظيم الدعوة خارج خراسان وكان عربا أيضا.

وقد ظن بعض المؤرخين أن اصطلاح أهل خراسان يعني السكان الفرس المحليـيـن إلا أن المؤرخـيــن والـــرواة المسلمين أطلقوا عدة اصطلاحات (أهل البصرة) و(أهل الشام) و(أهل الكوفة) و (أهل خراسان) على القبائل العربية التي ســكنت هــذه الأمصار، وقد فهم مؤرخون آخرون من اصطلاح (سكان القرى) التي يستعملها بعض الرواة والمؤرخين أنهم سكان بلاد محليين من الفرس الذين

يتعاطون الزراعة إلا أنه من الملاحظ بأن العرب وخاصة المستوطنين منهم في خراسان سكنوا القرى وامتهنوا الحرف، ويؤكد المؤرخون الأوائل صفة غير العربي من أهل خراسان حين يذكرونه بنعته بكلمة من العجم فيقولون مثلا عن شخص ما (رجل من أهل خراسان العجم) وقد ورد في كتاب الإمامة والسياسة وجود عشر آلاف رجل مع أبي مسلم من أهل خراسان سوى العجم.

ولم يمض وقت طويل حتى نقل العباسيون مركز نشاط الدعوة إلى المستوطنين العرب في خراسان مع الاحتفاظ بالكوفة كنقطة ارتباط بين مرو والحميمة ويذكر الدوري أن الدافع الرئيس الذي حدا بمحمد بن علي إلى اختيار خراسان مركزا لنشر الدعوة العباسية يرجع إلى سوء الحالة الاقتصادية والاجتماعية في خراسان.

ويرى عمر أن أسباب ذلك كثيرة تتلخص في إرسال الولاة الأمويين أربعة أخماس الغنيمة من خراسان إلى دمشق مما أدى إلى معارضة القواد والشيوخ العرب الذين أصروا على الاحتفاظ بأربعة أخماس الغنيمة وهو حقهم، وأن سياسة التجمير أي إبقاء القوات العربية على حدود العدو وعدم فسح المجال لهؤلاء لقضاء مدة كافية بين عوائلهم، وتسليط الدهاقين على العرب المستقرين في القرى لجباية الضرائب في حين كان العرب يرون أن الواجب يقضي إعفائهم من الضرائب لأنهم عرب ومسلمون كما وأنهم استاءوا لتسليط الدهاقين الفرس عليهم، يضاف إلى ذلك حذف أسماء طائفة من المقاتلة العرب من الديوان، وروى الطبري ما يؤيد قول عمر، قال الطبري: مر هشام ابن عبد الملك واليه على خراسان (الجنيد بن عبد الرحمن) يقرض العطاء إلى ١٥ ألف مقاتل من بين مجموع الحامية البالغ عددها ٤٠ ألف مقاتل ولم يكن هناك على أحسن تقدير أكثر من ١٦٠٠ مقاتل من الموالي النبقية من العرب.

ويـبدو أن السياسة الأموية في دمج العرب المستوطنين واختلاطهم مع السـكان الإيرانييـن المحلييـن حيث وقع الجانبان تحت نفس الأخطاء السياسية والاقتصادية وكان سبب تذمرهم واحدا هو خطأ في سياسة الأمير الأموي وجشع الدهقـان الفارسي كل ذلك ادى إلى تذمر سكان خراسان من عرب وموال إذ لم تقتصر الحالة السيئة على الموالي وحدهم.

وقد استغل الدعاة العباسيون الذين انتشروا في المدن والقرى التي استقر فيها المقاتلة العرب أو استوطن فيها العرب أسباب التذمر التي يعاني منها هؤلاء محاولين كسبهم بشتى الوعود والوسائل منددين بالأمويين مثيرين الحساسية بين المقاتلة أصحاب الامتيازات وغير المقاتلة الذين حذفت أسمائهم من الديوان وبين العرب القدماء وبين من هاجروا حديثا إلى خراسان مستفيدين من تصادم مصالح هذه الكتل المختلفة.

أما ما قيل عن وصية الإمام محمد بن علي العباسي لدعاته وتأكيده على خراسـان فربما كانت من وضع جماعة من أنصار الدعوة للتدليل على رجاحة عقل محمد بن علي وعبقريته في اختيار أحسن الأماكن مركزا لدعوته ولما كانت الدعـوة العباسية وارثة للهاشمية التي كان لها أنصارها في خراسان قبل الدعوة العباسـية فإن الأخيرة ركزت جهودها على خراسان، وقد أوصى محمد بن علي دعاته أن يستتروا وأن يتزيوا بزي التجار ويدعوا إلى الرضا من آل محمد ومع ذلـك فإن السلطة الأموية شعرت بوجود تنظيم سياسي ضدها، ففي سنة ١٠٩ هـ/٧٢٧م ألقـى أسد بن عبد الله القسري والي خراسان القبض على زياد بن محمد وكان المسؤول عن الدعوة في منطقة مرو وأمر بإعدامه مع عشرة رجال وصـبيين عفا عن أحدهم وأعدم الآخر، وكان لهذا الحادث أثره على الدعوة فقد أرسل محمد بن علي خداشا وكان رجلاً كوفيا لإعادة تنظيم الدعوة العباسية.

ويذكـــر أن خداشا لم يتورع في إدخال أراء غير إسلامية متطرفة فظهر بواجهـــة إســـلامية للـــبعض وبواجهة متطرفة خرمية للبعض الآخر مما أكسبها مـــرونة وجلب لها الاتباع، ويذكر الطبري أن خداشا تكذب وأظهر دين الخرمية ودعـــا إليه ورخص بعضهم في نساء بعض وأخبرهم أن ذلك عن أمر من محمد ابـــن علـــي ولذا فقد تبرأ الإمام العباسي من خداش وأرسل بدله بكير من ماهان الذي نظم الدعوة العباسية تنظيما محكما، فقسم الأتباع إلى نقباء وكانت الأكثرية الســـاحقة منهم عربا يرأسهم شيخ النقباء والقائم بأمر خراسان سليمان ابن كثير الخزاعي وكان ذلك سنة ١١٨هـ/٧٣٦م وأكد على وجوب بقاء الشعارات العامة وهـــي الدعـــوة للرضـــا مـــن آل البيت والتنديد بظلم الأمويين وجورهم والثأر للمظلومين من آل البيت الذي لهم الحق بالخلافة.

وفي سنة ١٢٠هـ/٧٣٨م عين نصر بن سيار الكناني واليا على خراسان وقـــد اســـتمرت ولاية نصر على خراسان حتى نهاية الدولة الأموية بالرغم من محـــاولات يوسف بن عمر والي العراق لاستعادة سيطرته على خراسان وقد قام نصر بتغيير النظام الضرائبي في خراسان فقد فرض الخراج على الأرض مهما كانـــت جنسية الشخص المالك وفرض الجزية على أهل الذمة فامتعض الدهاقون وأتـــباعهم الذين كانوا معفيين من الضرائب وكان العرب أول من تذمر من هذه السياسة لأن المسلم لا يدفع ضريبة الخراج على الأرض إنما يدفع العشر فقط.

نشطت الدعوة العباسية في عصر هشام (١٠٥-١٢٥هـ/٧٢٣-٧٤٢م) بفضـــل قيادة وإشراف محمد بن علي إلى أن مات سنة ١٢٤هـ/٧٤١م. وعندما كـــان محمد بن علي في مرضه الأخير زاره بكير بن ماهان بالشام من أرض الشراه فعرفه محمد بابنه إبراهيم وقال له هذا إبراهيم سيقودكم وبعد الوفاة ذهب بكـــير مـــن ماهان إلى خراسان ومر في طريقة بالكوفة وفيها أمر كبار مؤيدي الدعوة وأنصارها أن يتوجهوا إلى إبراهيم ليتعرفوا عليه.

توجه وفد من أهل الكوفة لزيارة إبراهيم الإمام وقد ضم الوفد الذي زار إبراهيم الإمام من جملة ما ضم صبيا واسمه عبد الرحمن الخراساني والذي كني فيما بعد (أبو مسلم) والراجح أن الدعاة قد تعرفوا عليه في سجن الكوفة، فإن صحت هذه الرواية فهذا يعني أن انضمام أبي مسلم للدعوة العباسية كان في أواخر عام ١٢٤هـ/٧٤١م ولم يتعرف أبو مسلم على محمد بن علي بل تعرف على ابنه إبراهيم الإمام، وقد أبقاه إبراهيم الإمام إلى جانبه إما للاختبار أو لتلقينه مبادئ الدعوة العباسية وخاصة وأن إبراهيم وجد فيه الإندفاع والحماسه للدعوة ثم أرسله إبراهيم لتولي قيادة الدعوة في خراسان وذلك سنة ١٢٨هـ/٧٤٥م والتاريخ الأخير هو بداية الدور العلني للدعوة العباسية.

وفي سنة ١٢٥هـ/٧٤٣م عين أبو سلمة الخلال (حفص ابن سليمان) رئيسا للدعوة العباسية في الكوفة ثم قام أبو سلمة بزيارة خراسان حيث زار جرجان والتقى بالمسؤول عن الدعوة فيها وهو أبو عون (عبد الملك بن يزيد الأزدي) وهو يومئذ رئيس القوم، وفي مرو التقى بسليمان الخزاعي وأرسل مجاشع بن هريث إلى ما وراء النهر.

أما أبو مسلم فلم يقبله سليمان بن كثير الخزاعي في خراسان في أول الأمر حيث طرده ولم يقبله بين صفوف الدعاة ولكن نفور بعض الدعاة أمثال أبي منصور طلحة بين زريق وأبي داود خالد بن إبراهيم وغيره من كبرياء سليمان هو الذي دعاهم إلى قبول الشخص الغريب أبي مسلم فاضطر سليمان إلى الإعتراف بأبي مسلم خوفا من انشقاق الثورة وتصدعها.

ولعل عدم قبول سليمان لأبي مسلم في بداية الأمر يعود إلى صغر سن أبي مسلم وقلة تجربته التي قد تعرض الدعوة إلى الخطر يضاف إلى ذلك أن

سليمان طلب من إبراهيم أن يبعث له ممثلا من أهل البيت أي من الهاشميين وخاصة العباسيين ولم يكن يتخيل أنه سيرسل له مولاه ليمثله في خراسان.

إن أهم ما قام به هو اختيار اللون الأسود شعارا للعباسيين لأن هذا اللون كان راية الرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما دخل مكة وكذلك فقد كان علي بن أبي طالب يرفع الراية السوداء في بعض حروبه.

وفي سنة ١٢٧هـ/٧٤٤م تسلم مروان بن محمد الخلافة الأموية بعد أن زحف بجيش من الجزيرة مدافعا عن حق أبناء الوليد الثاني المقتول، ولكن سرعان ما أعلن نفسه خليفة بعد أن قتل أبناء الوليد في دمشق في ظروف غامضة، ولم يكن مروان مستندا على أسس شرعية في دعوته بالخلافة حيث لم يكن له حق شرعي فيها، ورغم أن أهل الشام لم يبدوا معارضة في بادئ الأمر فإن التذمر بدأ ينمو وقويت المعارضة من قبل الأمراء الأمويين أنفسهم وثارت مصر والحجاز والجزيرة وسورية واليمن، ولقد ساعد هذا الوضع المتدهور الدعاة العباسين على تركيز نشاطهم خلال سنة ١٢٨-١٢٩هـ/٧٤٥-٧٤٦م وخاصة في القرى التي يسكنها العرب في أطراف مرو وغيرها.

إن سند الدعاة العباسيين جاءِ من العرب المستقرين في مرو وضواحيها الذين أدركوا بأن لا مفر من الثورة من أجل تغير جذري لا في خراسان نفسها بل في كل الإمبراطورية هذا رغم وجود بعض الموالي ضمن انصارهم.

وقد أدرك الدعاة العباسيين بأن العرب وحدهم مصدر للسلطة والقوة الوحيدة في خراسان ومن أجل إنجاح الثورة يجب اولا كسبهم إلى الدعوة ولم يفضل الدعاة العباسيون في بداية الدعوة قبيلة عربية على أخرى بالرغم من أنهم حصلوا على مساعدة من اليمانية أكثر من المضرية إلا أنهم كانوا دائما يرحبون بالمضريين الذي يرغبون بالانضمام للدعوة العباسية.

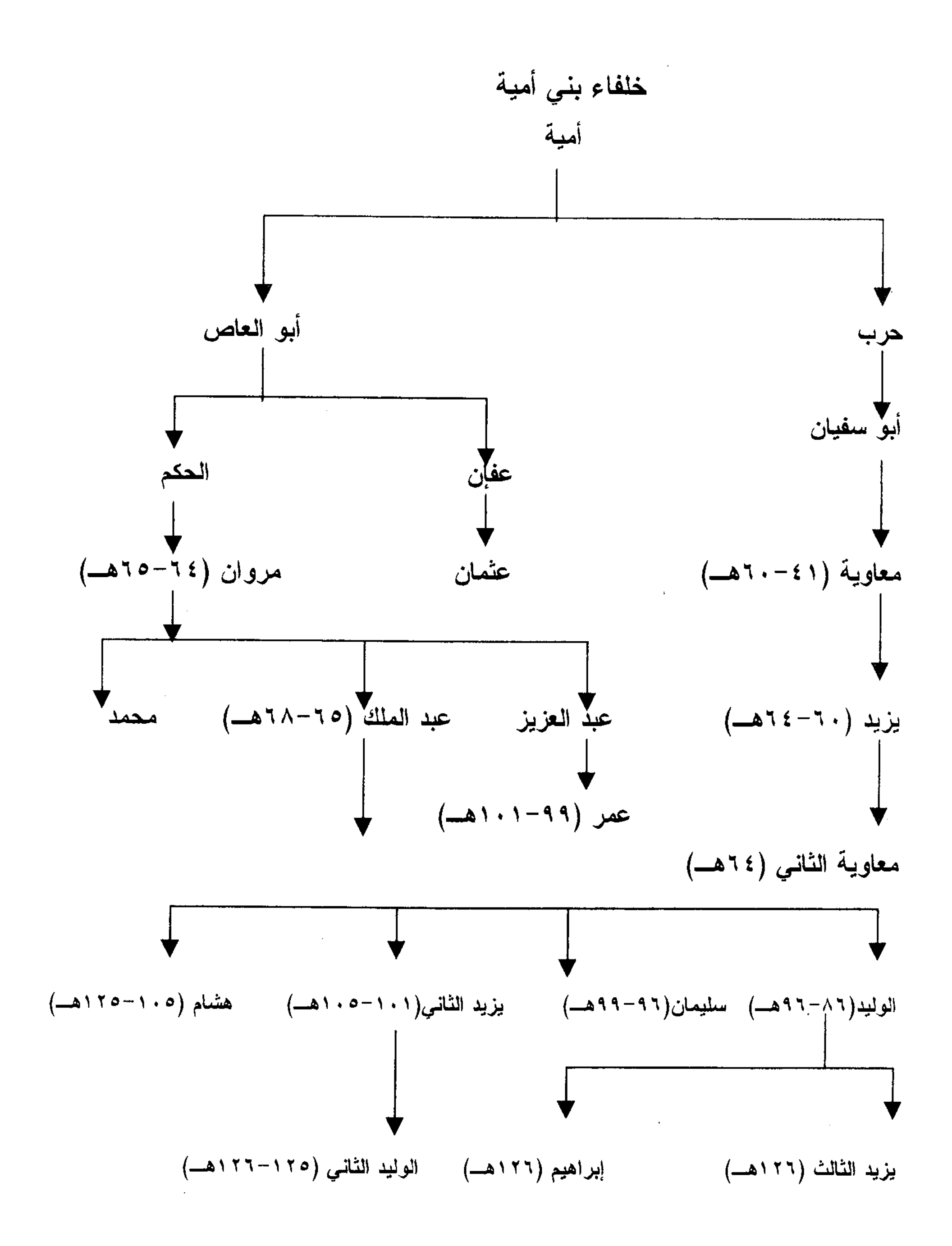
وجـــاء أمر إبراهيم الإمام إلى سليمان الخزاعي بضرورة إعلان الثورة، فأعلنت في ٢٥ رمضان سنة ١٢٩هـ/حزيران ٧٤٧م، وفي سنة ١٣٠هـ/٧٤٧م تمكـــن الخلـــيفة مـــروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية من إلقاء القبض على إبراهـــيم وسجنه، ومات إبراهيم في السجين في محرم ١٣٢هـ/٧٤٩م وكان قد أوصى قبل وفاته بأن يكون أخوه أبو العباس إماما للدعوة العباسية من بعده حيث أعلن ذلك في جمع من الهاشميين ومواليهم.

واســـتمر الدعـــاة برئاسة سليمان الخزاعي على عملهم بنشاط وعزيمة فتمكـــنوا مـــن الســـيطرة علـــى مرو وتمكن القائد قحطبة بن شبيب الطائي من الاســـتيلاء على خراسان التي انطلقت جيوش العباسيين منها إلى الري ثم ساروا إلـــى نهـــاوند وســـيطروا علـــيها وبذلك اصبح الطريق مفتوحا أمامهم لدخول العراق، وفي سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م عبر الجيش العباسي الفرات نحو الكوفة حيث انتصر على الجيش الأموي الذي كان يقوده ابن هبيره وقد استنجد نصر بن سيار بالأمويين في دمشق وحذرهم من خطر العباسيين ولكن مروان كان مشغولا بقمع الثورات المتعددة وطلب نصر النجدة من يزيد بن عمر والي العراق لكن الأخير اعـــتذر بعدم وجود قوات إضافية عنده وتظاهر بانشغاله بقمع الاضطرابات في العراق كما أنه ادعى بأن أهل العراق لا يمكن الثقة بولائهم للأمويين.

وزحـــف الجيش العباسي بقيادة عبد الله بن علي إلى الزاب حيث تخندق مـــروان بـــن محمـــد بين دجلة والزاب الكبير، وكان جيشه مؤلفا من أهل الشام والجزيـــرة كمـــا انضم إليه البدو واستمرت المعركة عشرة أيام وارتكب مروان خطـــأ اســـتراتيجيا كبـــيرا بعبوره إلى الساحل الأيسر من الزاب الكبير فقد فقد ســـيطرته وموقعه الحصين ولذلك خسر المعركة وانسحب باتجاه الموصل التي أغلقـــت أبوابها بوجهه فاضطر للانسحاب نحو الشام يتبعه عبد الله بن علي ومن الشـــام هـــرب إلى فلسطين فمصر يتبعه عبد الصمد بن علي وقد فوجئ مروان

وهــو مختف في إحدى كنائس قرية بوصير بالجيش العباسي فقتل وهو يحارب في ذي الحجة سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م.

ملحق رقم (١)


خلفاء بني أمية
أمية
أبو العاص
حرب
أبو سفيان
الحكم
عفان
مروان (٦٤-٦٥هـ)
عثمان
معاوية (٤١-٦٠هـ)
محمد
عبد الملك (٦٥-٨٦هـ)
عبد العزيز
يزيد (٦٠-٦٤هـ)
عمر (٩٩-١٠١هـ)
معاوية الثاني (٦٤هـ)
هشام (١٠٥-١٢٥هـ)
يزيد الثاني(١٠١-١٠٥هـ)
سليمان(٩٦-٩٩هـ)
الوليد(٨٦-٩٦هـ)
الوليد الثاني (١٢٥-١٢٦هـ)
إبراهيم (١٢٦هـ)
يزيد الثالث (١٢٦هـ)

معاوية بن أبي سفيان (٤١-٦٠هـ):

ولد معاوية بن أبي سفيان قبل الهجرة بحوالي خمسة عشر عاما، ودخل الإسلام يوم فتح مكة مع من دخل من أهل مكة وكانت سنه آنذاك ٢٣ عاما، وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) حريصا على أن يقرب إليه حديثي العهد بالإسلام من عظماء الأسر حتى يضمن إقبالهم على هذا الدين ويتيح لهم الفرصة ليستعمق الإسلام في قلوبهم، وعلى هذا قرب الرسول (صلى الله عليه وسلم) إليه معاوية وضمة إلى كتاب الوحي، وقد روى معاوية عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعن كبار الصحابة وعن أخته زوجة رسول الله حبيبة بنت أبي سفيان، كما روى عنه سعيد بن المسيب وآخرون.

وكان يزيد بن أبي سفيان قائد أحد الجيوش الأربعة التي وجهها الخليفة أبو بكر الصديق لفتح الشام وكانت وجهته دمشق ولما أراد الخليفة أن يرسل مددا لهذه الجيوش كان معاوية على رأس المدد الذي أرسل ليزيد، وحارب معاوية تحت إمرة أخيه وتولى قيادة الفيلق الذي فتح صيدا وبيروت وغيرهما من سواحل الشام، ولما تم النصر للمسلمين في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ولى الخليفة عمر يزيد ولاية دمشق كما جعل معاوية واليا على الأردن، وتوفي يزيد في طاعون عمواس في عهد الخليفة عمر، فضم عمر إلى معاوية ولاية دمشق ولما جاء عهد الخليفة عثمان جمعت لمعاوية ولاية الشام كله، وأصبح حكامه تحت أمره يوليهم ويعزلهم وظل أميرا عشرين عاما كما أصبح بعد ذلك خليفة عشرين عاما.

لقد عارض معاوية خلافة علي، ووجد العذر الذي يظهره وهو أنه ولي دم عثمان، وأن عليا تهاون في الدفاع عن عثمان، وبدأت سلسلة من المعارك أهمها، معركة صفين (٣٧هـ/٦٥٧م) التي هزم فيها معاوية في ميدان القتال

وكان من نتائج معركة صفين أن ضعف الوضع العسكري والسياسي للخليفة علي ابن أبي طالب فقد حاربه الخوارج بشدة وتراخى أهل البصرة عن تأييده وكان أهل الكوفة معه بآرائهم فقط، كما تمردت بعض الولايات الفارسية وحاول أهل كرمان وفارس الامتناع عن دفع الخراج.

وفي سنة ٤٠هـ/٦٦٠م عقدت هدنة قصيرة بين الخليفة علي ومعاوية إذ اتفقا على أن يكون العراق تحت حكم الخليفة علي والشام تحت حكم معاوية ولا يتدخل أحدهما في شؤون الآخر ولا غارة ولا غزو بينهما. وفي السنة نفسها أعلن معاوية نفسه خليفة للمسلمين وأخذ البيعة من أهل الشام وبذا يكون معاوية قد تحدى الخليفة علي فقرر إعداد حملة لمحاربة معاوية لكن استشهاده حال دون ذلك وبعد استشهاد الخليفة علي بايع أهل الكوفة وما جاروها الحسن بن علي.

وفي سنة ٤١هـ/٦٦١م دانت الأمة العربية الإسلامية لمعاوية بن أبي سفيان، إذ أن الحسن بن علي حينما رأى ضعف أنصاره وقلة إخلاصهم لقضية تنازل عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان رغم معارضة أخيه الحسين وعقدت معاهدة بين الطرفين التزم فيها معاوية أن يعمل بكتاب الله وسنة الرسول وأن تكون الخلافة له مادام حيا ويكون الناس آمنين حيث كانوا من أرض الله وأن لا يولي أحدا بعده.

ولكي يوطد معاوية دعائم خلافته، اعتمد على مجموعة من الولاة الكفوئين في تذليل المشاكل والقضاء على الثائرين ضده، وتثبيت حكمه في الولايات وأبرز هؤلاء الولاة عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه.

ولم يبق معاوية في الحجاز مثل الخلفاء الراشدين بل أقام في الشام، واتخذ دمشق عاصمة لخلافته وقد ابتكر معاوية في خلافته أشياء لم يسبق إليها

فهو الذي أمر أن ترفع الحراب بين يديه وهو الذي وضع المقصورة ليصلى بها في المسجد ليأمن هجمات الأعداء حين صلاته. ومن مبتكرات معاوية كذلك ترفيه نظام البريد بحيث كانت الخيل المضمرة تقف مستعدة في مراكز على طول الطريق، فيركب صاحب البريد واحدا منها ويسرع به حتى يصل إلى محطة أخرى فيستبدل به غيره ويتركه ليستريح وهكذا، وأنشأ معاوية كذلك ديوان الخاتم.

ويذكر أن عهد معاوية كان من أنضر عهود الخلافة الإسلامية، كان فيه الأمن الداخلي مستتبا، فقد غلبت على أمرها كل العناصر المعادية لمعاوية، غلبت بعطائه أو بسيفه وكان عهده حافلا بالرخاء والغنى، أما العلاقات الخارجية فقد كان للمسلمين فيها النصر والغلبة.

يزيد بن معاوية (٦٠-٦٤هـ):

هو يزيد بن معاوية وأمه ميسون الكلبية، وهي امرأة بدوية تزوجها معاوية قبل أن يلي الخلافة ولكنها لم تحتمل حياة الحضر فأعادها معاوية إلى أهلها ومعها ابنها يزيد فنشأ هذا في البادية حيث أجاد اللغة والأدب والصيد بقدر ما جهل الخداع والسياسة والإدارة.

لقد حاول معاوية أخذ البيعة لابنه يزيد وهو على قيد الحياة وقد واجهت معاوية صعوبات في هذه المحاولة الرامية لحصر الخلافة في عائلته من هذه الصعوبات التقاليد الإسلامية التي تؤكد بأن الحكم لله يحمل أعباءه أفضل المسلمين وهو ليس ملكا بشريا يتوارثه الناس ولا تبيح التقاليد العربية انتقال الرئاسة من الأب إلى الابن رغم أنها تبيح ذلك داخل القبيلة أو العشيرة يضاف إلى ذلك أن الغالبية العظمى من المتدينين لم تكن تميل إلى يزيد لعدم توفر

صفات الخلافة فيه ولذا فقد بذل معاوية جهودا لأخذ البيعة من المتدينين واستعمل القوة تارة والمال والدهاء السياسي تارة أخرى.

تولى يزيد الخلافة بعد موت أبيه، وذلك في سنة ٦٠هـ/٦٨٠م وقد كتب يزيد إلى سائر الأمصار بتوليته فبايعته إلا أنه امتنع عن مبايعته اثنان عظيمان الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وهما من النفر الذين رفضوا مبايعته بولاية العهد، وعلى الرغم من أن يزيد طلب من عامله على المدينة إلزامهما بمبايعته فإنهما رفضا وتمكنا من مغادرة المدينة والذهاب إلى مكة في أواخر رجب ٦٠ هـ/٦٨٠م.

ذهب الحسين بن علي إلى الكوفة حيث قاد ثورة ضد يزيد وظل عبد الله ابن الزبير في مكة ثم استغل مقتل الحسين للتشنيع على أهل الكوفة وعلى حكم بني أمية وللتعريض بيزيد.

لقد كان حكم يزيد حوالي ثلاث سنوات فقط، ولم يهنأ يزيد بالخلافة يوما واحدا، فقد ثارت في وجهه الأحداث ، فأخذ يعالجها ولكن العلاج كان أقسى من الداء ثار في وجه الحسين، فقتله له عبيد الله بن زياد وكان قتله بابا من الشر على بني أمية لم يقفل قط وثارت عليه المدينة فكانت موقعة الحرة المشؤومة التي أراق مسلم بن عقبة فيها دماء مئات من الصحابة ومن ابنائهم فجلب ذلك الفعل سخط المسلمين على يزيد وثار عليه ابن الزبير بمكة فأرسل جيشا رمى الكعبة بالمنجنيق.

توفي يزيد بن معاوية في سنة ٦٤هـ/٦٨٣م وقد لجأ إلى المبايعة المبكرة لأكبر أبنائه الذي سماه معاوية على اسم أبيه وقد كان معاوية بن يزيد صغير السن ولم يتجاوز عمره سبع عشر سنة.

معاوية الثاني بن يزيد (٦٤هـ):

لقد بايع أهل الشام لمعاوية الثاني بعد موت أبيه ولكن عبد الله بن الزبير كان قد أعلن نفسه خليفة في عهد يزيد وما يزيد قبل القضاء على ابن الزبير ولما مات يزيد كبر أمل ابن الزبير في النجاح، وجاء معاوية الثاني في هذه الظروف فأدرك أنه لا قوة له للاشتراك في هذا الصراع فجمع الناس بالمسجد وخطب فيهم خطبة قال فيها: إني قد ضعفت عن أمركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حيث استخلفه أبو بكر فلم أجده، فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم، فما كنت لأتزودها ميتا وما استمتعت بها حيا.

ولم تطل خلافة معاوية الثاني أكثر من أربعين يوما ثم تنازل عن الخلافة وانزوى في بيته حتى مات بعد ثلاثة أشهر، وانتهت بذلك صفحة معاوية الثاني من التاريخ وانتهى بانتهائه العهد السفياني وبدأ العهد الأموي الثاني وهو عهد بني الحكم بن أبي العاص ابن أمية ويروى أن عبد الملك بن مروان كان يرى أن سرعة نهاية الفرع السفياني جاءت نتيجة لقتل الحسن بن علي ولذلك كتب إلى الحجاج يقول: جنبني دماء بني عبد المطلب فليس فيها شفاء الحرب وإني رأيت في حرب تداعى ملكهم لما قتلوا الحسين بن علي.

مروان بن الحكم (٦٤-٦٥هـ):

هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، ويذكر أن عمره كان ثماني سنين عندما توفي الرسول (صلى الله عليه وسلم) والأرجح أنه رحل مع أبيه الحكم بن العاص إلى المنفى حينما طرده النبي خارج المدينة بسبب أنه كان يفشي أسراره ولم يحسن إسلامه، فبقي في منفاه في حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وخلافة أبي بكر وعمر إلى أن رده أخوه عثمان إلى المدينة وقد تولى

مــروان المدينة لعثمان واشترك في حملة ابن أبي سرح على أفريقية فكتب لــه الخلـيفة بخمـس غـنائمها ممـا جعل الناس ينكرون على عثمان تبذيره أموال المسـلمين علـى أقربائه وبعدئذ نجد مروان يقاتل عن عثمان أثناء حصاره يوم الـدار، وبعـد مبايعة علي خرج مروان من المدينة مع طلحة والزبير وعائشة مطالبا بدم عثمان فقاتل معهم في موقعة الجمل.

ثـم أخذ مروان الأمان من علي وبايع له ورجع إلى المدينة ولم يزل بها حـتى حصـل معاوية على الخلافة وقد تولى مروان لمعاوية عمل الحجاز عدة مـرات وأتخذ في المدينة دار العباس وجعلها دارا لإمارته فعرفت لوقت طويل باسـمه (دار مروان) ولما خلع أهل الكوفة بيعة يزيد ووثبوا ببني أمية وأجلوهم خـرج مـروان معهم، وان عاد إليها بعد موقعة الحرة مع جيش مسلم بن عقبة ويظهـر أن آل مـروان كـانوا خير عون لمسلم، فكتب يزيد إليه يشكره على معاونته لجيشه ويدعوه إلى الشام لينتفع بنصحه فقدم مروان عليه ولم يزل بالشام إلى أن ولى الخلافة في ذي القعدة سنة ٦٤هـ/٦٨٤م.

كـان أمـام مـروان صراع طويل أوله صراع بالشام مع القيسية الذين يقودهم الضحاك بن قيس وبعد ذلك يخرج الصراع إلى العراق والحجاز ومصر وغيرها وقد حصلت موقعة كبيرة بين الضحاك وبين مروان في مرج راهط في سـنة ٦٥هـــ قـتل فيها الضحاك وكثيرون من قومه وفر بعدها النعمان وزفر وخلت الشام بذلك لمروان وبعدها سار إلى مصر فافتتحها وبايعه أهلها وترك بها ابنه عبد العزيز واليا عليها.

وأرسـل عمـرو بـن سعيد بن العاص الأشدق إلى فلسطين حيث كان مصـعب بـن الزبير قد زحف عليها فانتصر عمرو في هذه المعركة وعاجلت المنـية مروان قبل أن تظهر نتيجة الصراع الذي بدأ في الحجاز والعراق فمات

فـــي رمضان سنة ٦٥هـــ بعد أن عهد بالخلافة من بعده لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيـــز، وخالف بذلك ما جاء في مؤتمر الجابية الذي كان ينص على أن تكون الخلافة لمروان ومن بعده لخالد بن يزيد ثم عمرو بن سعيد بن العاص.

لقد كان لمروان بن الحكم الفضل في الاحتفاظ للأمويين بالخلافة كما أن توليه عهده لاثنين دليلا قويا على رغبته في تفادي ما وقع بعد معاوية الثانـي مما جعل جميع الخلفاء الأمويين بعده يسيرون على نهجه بتوليه عهودهم لاثنين.

عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ):

ولـــد عبد الملك بن مروان في سنة ٢٦هـــ/٦٤٦م وشهد يوم الدار وهو صغير وبعد أن أخذ أبوه الأمان من علي بقي في المدينة فتميزت حياته فيها بحبه للفقهـــاء والعلمـــاء، وقد تولى ديوان المدينة لمعاوية ولما وثب أبناء المدينة ببني أمـــية وأجلوهم خرج منها ولكنه ما لبث أن رجع إليها هو وأبوه مع جيش يزيد الذي تمكن من دخولها بفضل المعلومات الدقيقة التي قدمها بنفسه للقائد مسلم بن عقـــبة وبعـــد إقامة قصيرة، ارتحل إلى الشام مع أبيه، بناء على دعوة يزيد وقد تولى عبد الملك الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٦٥هـــ/٦٨٥م وكان يوصف على أنه شخصية جبارة وشديدة السياسة.

ومـــن أهم الأحداث التي واجهت عبد الملك بن مروان حركة عمرو بن سعيد الأشدق في سنة ٧٠هـــ/٦٨٩م فعندما خرج عبد الملك من دمشق لمحاربة مصـــعب ابـــن الزبير في العراق طلب ابن الأشدق من عبد الملك أن يعينه وليا لعهده ليبر بوعده وكان ذلك في طريقهم إلى العراق، ولكن عبد الملك لم يكترث لذلـــك فترك ابن الأشدق واتباعه في معسكر عبد الملك ليلا عائدا إلى دمشق وقد حاصر عبد الملك ابن الأشدق ستة عشر يوما تمت خلالها مراسلات ومفاوضات

توصل فيها الطرفان إلى اتفاق تم بموجبه استسلام ابن الأشدق ودخول عبد الملك دمشق، غير أن عبد الملك قرر التخلص من ابن الأشدق فدعاه إلى قصره وقتله.

كما كان المختار بن أبي عبيد الثائر في الكوفة عدوا لكل من عبد الملك وعبد الله بن الزبير ولذلك اشترك الاثنان في محاربته، وعندما ولى ابن الزبير أخاه مصعبا على البصرة أمره بتخليص الكوفة فسار بجيش كبير وكانت ضلالات المختار قد ظهرت فتخلى عنه أهل الكوفة فقتله مصعب وقتل من بقي معه وخلص العراق بذلك لابن الزبير.

ولم يهنئا الزبير بالنصر الذي أحرزه ضد المختار، إذ أن عبد الملك سرعان ما سار بنفسه ومعه قادته وجنده إلى العراق والتقى بمصعب وجنده ولكنهم سرعان ما انفضوا من حوله فهزم وقتل وكان الحجاج بن يوسف ضمن قادة عبد الملك في هذه المعركة ولما قتل مصعب استسلم قادته فأمنهم عبد الملك وأبقاهم في مناصب القيادة ومن هؤلاء الملهب بن أبي صفرة الذي أصبح من خيرة القادة للخلفاء الأمويين وكان له دور كبير في القضاء على الخوارج وإبراهيم بن الأشتر الذي كان قد اصطفه مصعب بن الزبير ثم أمنه عبد الملك بعد مقتل مصعب.

ولم يبق أمام عبد الملك إلا الحجاز حول ابن الزبير فأرسل عبد الملك قائده الحجاج لمقاتلته فسار الحجاج سنة ٧٢هـ وحاصر مكة ورماها بالمنجنيق واشتدت الحال على أهل مكة حتى تخلوا عن ابن الزبير واستشار ابن الزبير أمه فيما يفعل فأشارت عليه أن يظل يدافع عن عقيدته حتى يموت كما مات أصحابه فاستجاب لرأيها وصمد في المعركة حتى قتل وعين عبد الملك الحجاج واليا على الحجاز.

ومـــن أعمال عبد الملك المجيدة أنه عرب الدواوين فقد كان ديوان الشام يكتـــب باليونانـــية وكان ديوان فارس يكتب بالفارسية وكان ديوان مصر يكتب بالقبطية فعزم عبد الملك على نقلها جميعاً إلى اللغة العربية وقد تم في حياته نقل ديـــوان الشـــام إلى العربية على يد سليمان بن سعد ونقل ديوان فارس على يد صالح بن عبد الرحمن، أما ديوان مصر فقد تم نقله في عهد الوليد ومن الأعمال المجيدة لعبد الملك أيضا سك النقود الإسلامية سكا منتظما.

وبعـــد أن تغلـــب عـــبد الملـــك على أعدائه عاد إلى حركة الفتوح التي اســـتمرت بعده وامتدت امتدادا هائلا لم يكن يفكر فيه الخلفاء الأوائل ولم تستطع الدولة العباسية التي جاءت بعد الأمويين أن تحتفظ بكل ما فتح في عهدهم.

توفـــي عـــبد الملك بن مروان في شوال ٨٦هـ/٧٠٥م بعد خلافة حافلة بـــالأحداث لمـــدة ٢١ عاما فقضى على الفتن العديدة بشده شكيمته وشخصيته الجبارة وقد عرف بأنه (أبو الملوك) لأنه ولى الخلافة بعده أربعة من ولده أولهم الوليد، فكان يكنى بأبي الوليد.

الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ):

ولـــد الولـــيد سنة خمسين للهجرة، وتلقى بعض الثقافات الإسلامية ولكن ثقافته في اللغة العربية كان ضعيفة فقد كان لحانا وكانت البادية مدرسة لمن أراد أن يتعلم اللغة الفصحى بعيدا عما انتشر بالمدن الإسلامية من لحن بسبب اختلاط العرب بغير العرب، ولكن أباه لم يدعه في لحنه وخطئه بل قال له في حزم: أنه لا يلي أمر العرب إلا من يحسن كلامهم، ولهذا دخل الوليد بيتا وأخذ معه جماعة من علماء النحو وأقام مدة يشتغل فيه.

وكـــان مروان بن الحكم قد بايع لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز، ولكن عبد العزيز مات قبل وفاة عبد الملك فعين عبد الملك ولديه الوليد ثم سليمان سنة

٨٥هـ وكتب بذلك إلى البلدان فبايع الناس ولم يمتنع غير سعيد بن المسيب بالمدينة، ولما مات عبد الملك جدد الناس البيعة للوليد.

لقد ذكرنا سابقا الجهد الكبير الذي بذله عبد الملك ليعيد وحدة العالم الإسلامي والعناء المتصل الطويل الذي استلزم صراعا امتد حوالي عشرين عاما ولكن عبد الملك استطاع أن يحقق أمله وأن يصل إلى غايته وترك لابنه الوليد ملكا مستقرا هادئا متحدا لقد بنى عبد الملك البناء شاهقا وجاء الوليد فزينه وحسنه ونماه.

ومن أعمال الوليد العظيمة أنه تعهد الأيتام وكفلهم ورتب لهم المؤدبين وللأضرار من يقودهم ورتب لهؤلاء جميعا الأرزاق المنتظمة، كما وضع المجذومين في بيت يرعاهم طبيا حتى لا يخرجوا على الناس بعاهاتهم ورتب لهم الأرزاق وأعطى كل مقعد خادما يهتم بأمره وأجرى لهم الأرزاق كذلك.

واهتم الوليد كذلك بالعمران فأنشأ الطرق ومهدها وعمل على إنارة الطرقات في المدن ليلا فكشف ظلمتها الدامسة كما حفر الآبار على طول هذه الطرق ووظف من يعنى بهذه الآبار ويمد الناس بمائها ويروى أن الوليد كان شديد الكلف بالعمارات والأبنية واتخاذ المصانع حتى اشتهر بذلك.

ومن أثار الوليد الخالدة في العمارة المسجد الأموي بدمشق، ويروى أن الوليد لما انتهى من بنائه قال لأهل دمشق: "يا أهل دمشق إنكم تفخرون بأربع؟ بهوائكم ومالكم وفاكهتكم وحماماتكم فأحببت أن يكون مسجدكم الخامس".

ومن أثاره كذلك عمارة المسجد النبوي وقد قام بذلك والي المدينة عمر بن عبد العزيز فهدم البناء القديم بأمر الخليفة وأعاد بناءه بعد أن وسعه بإدخال حجرات أزواج الرسول فيه وكذلك بإدخال دور أخرى اشتريت لهذا الغرض.

لقــد توفي الوليد بن عبد الملك في سنة ٩٦هــ بعد أن عمل على توسيع رقعــة الإســلام إلــى مدى لم تصله من قبله أو بعده بحيث جعل الدولة العربية الإســلامية أشبه بهلال ضخم رأسه عند جبل البرتان والآخر قرب الصين كذلك أقــام للمسلمين أفضل عمائرهم وأجملها وأثبت أن خلفاء الإسلام بناءوه يتمتعون بذوق عال.

سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩هــ):

ولــد سليمان بن عبد الملك سنة ٥٤هــ وبويع له بعد موت أخيه الوليد، وكان الوليد غير راض عن تولية أخيه سليمان الخلافة من بعد بناء على توصية عــبد الملك ويريد أن يولي عهده لابنه عبد العزيز ولكن سليمان أبى التنحي عن ولايــة العهد كما أن كثيرا من الناس لم يجيبوا الوليد إلى تولية عبد العزيز، مما جعــل الوليد لا يتمكن من خلع سليمان، فبويع لسليمان بعده بالخلافة في جمادى الآخر سنة ٩٦هــ/٧١٥م.

وقد ولدت محاولة إقصاء سليمان عن الخلافة في نفسه الحقد والرغبة في الانــتقام مــن هــؤلاء الذين وافقوا الوليد على تنحيته وكان معظمهم من عمال الحجــاج وقواد الفتح، فضلا عن أنه يصفه المؤرخون كان مغرورا معجبا بنفسه فمــا تولى الخلافة حتى أمر عامله بمكة خالد بن عبد الله القسري بشتم الحجاج ونشــر عيوبه وإظهار البراءة منه وعزل سليمان قتيبة بن مسلم الذي كان عاملا للحجــاج على خراسان والقائد المظفر في بلاد ما وراء النهر كذلك أمر سليمان بعزل محمد بن القاسم فاتح السند مع أنه لم يقم بفتنته، وذلك لأنه كان من أقرباء الحجــاج وعامله وأمر يزيد بن أبي كبشة بقتله، وقد كان موت محمد بن القاسم خســارة فادحــة، أبكــت أهل الهند أنفسهم لاحترامه عقائدهم ولعدالته وقد أساء سليمان أيضا معاملة قواد المغرب والأندلس مع أنهم لم يكونوا من عمال الحجاج

أو أقــربائه فلعلـــه حقــد عليهم لأنهم أقاموا موكب النصر في عهـ سلفه، وكان يريدها لنفسه، فلم يعد يسمع أي خبر عن طارق بن زياد كما انتقم من موسى بن نصير بأن وضعه بالحبس وأساء معاملته.

وقـــد عـــرف عن سليمان حبه لقصره الصحراوي في الرملة وإمضاؤه أغلب وقته فيه وكان اتجاها عاما للأمويين قبل سليمان وبعد أن اتخذوا القصور الصحراوية لتنقلهم من ضجيج الحياة بدمشق إلى هدوء الصحراء ونسيمها العليل وجوهــا الصـــحي السليم من الأوبئة ولكن سليمان يمتاز عن غيره بأنه تألق في قصــره بالــرملة فلما تولى الخلافة استكمل القصر أناقته فأصبح كأنه عاصمة صـــغيرة لأن الخليفة بنى مسجدا بجوار القصر وحفر الآبار ومد الأنهار وسمح لكثير من اتباعه بالبناء حول قصره.

علـــى الرغم من نقائص سليمان وحبه لملذاته فإن الفتوحات في عهده لم تقــف فقــد قــام بحصار القسطنطينية الثاني الذي استمر طوال فترة حكمة كما استطاع عامله يزيد بن المهلب الذي ولاه العراق والمشرق، ومن فتح بلاد بحر قزوين التي لم تفتح من قبل.

اســـتمر حكم هذا الخليفة الشاب زهاء ثلاث سنين، وتوفي بدابق في سنة ٩٩هـ/٧١٧م ويبدو أن الناس أحبوه لحبه للحياة، حتى أنهم في زمنه تطبعوا في بطابعـــه أو لأنه أحسن إليهم وأخلى السجون، ولم يستعمل معه الشدة، أما فتوحه وإن لـــم تكن حاسمة أو مثمرة كما هي في عهد سلفه إلا أن حماسه في مد رقعة الإسلام كان لا يقل عن حماس سابقيه من الخلفاء.

عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ):

ولد عمر بن عبد العزيز بالمدينة في سنة ٦٣هـ/٦٨٣م وأمضى شطرا كبـــيرة من حياته فيها، إلى أن استدعاه عبد الملك بعد وفاة أبيه في سنة ٨٥هـ/

٧٠٤م وزوجـــه ابنته فاطمة ولما تولى الوليد الخلافة ولاه إمارة الحجاز في سنة ٨٧هـ/٧٠٦م فكان فيها مثال العامل الرحيم على عكس ما كان في بقية العمال فـــي ذلك العصر من قسوة مثل الحجاج، فجعل مجلسا من فقهاء عشرة، لا يقطع أمرا إلا برأيهم، حتى عرف بالرجل الصالح وفي أثنائها قام بهدم المسجد النبوي في عام ٨٧هـ/٧٠٦م، وأعاد بناءه على نحو أوسع وأروع بحيث لما حج الوليد في سنة ٩١هـ/٧١٠ م دخله وأعجب به وأخلى الناس منه ليتمتع ببهائه وقد كان لعـدل عمـر في عمله أن التجأ إليه عدد كبير من الفارين من قسوة عمالهم مما جعل الحجاج يحرض الوليد عليه فنحاه الوليد عن الإمارة في سنة ٩٢هـ/٧١٢م وذلك بعد ولاية استمرت أكثر من سبع سنين.

ولما اختاره سليمان لمنصب الخلافة كان على غير علم منه وزهد فيها، فأصـــبح الخليفة المثالي في الحكم والخلق حتى أنه قال في أول خطبه له : "أني لســت بخيركم ولكني رجل منكم، غير أن الله جعلني أثقلكم حملا وقد جعلته هذه المثالية ينزع إلى طريقة الخلفاء الأربعة والصحابة جهدا.

مما جعله يختلف اختلافا تاما عمن سبقه من الخلفاء الأمويين الذين كانوا يعيشون في بذخ ويسيرون في الحكم سير المكر والدهاء لذلك أخرجه المؤرخون من بين الخلفاء الأمويين وعدوه خامس الخلفاء الراشدين ولعله ورث هذه المثالية عن جده عمر بن الخطاب أو جاءته عن طريق اختلاطه بأتقياء أهل المدينة مثل أنـــس بن مالك جامع الحديث المشهور أو لثقافته بإقباله على دراسة علوم الدين حـــتى أن العلمـــاء كـــانوا معه تلاميذه وهو نفسه أول من أمر بجمع الأحاديث وتدوينها.

قام عمر بن عبد العزيز بخلع الولاة الظالمين والعمال القساة فعزل أسامة بـــن زيد التنوخي عن صدقات مصر، وكان غاشما ظلوما كثير الاعتداء وعزل

يزيد بن أبي مسلم عن أفريقية وصالح بن عبد الرحمن عن العراق والحارث ابن عبد الرحمن الثقفي عن الأندلس.

وأوقف عمر الحروب مع غير المسلمين أو مع المتمردين من المسلمين واستبدل بذلك دعوة غير المسلمين للإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، كما حاج المتمرديـــن والخوارج ليتغلب عليهم بالدليل والإقناع، وانتصر في مناظرته مع الثائريـــن مـــن المســـلمين، وكانت سيرته العطرة خير مساعد لـــه لتحقيق هذا الانتصـــار فدخل ملوك السند الإسلام بدعوته وتبعهم شعوبهم كما دخل الإسلام كثير من المصريين والسوريين والفرس الذين لم يكونوا قد دخلوا الإسلام من قبل على الرغم من دخول الإسلام بلادهم، مكتفين بدفع الجزية والدخول في الذمة، ثم جذبـــتهم ســـماحة عمر إلى الإسلام مما جعل عصره يسمى "عصر إسلام البلاد المفتوحة" أما الخوارج فقد بهرتهم سيرته وأعماله فأوقفوا نشاطهم الثوري والتقوا مع عمر للتفاهم معه بالحجة فغلبهم بخلقه وعلمه وبيانه، وانصاع لـــه كثيرون منهم.

وخفـــف عمـــر من أثقال الخراج الذي يؤخذ من النصارى وأوقف أخذ الجزية ممن دخل الإسلام منهم، فانهال الناس على الإسلام تقديرا للإسلام ولعمر خلـــيفة المسلمين فكتب لـــه عامل أهوج يقول: إن هذا يضر بالجزية، فتلقى من عمر الجواب الآتي: "قبح الله رأيك، ارفع الجزية عمن أسلم، فإن الله بعث محمدا هاديـــا ولـــم يبعثه جابيا، ولعمري لعمر أشقى من أن يسلم الناس جميعهم على يديه".

ومن إصلاحات عمر أنه اصلح كثيرا من الأرض للزراعة، وحفر الآبار وعمر الطرق واهتم اهتماما كبيرا بالمحتاجين والمرضى، كما أكثر من المساجد

لكـــنه لم يكن يتأنق في إعدادها، ولما طلب إليه أن يدفع مبلغا كبيرا لذلك أجاب: لأن أنفقه على أكباد جائعة أحب إلي من أنفقه على الجدران والأثاث".

ولذا انتقلت الحالة الاقتصادية في عهد عمر بن عبد العزيز إلى مستوى يدعـــو للدهشة، فكل المراجع تؤكد أن علامات الفقر والعوز قد اختفت في عهده ولم يعد لها وجود تقريبا حتى كان دافع الزكاة لا يجد من يأخذها منه.

ويذكر ابن عبد الحكم أن رجلاً من ولد زيد بن الخطاب قوله: إنما ولي عمـــر بن عبد العزيز سنتين ونصفا فما مات حتى جعل الرجل يأتي بزكاة ماله يبحث عن مستحق لها فما يبرح حتى يرجع بماله فقد أغنى عمر الناس.

ومن إصلاحات عمر في البريد أنه لم يجعله لحمل الأخبار الرسمية إليه فقط من العمال والموظفين كما كان من قبل، وإنما أصبح لخدمة الناس كذلك فقد أمر أن يتسلم عامل البريد كل الرسائل التي تعطى إليه لتوصليها إلى ذويها.

وكان من الطبيعي أن يسير عمال عمر على سيرته، فلقد أحسن اختبارهم وأحسن مراقبتهم ويذكر ابن عبد الحكم أنه خرج يوما مع وزيره مزاحم للعسس فـــرأيا ركـــبا قادما تجاه الشام من المدينة فاستقبلا الركب وسألا المسافرين عما خلفهم، فقال رئيس الركب وهو لا يعرفها: إن شئتما جمع لكما الخبر وأن شئتما بغضـــته لكمـــا تبغيضـــا، فقالا: بل أجمعه فقال: إني تركت المدينة والظالم بها مقهور والمظلوم بها منصور والغني بها موفور والعائل مجبور فسر بذلك عمر وقال: لأن تكون البلدان كلها على هذه الصفة أحب إلي مما طلعت عليه الشمس.

ومـــن سياســـية عمر فيما يتعلق بالعمال أنه رفع مرتباتهم حتى وصل مرتـــب العـــامل أحيانا إلى ثلاثمائة دينار، ولما سئل عن ذلك أجاب: أردت أن أغنيهم عن الخيانة.

وقطــع عمــر بن عبد العزيز سب علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان بنو أمية يسبونه على المنابر، كذلك وصل بني هاشم وأحسن معاملتهم. بعد أن أساء سليمان إليهم ويذكر ابن الأثير بأن سليمان دس السم لكبير منهم وهو أبو هاشم عبد الله بن محمد بن حنيفة.

وعلــى الــرغم من قصر مدة خلافة عمر فقد ثقل على كثيرين من بني قومه لكثرة ما استرده منهم مما امتلكوه من قبل، حتى لقد خيف أن يمسوه بسوء أو يسقوه سما ولذلك نصحه أرطأة بن منذر بأن يتخذ حرسا ويتحرز في طعامه وشــرابه فأجــاب عمر: اللهم إن كنت تعلم إني أخاف شيئا دون يوم القيامة فلا تؤمن خوفي.

وقبيل وفاة عمر مات أعوانه سهل أخوه وعبد الملك ابنه ومزاحم مولاه ودخــل المــرض علــى عمــر فيروى أنه قام وتوضأ ثم أتى المسجد فصلى ركعتيــن ثــم قال: اللهم إنك قد قبضت سهلا وعبد الملك ومزاحما كانوا أعواني علــى ما قد علمت، فلم أزدد لك إلا حبا ولا فيما عندك إلا رغبة فأقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط فما قام من مرضه حتى قبضه الله تعالى.

يزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥هـ):

وبعــد عمــر بن عبد العزيز تولى الخلافة يزيد بن عبد الملك بعهد من أخــيه ســليمان أو من أبيه عبد الملك، وكان سليمان قد حاول تنحيته عن ولاية عهــده بتولية أحد أبنائه ولكن لم يلبث أن أسلم الأمر لابن عمه عمر، ولا سيما وأن يــزيد كان وقتئذ غائبا، وقد بويع ليزيد في اليوم الذي توفي فيه عمر، وذلك في رجب من سنة ١٠١هـ/ شباط ٧٢٠م.

لقد كان هذا الخليفة مثل غيره من الأمويين يحب حياة البادية، فينزل في موضـــع اســـمه الموقـــر في البلقاء قرب دمشق، واستسلم لغرائزه وشغف بحب جاريتين إحداهما تسمى حبابة والأخرى تسمى سلامة القس وكان أخوه مسلمة القـــائد المعـــروف يلومه في الإلحاح على الغناء والشراب وتشاغله عن مصالح الأمـــة ولكنه لم يقبل غير نصيحة حبابة التي غنته: ما العيش إلا ما تلذ وتشتهي هـــذه الحـــياة العابثة جعلته لا يهتم بأحوال الدولة وإنما تركها للولاة أو لجوارية بحيث أن حبابة كانت تولي وتعزل العمال بغير أمره.

فضـــاعت المثالية في الحكم التي وضعها عمر بن عبد العزيز، وعادت الأمور إلى أسوأ مما كانت عليه من قبل فهو على حد قول ابن الأثير: عمد إلى كما ما صنعه عمر بن عبد العزيز مما لم يوافق هواه فرده.

ومن أهم الأحداث التي وقعت في عهد يزيد ثورة يزيد بن المهلب، وقد كـــان يزيد في محبس عمر، وهرب من محبسه في مرض الموت الذي مات فيه عمـــر، وكتب ابن المهلب إلى عمر يعتذر من هربه ويقول: "إني والله لو وثقت بحياتك لم أخرج من محبسك ولكني خفت أن يأتي يزيد فيقتلني شر قتله". وكان من الواضح أن هناك عداء بين يزيد بن المهلب ويزيد بن عبد الملك، فإن الأول انضم إلى سليمان بن عبد الملك في تنكيله بآل الحجاج، وكان يزيد بن عبد الملك وأســـرة الحجاج مصاهرة، فقد كان يزيد متزوجا من بنت أخي الحجاج وقد مات عمر بن عبد العزيز بعد هرب يزيد بقليل.

ولما فر ابن المهلب من السجن اتجه إلى العراق، وكان العراق كما كان دائمـــا مستعدا أن يستقبل أعداء بني أميه ويثور لهم ويحارب معهم، ولذلك كون الخلـــيفة جيشا من أهل الشام بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك وأرسله لقيادة ابن الملهب، وقد التقى ابن المهلب مع الجيوش الشامية في مكان العقر قرب كربلاء

يميـــن الفرات في سنة ١٠٢هـــ/٧٢٠م وكان معه أخوته وهم كثيرون بخاصة وأن أباهم المهلب قبل موته أوصاه بأن لا يتفرقوا ولكن كفة جيوش الشام رجحت بســـبب انضـــمام أهـــل البصرة إليهم، وبعد قتال استمر ثمانية أيام تغلب مسلمة بالخديعـــة، بـــأن أحرق جسرا على فرات البصرة فظن عسكر ابن المهلب أنها الهزيمة وتسللوا ومع أن ابن المهلب كان في أثناء القتال قد أصيب بالحمى إلا أنه لما شعر بالهزيمة امتطى جواده وقاتل إلى أن قتل، فأرسل مسلمة في طلبهم وقتل أغلبهم، إلا من استطاع الفرار إلى الهند، وكانت هذه هي النهاية المشؤومة لأسرة المهلب بن أبي صفره التي طالما شهرت السيف في وجه أعداء بني أميه وطالما كسبت النصر لهم.

وســـوء سياســـة يـــزيد عاد الخوارج إلى مهاجمة العراق، فنجد شوذب الخارجـــي المســـمى أيضا بسطام الذي ظهر في عهد عمر وهادنه يهاجم الكوفة ويهـــزم جيوشـــها عدة مرات ولكن مسلمة حينما دخل الكوفة لحرب ابن المهلب أرســـل نحوه جيشا ضخما تمكن من قتله بعد معركة شديدة، ولما استدعى يزيد مسلمة من عمل العراق وولاه عمر بن هبيرة في سنة ١٠٢هـــ/٧٢٠م كان ابن هبيرة يحارب الخوارج في عمله.

أمـــا سياســـة يزيد الخارجية فنجد أن الأمور تتأزم بسبب الفرصة التي أتاحها عمر بن عبد العزيز بسياسته المثالية وإهمال يزيد للجهاد بإقباله على اللهو فلـــم يعـــد يسمع عن غزوة عظيمة في عهده، وإنما أصبح هم قواده أن يبقوا ما استطاعوا على أملاك الخلافة ووقف خطر الأعداء الطامعين فيها.

وقد توفي يزيد بن عبد الملك في سنة ١٠٥هـــ/٧٢٤م بعد حكم دام أربع سنين، ويذكر المؤرخون القدامى أن سبب موت يزيد يعود إلى حزنه إلى مرض

جاريــته حبابه فلما ماتت أعتزل الناس بعد موتها ولم يزل كذلك حتى مات بعد سبعة أيام من موتها.

هشام ابن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ):

كــان يــزيد بن عبد الملك يريد أن يعين ابنه الوليد وليا للعهد من بعده، ولكــن أصحابه أرشدوه إلى أن الوليد صغير السن ولا يستطيع أن يحمل عبء الخلافــة، ولهــذا عين يزيد أخاه هشاما لولاية العهد على أن يتلوه الوليد، فتولى هشــام تــبعا لذلك واتخذ هشام رصافة الشام مقرا لــه غالبا وهي تقع على نهر الفرات.

وقــد طالت مدة هشام فكانت حوالي عشرين عاما وكان هشام من خير الخلفــاء، اشتهر بالحلم والعفة وقد نظم الدواوين وضبط الحسابات بعناية فائقة، قــال عــبد الله بــن علي بن عبد الله بن العباس: والفضل ما شهدت به الأعداء جمعت الدواوين بني مروان فلم أر ديوانا أصح ولا أصلح للعامة والسلطات من ديــوان هشام، وبذلك أصبحت مالية الدولة تسير في انتظام شامل، ولم يعد هناك طريق لاختفاء أي مبلغ مستحق لبيت المال.

وقد عرف هشام بالحلم والتقوى، ويروى أن رجلاً أغلظ لــه القول فلم يزد عن أن قال لــه: ليس لك أن تغلظ لإمامك ومن تقواه ما روى أنه تفقد ولده فلــم يجده حضر لصلاة الجمعة فسأله فيما بعد ما منعك من الصلاة؟ قال: نفقت دابتي قال هشام: أعجزت عن المشي؟ ومنعه الدابة عاما كاملا.

ومن الرجال البارزين الذين اعتمد عليهم هشام، خالد بن عبد الله القسري وأخوه أسد ونصر بن سيار ومروان بن محمد، وفي مطلع عهد هشام عزل هذا عمــر بن ربيعه عن العراق وما كان إليه من عمل المشرق وولى ذلك كله خالد بــن عــبد الله القســري فعيــن أخــاه أسدا أميرا على خراسان في العام التالي

(١٠٦هـ) وبسبب العصبية التي اندمج فيها وأثارها أسد في خراسان عزله الخليفة سنة ١٠٩هـ وأخذ الخليفة يولي بنفسه عاملا على خراسان فولى أشرس ابن عبد الله السلمي فالحنيد بن عبد الرحمن وغيرهما، ولكن حال خراسان لم يصلح واستمرت الاضطرابات فيها فأعادها الخليفة إلى سلطان خالد بن عبد الله القسري سنة ١١٧هـ فأعاد هذه أخاه أسدا واليا عليها، واستمرت ولاية خالد على الشرق خمسة عشر عاما كانت له فيها إصلاحات ذات بال، فقد جفف مستنقعات دجلة حول واسط وبذلك أعد أرضا واسعة للزراعة وكان خالد يغتر بأعماله وبغناه الواسع الذي جمعه طيلة مدة ولايته حتى وصل به الغرور أن قال لابنه: ما أنت دون مسلمة بن هشام (الخليفة) لتفخر على الناس بثلاث لا يفخر بمثلها أحد سكرتُ دجلة ولم يتكلف ذلك أحدا ولي سقاية مكة، ولي ولاية العراق وقد كان ذلك مع عوامل أخرى سببا في أن عزله هشام سنة ١٢٠هـ وبعد عزله نزلت به ألوان من المصائب وبخاصة في عهد الوليد بن يزيد وقد مات تحت العذاب سنة ١٢٧هـ.

وبعد خالد تولى يوسف بن عمر ولاية الشرق فولى جديع على الكرماني خراسان ولكن سرعان ما عين الخليفة نصر بن سيار واليا على خراسان وبقي نصر واليا على خراسان حتى سقطت الدولة الأموية.

وفي عهد هشام خطت الدولة الأموية خطوة نحو الضعف، وذلك بسبب قيام العصبية بين عرب الشمال وعرب الجنوب، وبخاصة في خراسان وفي غير خراسان كانت هناك أيضا ثورات سببها مع العصبية سوء سيرة بعض العمال ، وربما كانت أخلاق هشام من حرص على المال ودقة في إنفاقه ومن لين وحلم مما ساعد على استمرار هذه النهرات والثورات.

الوليد بن يزيد (١٢٥-١٢٦هـ):

بعد وفاة هشام ابن عبد الملك تولى الخلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك، في ربيع الأخر سنة ١٢٥هـ/شباط ٧٤٣م بعهد سابق من أبيه، وقد حاول هشام أن يعـزل الولـيد عن ولاية العهد ويوليها لابنه مسلمة، فطالبه هشام بأن يخلع نفسـه، وحـرمه من العطاء وجفاه جفاء شديدا بحيث كان يكثر من تنقصه أمام الـناس، وعمل سرا في البيعة، فأجابه بعض الناس ولكن مسلمة توفي قبل أبيه، مما هيأ للوليد الفرصة في أن يلي الخلافة بعد هشام.

وكان الوليد، مثل غيره من خلفاء بني أميه يحب البادية وزاد شغفه ببناء القصور الهائلة فيها فحينما كان أميراً بنى قصر عمرة وبعد توليه الخلافة نُسب إلـيه بناء قصر المشتى، وكلاهما من أكثر عواصم الصحراء في شرق الأردن كمـا عرفت لـه بالبلقاء عدة قصور أخرى، وردت أسماؤها في كتب المؤرخين مثل الأزرق، والأغداق، واللؤلؤة.

ولقد شابه الوليد أباه، فطلب اللذات وشغل عن أمور الدولة ولا سيما وأنه تولى الخلافة في أوج الشباب في سن الخامسة والثلاثين فكان يجمع في عواصم الـبادية الندماء والشعراء والمغنين، كما أنه أحب الصيد ومن الجائز أن أعدائهم الذين ألصقوا به تهمة الكفر والتهاون بالدين.

ومما أخذ على الوليد أنه عندما تولى الخلافة حجز أموال هشام بالرصافة وقبض على أولاده وجلد بعضهم، وأخذ سليمان بن هشام الذي اشتهر في حرب الـثغور فضـربه بالسوط وسجنه، كذلك أساء معاملة خالد بن عبد الله القسري عـامل الأمويين السابق، على العراق إرضاءً ليوسف بن عمر الثقفي من أقرباء الحجـاج، الـذي كان يعاند خالدا وولى بعد العراق، والوليد نفسه كان زوج أم الحجاج بنت محمد بن يوسف الثقفي وفي عهد الوليد قتل يحيى بن زيد الذي فر

بعد قتل أبيه في العراق إلى خراسان فطارده عمال الوليد وقتلوه بجوزجان في سنة ١٢٥هـ/٧٤٣م.

هذه التصرفات جعلته يثقل على رعيته وجنده، وبخاصة اليمانية منهم لبغض الخلفاء لهم منذ يزيد، وتقريبهم للقيسية كما كرهه أفراد بيته، وكانوا مدفوعين إلى ذلك إما باحتقار تصرفاته أو بسبب طمعهم في السلطة فثارت اليمانية لأول مرة ضد أحد الخلفاء الأمويين وعلى رأسها قضاعة حيث كانوا وقتئذ أكثر جند الشام، وحرضوا ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك على البيعة لنفسه، فاستولى يزيد على دمشق وأرسل جيشا إلى الوليد، الذي كان يقيم في البادية هربا من الطاعون وهاجموه في قصر بالأغداق، وقد أراد الوليد التفاهم مع مهاجميه فأحضر يزيد بن خالد من محبسه وطلب منه التدخل في رد اليمانية ولكن يزيد بن خالد هرب وانضم إلى مهاجميه فتوسل الوليد بخلع نفسه دون جدوى عندئذ أخرج الوليد راية مروان في الجابية وقاتلهم بمن معه من مصرة فهزموه فدخل إلى القصر فدخلوا عليه وقتلوه سنة ١٢٦هـ/٧٤٤م.

يزيد بن الوليد (١٢٦هـ):

بعد قتله للوليد بن يزيد بايع يزيد بن الوليد بالخلافة لنفسه في جمادى الآخر سنة ١٢٦هـ/٧٤٤م فخطب بالناس خطبة برر فيها قتله للوليد بن يزيد وأنه ما فعل ذلك إلا غضبا لله ودينه، وقد كان يزيد على خلاف الوليد ذا دين وورع يظهر النسك والتواضع.

ولكن اعتماد يزيد على تأييد اليمانية جره إلى العمل على إخماد فتنة القيسية في أماكن متعددة في الشام، فإن أهل حمص من القيسية لما قتل الوليد لم يرضوا ببيعة يزيد فأرسل إليهم وحاربهم وهزمهم وأخذ بيعتهم وهزم أيضا أهل فلسطين لما وثبوا على عاملهم، كما حبس يوسف بن عمر عامل العراق وقريب

الوليد، الذي كان قد أقره بعد هشام فلما قتل الوليد هرب يوسف، وبلغ يزيد استخفاؤه فجاءوا به في وثاق، فحبسه يزيد وولى على العراق بدله عبد الله بن عمر بن عبد العزيز في سنة ١٢٦هـ/٧٤٤م.

وبذلك استتب الحكم لهذا الخليفة مدة ستة أشهر إلى وقت وفاته في ١٩ ذي الحجة سنة ١٢٦هـ/٧٤٤م وكان يزيد قبل وفاته قد أوصى بالخلافة من بعده لأخيه إبراهيم.

إبراهيم بن الوليد (١٢٦هـ):

لم يستقر الأمر ليزيد بن الوليد وبالتالي لم يستقر الأمر لأخيه إبراهيم ولم تكن الخلافة موضع إجماع من المسلمين ولم تتم له بيعة إجماعية ولذلك كان بعضهم ينادونه خليفة وآخرون ينادونه أميرا، ومن أهم الثورات التي قامت في وجهة ثورة مروان بن محمد والي الجزيرة وأرمينية فإنه كان قد تمسك بالصبر في عهد يزيد بن الوليد لم يستطع أن يمضي ببعيته لإبراهيم ولذلك قاد جيشا كبيراً واتجه به للشام مطالبا بثأر الوليد بن يزيد وبحقوق أبنائه فأرسل له إبراهيم بن الوليد جيشا بقيادة سليمان بن هشام فهزمه مروان فعاد سليمان إلى الشام فقتل ابني الوليد الثاني وسار إلى تدمر، وكان مروان قد ادعى في أول الأمر انه يقاتل في سبيل هذين الولدين وكان القيسية يشدون أزره لذلك فلما قتلا طالب بالأمر لنفسه فبايعه الناس.

مروان بن محمد (١٢٧-١٣٢هـ):

لقد كان مروان شجاعا صاحب دهاء ومكر وكان له خبره واسعة في الحروب ومن أهم ما يتصل به أنه وضع خطة تنظيم القوات الإسلامية فبدلاً من تقسم الجيش إلى فرق تنسب كل منها إلى قبيلة رأى تأليف جيش نظامي يخدم افراده برواتب معينه بأمر قادة محترفين وينقسم الجنود المجندون للخدمة

العسـكرية إلـى فرق قليلة العدد تفوق في سرعة حركتها وقوتها نظام الخطوط الطويلة عند العرب ولكن هذا كله لم يغن عنه شيئا لأن الظروف كلها كانت ضده وكانت عوامل فشله محكمة فقد جاء في وقت تهلهل فيه ثوب الخلافة الأموية ولم يعـد هناك أمل في إصلاحه، وقد شغلت أحداث الشام والعراق والحجاز الخليفة فلـم يستطع أن يقدم عونا لواليه في خراسان، وامتدت الأحداث لتشمل كل من العراق والشام ومصر وخر مروان في مصر قتيلا في قرية اسمها بوصير سنة ١٣٢هـ وبموته انتهت الدولة الأموية.

ملحق رقم (٢)

مصادر تاريخ الدولة العربية الإسلامية:

تتوفر للباحث في تاريخ الدولة العربية الإسلامية في عصورها المختلفة الكثير من المصادر العربية المتنوعة وهي إما وثائق أثرية قديمة كالوثائق الرسمية المكتوبة والوقفيات وأوراق البردي أو أثار معمارية أو نقوش كتابية على الآثار أو العملات وأما مصنفات علمية مدونة مخطوطة ومطبوعة تتناول موضوعات في التاريخ والأدب والسير والفتوح والغزوات أو مصنفات في الأدب وكتب في البلدان والرحلات والجغرافية وفي موضوعات عديدة أخرى بعضها لا يعد من حميم التاريخ إلا أنها تعد مصادر مهمة في تدوين أحداث التاريخ العربي قبل الإسلام وبعده نظرا لما تضمنته هذه المصادر من معلومات غزيرة عند تلك الفترة.

الوثائق الأثرية القديمة

١-الوثائق الرسمية المكتوبة:

تعد الوثائق من العلوم الأساسية لدراسة التاريخ، وتشمل المستندات المعاصرة للتاريخ الذي تكتب فيه كالكتابات الرسمية أو شبه الرسمية كالأوامر والقرارات والمعاهدات والمخالفات والاتفاقيات والمراسلات السياسية والكتابات التي تتناول مسائل الاقتصاد أو التجارة وعقود البيع والشراء والأحكام والفتاوى وغير ذلك، وهي إما تصدر عن الدواوين أو فروع الإدارة في الدولة كديوان الإنشاء والرسائل الذي كان يتولى تنفيذ الأوامر الصادرة عن الخلفاء أو الملوك أو السلاطين أو تكون عقود فردية كالعقود الشخصية وتعتبر المستندات أهم أنواع الوثائق الرسمية باعتبارها أوثق مصادر التاريخ والاقتصاد على الإطلاق. وكانت هذه الوثائق تحفظ في ديوان الإنشاء الذي تصدر عنه معظم أوراق الدولة

الرســمية ويحفظ الوارد منها في أضابير توضع عليه بطاقات خاصة تودع في مخــزن خاص، وقد كتبت بعض هذه الوثائق بلغات الشعوب التي دخلت بلادها ضــمن أقاليم الدولة العربية الإسلامية خلال عصر الراشدين الذين تركوا النظم الإداريــة والمالية فيها على ما كانت عليه بسبب انشغالهم بحركة التحرير التي اســتهدفت الاحــتلال الفارســي والبيزنطي لأقاليم الوطن العربي، وأداء المهمة الملقاة على عاتق العرب في تبليغ رسالة الإسلام وإقرار العدل والمساواة وقد تم تعريب دواوين الدولة العربية كافة في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ).

وقــد وصــلت إلينا بعض المستندات والوثائق العربية ومعظمها يقتصر علــى الأمور التي تتعلق بالإدارة وأقلها (البردية) التي تتناول نصوصها بعض الــنظم الاجتماعــية والاقتصادية كالجزية والخراج والتعين في مناصب الدولة والإدارة وطرق التجارة وأعمال البناء والتعمير وإنشاء الأساطيل وعقود الزواج والبــيع والشراء والتنازل ولهذا فإن الوثاق البردية تحتل أهمية خاصة باعتبارها مصــدرا صــادقا لدراســة الحــياة الاجتماعية والاقتصادية في الدولة العربية الإسلامية.

أمــا الوقفيات أو (الاحباس) فيقصد بها الوثائق التي تتعلق بنظام حفظ العقــار مــن التبديد وتخصيص دخله لأسرة مؤسس الوقف حسب الأنصبة التي يحددهــا فــي الوثــيقة أو تخصيصه لمؤسسة دينية ويستفاد من وثائق الوقفيات الإطــلاع علــى عقود البيع والشراء والاستبدال وبيان الابنية الموقوفة أي التي يخصص لها وقف معين وتعتبر هذه الوثائق من أهم المصادر التي يجب الرجوع إلــيها عند دراسة الآثار المعمارية والمنشآت بالإضافة إلى المصطلحات السائدة فــي العصر الإسلامي سواء كانت معمارية أو قانونية أو إدارية، وجدير بالذكر

أنـــه كـــان للأحباس أو الأوقاف ديوان خاص في العصر الأموي يتولاه قاضي ينظر فيها خوفا من ضياعها والحيلولة دون تجزئة الوقف بسبب الإرث.

٢-الكتابات الأثرية أو النقوش:

تعتـــبر الـــنقوش الكتابـــية الأثـــرية من أهم مصادر التاريخ بوجه عام والإسلامي بوجه خاص، وتأتي بعد الوثائق السياسية في الأهمية التاريخية نظرا لما تتضمنه من أخبار تعد مادة أساسية للتاريخ والحضارة فبفضل النقوش الكتابية أمكـــن تصـــحيح الكثـــير من الأخطاء التاريخية التي وقع فيها بعض المؤرخين وكشف الحقائق التاريخية التي لم تكن معروفة.

إن أهمية النقوش الأثرية تأتي من معاصرتها للأحداث التي تسجلها وعدم تحيزها لأسرة ضد أسرة شأن الوثائق والكتب التي قد يتحيز مؤلفوها لطرف ضد الآخر، وفي حين أن الكتابات الأثرية تتضمن تواريخا صحيحة وإعلاما يقل فيها الـــتحريف والتصـــحيف فالنقوش الكتابية التي تدور حول قباب المحراب والبهو بجامعتـــي القـــيروان وتونـــس والكـــتابات التي نطالعها على الأسوار والقلاع والقصـــور والمساجد في العراق ومصر والشام والمغرب تتضمن تواريخا ثابتة لهـــذه المنشـــآت كمـــا تتضمن في كثير من الأحيان أسماء مؤسسيها من الخلفاء والأمراء والسلاطين وفي بعض الأحيان أسماء العرفاء والمهندسين الذين أشرفوا على إنشائها، وهي أمور غفلت الوثائق التاريخية عن ذكرها على هذا النحو من الدقة.

ولا تقتصـــر أهمـــية الكتابات الأثرية على النواحي السياسية فحسب بل تـــتجلى أهميـــتها في الأمور الدينية والاقتصادية أيضا وعلى الرغم من أن هذه الكـــتابات ينقصها التنوع ويكثر فيها التكرار إلا أنها تعتبر مصدرا مهما للباحث في التاريخ الإسلامي مما دفع المستشرقين إلى الاهتمام بالنقوش العربية اهتماما

خاصـــا فصنعوا فيها الكتب والتواليف واهتموا بجمعها وترتيبها وفي مقدمة من اشـــتغل بعلـــم الكـــتابة الأثرية العربية المستشرق السويسري فاكس فإن برشام وادمون فايتو واتبين كومب وجان سوفاجيه.

٣-العملات أو السكة:

تعـــد العملات وثائق هامة في تأكيد أو نقض الكثير من المعلومات التي وصلت عن طريق المدونات التاريخية المختلفة حيث أن معظمها قد يكون مخالفا للواقـــع لأنها متأخرة نسبيا أو جاءت عن طريق السماع كتحديد زمن حكم بعض الخلفـــاء والملوك أو تثبيت تاريخ الثورات أو انقضائها وغير ذلك من الأحداث السياســـية كما يمكن الاعتماد على العملات في استنباط الحقائق سواء ما يتعلق منها بالأسماء أو بالنقوش أو بالعبارات الدينية المنقوشة أو الألقاب التي ينعم بها الخلفاء على الأمراء والسلاطين.

وبالنسبة للعملة العربية الإسلامية فيذكر أن أقدم ما وصل إلينا مسكوكات (فلـــوس نحاســـية) مضـــروبة علـــى الطراز البيزنطي أي مشابهة للمسكوكات البيزنطـــية المعاصرة لها مؤرخة في سنة ١٧هـــ/٦٣٨م عليها اسم الخليفة عمر ابـــن الخطـــاب (رضي الله عنه) والواقع لم تعرف العملة العربية صرفه إلا في عهـــد الخلـــيفة الأموي عبد الملك بن مروان الذي قدر أن العملة بالإضافة إلى قيمتها الاقتصادية وسيلة للإعلان عن سيادة الدولة العربية بما هو منقوش عليها من عبارات دينية فضلا عن أنها إعلان لشرعية حكم الخليفة بنقش اسمه عليها، لذلـــك أمر عبد الملك بن مروان تعريب العملة كجزء من السياسة العامة لتعريب كل أجهزة الدولة العربية الإسلامية

وقـــد أدى تـــنوع وكثرة النقود والمسكوكات العربية وتعدد أشكالها إلى اهتمام العلماء والباحثين بدراستها ومن الرواد الذين تصدروا لدراسة النقود خلال

النصف الأول من القرن الماضي الأب انستاس ماري الكرماي الذي وضع كتاباً فـي عـام ١٩٣٩ بعنوان "النقود العربية وعلم النميات" جمع فيه أهم ما كتبه المؤرخـون العرب أمثال المقريزي في "شذور العقود في ذكر النقود" والبلاذري فـي "فتوح البلدان" والبيهقي في "المحاسن والمساوئ" وابن خلدون في "المقدمة" والقلقشـندي في "صبح الأعشى" وقد أضاف الكرملي تفسيرات كثيرة وتعليقات مهمة لأسماء الرجال والألقاب الواردة في النقوش والمواد التي تتخذ منها النقود والموازين والمكاييل والمقاييس والأثمان مما يكشف النقاب عن كثير من الحقائق السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

٤-الآثار المعمارية:

تعتبر الآثار الباقية سواء الثابتة منها كالعمائر والمنقولة كالتحف وأدوات الزيـنة من أهم المصادر التي يعتمد عليها المؤرخون في كتاباتهم التاريخية ذلك لأن الوثائق المكتوبة وحدها لا تكفي لهذا الغرض أما لندرتها أو لتناقض ما جاء فيها أو لاختلاط الحقائق التاريخية فيها بالنصوص والأساطير.

والواقـع أن الآثـار تعتـبر سجلا تاريخيا للأعمال التي قام بها الولاة والأمـراء في العصور الإسلامية المختلفة وشاهدا ماديا ماثلا للحضارة العربية، فمن خلال الآثار وقفنا على ما وصل إليه الفن والصناعات في المجال الحضاري ويتجلى ذلك بوضوح في المساجد والقصور والقلاع والقناطر وغيرها كما يمكن للباحـث أن يلاحظ التأثيرات الحضارية من قطر لآخر، ويظهر ذلك بوضع في جـامع ابـن طولـون في مصر حيث التأثيرات الفنية العراقية وكذلك التأثيرات الأندلسية في مسجد القرويين بمدينة فاس.

وعلـيه فـإن دراسـة الآثار المعمارية أصبحت ضرورة لازمة لدراسة الـتاريخ الإسـلامي الـتاريخ العمراني والعسكري، وما زالت لآثار المعمارية

العربية الإسلامية في سائر أنحاء الوطن العربي ومناطق أخرى من العالم تعبر عن الدور الكبير الذي قام به العرب في الحضارة والعمران.

المصنفات المدونة

١-القرآن الكريم:

يعد القرآن الكريم أقدم المصادر العربية الإسلامية المدونة وأصدقها على الإطــلاق لأنــه تــنزيل من الله تعالى لا سبيل إلى الشك في صحة نصه، وقد تضمنت آياته ذكر لبعض مظاهر حياة العرب السياسية والاجتماعية والاقتصادية في مرحلة ما قبل الإسلام كما وصفت تفكيرهم وعقائدهم وورد في القرآن الكريم أخبار مختصرة عن القبائل العربية التي بادت وانقرضت مثل عاد وثمود وحادثة السـيل العــارم (انهــيار ســد مأرب) وأصحاب الفيل (حملة ابرهه على مكة) وأصــحاب الأخــدود (حملــة ذو نواس ضد نصارى نجدان) وقصص الأنبياء والرسل أوردها كعبرة وموعظة للمعارضين من العرب للإسلام وتذكر ما أصاب الذيــن كذبوا المرسلين من قبلهم، وقد أثبتت الحقائق التاريخية والكشوف الأثرية صــحة مــا جــاء في القرآن الكريم من أخبار قبائل العرب البائدة ودقتها، وفي العصــر الإســلامي تظهــر مراحل الدعوة الإسلامية وتوضح دور النبي محمد (صــلى الله عليه وسلم) في نشر مبادئ الدين الإسلامي ووضع الأسس القويمة للمجتمع الجديد فكانت كل سورة من سور القرآن تشير إلى حادثة معينة في حياة الرسول.

وقد تم جمع القرآن الكريم في عهد الخليفة أبو بكر الصديق (رضي الله عــنه) فقــد ذلك المؤرخون أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) حين رأى أن القــتل قد كثر في الصحابة خلال حروب الردة قال لأبي بكر " أن القتل قد كثر واســتحر بقراء القرآن يوم اليمانة، وإني أخشى أن يستحر القتل بالفراء فيذهب

مـــن القـــرآن كثير وأني أرى أن تأمر بجمع القرآن" فأمر أبو بكر زيد بن ثابت فجمعـــة من الرقاع والعسب وصدور الرجال وحفظت الصحف عند أبي بكر ثم انتقلت إلى عمر بن الخطاب فلما توفي حفظتها ابنته الحفصاء وفي خلافة عثمان ابـــن عفـــان(رضي الله عنه) لاحظ الصحابة اختلاف المسلمين في الأمصار في قـــراءة القـــرآن فأخبروا الخليفة بذلك، فأسرع بتشكيل لجنة ضمت زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام للقيام بكتابة نسخ من القرآن الكريم معتمدا في ذلك على النسخة المحفوظة لدى حفصة بنت عمر وتم توزيعها على الأمصار.

٢-الحديث:

يقصد بالحديث أقوال النبي (صلى الله عليه وسلم) وأفعاله التي نقلت عنه فـــي مناسبات عديدة بالرواية الشفوية، أو من صحائف قديمة دونت فيها ويعتبر الحديث المصدر الثاني للشريعة الإسلامية بما تضمنه من أحكام وقوانين للمجتمع الإسلامي، كما أنه من أصدق المصادر التاريخية بعد القرآن الكريم لتدوين أخبار الحقـــبة الزمنية القريبة من الإسلام، وكان المسلمون الأوائل قد تجنبوا بأمر من رســـول الله (صـــلى الله عليه وسلم) تدوين الحديث حتى لا ينشغلوا بشيء غير كـــتاب الله وظل الأمر على هذا الحال حتى خلافة عمر بن عبد العزيز حيث تم جمع وتدوين الأحاديث الصحاح بأمر منه.

ويعتـــبر الحديث أصح المصادر التاريخية في تاريخ القرنين الأولين في الإســـلام بسبب الدقة التي اتبعت في نقله، فقد كانت الأحاديث تروى عن طريق سلســـلة من الحفاظ أو ما يعرف بالسند والإسناد حتى تصل إلى النبي (صلى الله علـــيه وسلم) أو السلف الأول من الصحابة أو التابعين أو تابعي التابعين وهو ما يسمى بعلم(الجرح التعديل) أو علم الرجال وهو علم دقيق ويمكن للباحث الاعتماد

علــى مجموعات الصحاح في الحديث كالجامع الصحيح للبخاري (ت ٢٥٧هــ) وســنن الترمذي (ت ٢٦٢هــ) جليل القدر عظيم الفائدة، يهدف إلى خدمة السنة والكشــف عــن أحوال رواتها واحدا واحد وتميز الصادق من الكاذب والضابط من الواهم والموثوق بروايته من الملعون فيه، وموطأ مالك (ت ١٧٩هــ) وابن ماجة (ت ٢٧٣هــ) وهنالك شروحات عديدة للبخاري ومسلم منها - النووي (ت ٦٦٧هـــ) وكــتابه شرح صحيح مسلم، والعسقلاني (ت ٥٢٨هــ) فتح الباري بشــرح صــحيح الــبخاري والعيني (٨٥٥هــ) عمدة القارئ في شرح صحيح البخاري.

٣-كتب التفسير:

تتضــمن كتــب التفســير شروحاً مفصلة لما ورد في القرآن الكريم من أخــبار مختصرة من بعض الأحداث في العصر السابق للإسلام وعصر النبوة، أو تفسير ما أغلق على المسلمين فهمه من معاني القرآن الكريم وتعابيرة وقد نشأ علم التفسير في عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) ثم تولى الصحابة من بعده هذه المهمة باعتبارهم الواقفين على أسراره المهتدين بهدية ومن أشهر المفسرين من الصحابة علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وبن كعب (رضي الله عنهم) ويأتي بعدهم زيد بن ثابت، أبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبــير وممــا ساعد هؤلاء الصحابة على الاجتهاد في التفسير قوتهم في اللغة العربــية وإحاطــتهم بمعانيها وأساليبها ومخالطتهم النبي (صلى الله عليه وسلم) وعــدم تحرجهم أن يجتهدوا ويقروا ما أداهم إليه اجتهادهم يستثنى من ذلك ابن عباس فإنه استعاض عن ملازمة النبي (صلى الله عليه وسلم) في شبابه بملازمة علمــاء الصــحابة بــأخذ عنهم ويروي لهم، وعن الصحابة أخذ التابعون وعن التابعين أخذ تابعوا التابعين فجمعوا أقوال من تقدمهم وصنفوا التفاسير.

ومن أشهر كتب التفسير التفسير التاريخي المعروف بتفسير الطبري (ت ٣١٠هـ) الموسوم (جامع البيان في تفسير القرآن) وتفسير ابن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ) وهذه عرفت بكتب التفسير المأثور، أما كتب التفسير بالرأي فاشهرها تفسير الرازي (ت٦٠٦هـ) المسمى (مفاتيح الغيب) ومنها تفسير البيضاوي الموسوم "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" وتفسير أبي مسعود وتفسير النسفي وتفسير الخازن والتفسير المعروف بتفسير الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) المسمى "حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل".

٤-كتب السير والمغازي والفتوح:

أسهمت كتب السير والمغازي والفتوح في تطور علم التاريخ، وأصبحت أساس الكتابة التاريخية عند العرب فقد كان علم التاريخ يقوم على دارسة سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) وحياة الصحابة، وأخبار الغزوات وحروب التحرير التي خاض العرب غمارها ضد الفرس والروم وحركة الفتوح العربية الإسلامية في المشرق والأندلس وفي مقدمة الكتب التي تناولت سيرة الرسول الكريم الكتاب الموسوم بـ(سيرة ابن هشام) أو (سيرة سيدنا محمد رسول الله) لأبي محمد عبد الملك بن هشام المتوفى سنة ٢١٨هـ وهو أول كتاب تاريخي متصل عن سيرة النبي الكريم وتاريخ العرب قبل الإسلام اعتمد فيه مؤلفه على الرواية الشفوية وعلى كتب ضاعت أهم كتاب سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لأبي عبد الله محمد بن إسحق (ت ١٥١هـ) الذي كان أول من ألف في السيرة النبوية بناء على طلب الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور وقد أضاف ابن هشام إلى السيرة النبوية بعض الروايات التي لم يذكرها ابن إسحق.

أما كتب المغازي والفتوح فيعتبر عروة بن الزبير (ت ٩٢هـ) أقدم من كتب في المغازي وقد وصلتنا بعض رسائله في مؤلفات الواقدي والطبري ويأتي

بعد عروة بن الزبير إبان بن عثمان بن عفإن(ت ١٠٥هـ) ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري (ت ١٢٤هـ) وشرحبيل بن سعد (ت ١٢٣هـ) والواقدي (ت ٢٠٧هـ) ومحمد بن سعد (ت ٢٣٠هـ) ومن كتب الفتوح أيضا كتاب "فتوح البلدان" للبلاذري (ت ٢٧٩هـ) وفتوح مصر والأندلس لابن عبد الحكيم (٢٥٧ هـ).

٥-كتب الطبقات والأنساب:

يقصد بكتب الطبقات الكتب التي عالج مؤلفوها سيرة طائفة معينة من القضاة أو الفقهاء أو الأدباء والشعراء والأطباء جيلا بعد جيل أو طبقة بعد طبقة، أما كتب الأنساب فتجمع تراجم أنساب الأشراف من العرب ومن أمثلة كتب الطبقات كتاب الطبقات الكبير أو طبقات ابن سعد لمؤلفه محمد بن سعد (ت ٢٣٠ هـ) وهو أشبه بدائرة معارف لسيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) ومغازيه وسيرة الخلفاء الراشدين والأمويين والصحابة وغيرهم حتى عهده وكان ابن سعد معاصرا للواقدي فأخذ الكثير عنه واعتمد على كتابه المعروف بطبقات الوافدي.

ومن كتب الأنساب أيضا كتاب أنساب الأشراف للبلاذري (٢٧٩هـ) وهو كتاب كبير بحث فيه مؤلفه تاريخ أشراف العرب قبل الإسلام وبعده حتى عصره فقد بدأ البلاذري كتابه بذلك نسب نوح عليه السلام ثم يصل إلى عدنان ويتدرج بعد ذلك نزولا إلى ذكر أخبار الرسول (صلى الله عليه وسلم) وسيرته حتى وفاته والى جانب هذين الكتابين هناك العديد من كتب الطبقات والتراجم الخاصة بالأدباء والأعيان والأمراء والعلماء والفقهاء والقضاة نذكر منها:

١- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان (شمس الدين أبو العباس).

٢- أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير (علي بن محمد) ت ٦٢٠هـ

٣- عيون الأبناء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة (موفق الدين أبو العباس).

٤- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين) .

٥- الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع، السخاوي (شمس الدين محمد) ت ٩٠٢هـ.

٦- طبقات الشافعية الكبرى، السبكي (تاج الدين عبد الوهاب) ت ٧٧١هـ.

٧- تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضي (أبو الوليد عبد الله بن محمد) ت ٤٠٢هـ.

٨- الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم ورفقائهم وأدبائهم، ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك). ت ٧٨هـ.

٩- كتاب صلة الصلة في تراحم أعلام الأندلس، ابن الزبير (أبو جعفر أحمد) ت ٧٠٨هـ.

١٠- تاريخ القضاة بقرطبة، الحنشي (محمد بن حارث) ت ٣٦١هـ.

١١- تاريخ قضاه الأندلس المسمى "المرتبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، النباهي (أبو الحسن بن عبد الله).

كتب التاريخ العام:

امتازت الكتابة التاريخية للعرب المسلمين عن الكتابات التاريخية الأخرى بمميزات عديدة جعلت التاريخ العربي الإسلامي أصلا مستقلا عن غيره فقد نشأ نشأه طبيعية أصيلة إذ نص القرآن الكريم عليه حيث قدم إشارات عن الأمم

والقـــبائل والأنبـــياء والرسل، مما دفع العلماء المسلمين للبحث عن تفاصيل هذه الإشارات والعمل على شرحها وتوضيحها فبرز عن هذه الطريق أوائل الأخبار بين الذين وضعوا التصانيف في تاريخ العرب.

وقـــد اتبع المؤرخون العرب في كتابة التاريخ منهجا فريدا بين المناهج التي عرفها العالم في العصر الوسيط، فوضعوا الكثير من المبادئ التي التزامها وأخـــذ بها المنهج العلمي الحديث في كتابة التاريخ والذي يقوم على جمع المادة التاريخـــية وفحصـــها وتحري أصولها ونقدها وعرضها عرضا علميا مترابطا يتضمن تحليلا للأحداث وربط الأسباب والنتائج.

وتـــناول معظـــم مؤرخي العرب التاريخ بنزاهة وإخلاص فامتنعوا عن التزلف لذوي الجاه والسلطات ورفضوا تناول صلات الأمراء تحاشيا لمحاباتهم، فكانوا يعيشون من موارد خاصة بهم، أو يمتهنوا أعمالا تدر عليهم ما يقيمون به أود حـــياتهم وفي مقدمة هؤلاء المؤرخين محمد بن جرير الطبري الذي يعرف بـــنزاهة وامتناعه عن قبول صلات الخلفاء والوزراء مكتفياً بإيراد الضيعة التي خلفها له أبوه في طبرستان ومسكوية الذي عاش في قصور سلاطين آل بوية إلا أنـــه لم يتزلف إليهم أو يحابهم فروى أخبارهم دون أي محاولة لإخفاء جرائمهم منددا بسوء سياستهم خصوصا معز الدولة كما نوه مسكوية بشجاعة وبطولة أبي الهيجاء الحمداني الذي كان من أعداء البويهين.

والمكتبة العربية تزخر بالحجم الغفير من التراث العربي الإسلامي التي تشكل موردا أساسيا لتاريخ الدولة العربية الإسلامية في عصورها المختلفة اتبع مؤلفوهـــا مـــناهج مختلفة في تناولهم للموضوعات فمنهم من كتب عن الأسرات الحاكمة أو الدول أو العهود كما اتضح ذلك لدى الدينوري في (الأخبار الطوال) وأبي الوليد إسماعيل بن الأحمر في (روضة النسرين من دولة بني مرين) وأبي

شـــامة في (الروضتين في أخبار الدولتين) وابن واصل في (مفرج الكروب في أخبار بني أيوب) واتجه البعض الآخر من المؤلفين إلى الكتابة في تاريخ الخلفاء والملـــوك والسلاطين كما فعل السيوطي في (تاريخ الخلفاء) والبلوي في (سيرة أحمد بن طولون) وابن زولاق في (سيرة الأخشيد) وابن شداد في (سيرة صلاح الدين) ومحي الدين بن عبد الظاهر في (تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور).

ومـــن أقدم مؤرخي العرب الذين كتبوا في تاريخ الدول والعهود المؤرخ اليعقوبـــي الـــذي كـــان مؤرخا ورحالة في آن واحد، وكتابه في التاريخ يقع في جزأيـــن الأول فـــي الـــتاريخ القديم، والثاني في التاريخ الإسلامي ابتدأه بمولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومغازية إلى وفاته وانتهى به إلى عصر الخليفة العباسي المعتمد على الله سنة ٢٥٩هـــ وكتابه هذا يدور حول الأشخاص الحكام والولاة.

ويعتبر كتاب (تاريخ الأمم والملوك) لمحمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـــ) من أهم المصادر في التاريخ العام، جمع فيه بين تفصيل المتكلمين وتدقيق الفقهـــاء وتبصير الساسة في الأمور، وقد اقتصر الطبري في القسم السابق على العصر الإسلامي الحديث عن مجموعة الأخبار عن الإسرائيليات وتاريخ العرب وبلاد فارس، أما حديثه عن سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) فقد اتبع فيه منهج كـــتاب السير والمغازي متتبعا الأحداث التي مرت بها الدولة العربية الإسلامية مـــنذ الهجـــرة النبوية وفقا للترتيب الزمني مع الاهتمام بذلك سلسلة الإسناد في الروايات المختلفة متبعا في ذلك منهج التأريخ الحولي.

ثـــم يأتي بعده كتاب (العقد الفريد) لأبي عمر بن عبد ربه (ت ٣٢٧هـــ) الـــذي تـــناول فيه أخبار العرب قبل الإسلام وفي العصر الإسلامي مع عرض

موجز لسيرة الخلفاء الأوائل، وكتاب (مروج الذهب ومعادن الجوهر) للمسعودي (ت٣٤٦هـــ) الــذي يعتـــبر موسوعة تاريخية وجغرافية حيث من يقتصر فيه المســعودي علـــى دراســة الموضــوعات المألوفــة عــند المؤرخين السابقين والمعاصــرين له، بل تطرق إلى ذكر قصة خلق العالم ووصف طبيعة الأرض ودراســة تاريخ الشعوب الأعجمية، وبحث في تاريخ العرب قبل الإسلام مؤكدا علـــى العناصـــر الحضارية خلال تلك المرحلة كما تناول بإيجاز السيرة النبوية وأبــدى اهــتماما خاصا بتاريخ الخلفاء متتبعا منهج الترتيب الزمني وللمسعودي كــتاب آخر هو "التنبيه والإشراف" ضمنه آراء في فلسفة التاريخ والكون، واهتم بوجــه خــاص بوصف البلدان المختلفة وبالإضافة إلى هؤلاء المؤرخين جاءت طائفـــة أخـــرى حذوا حذوهم نذكر منهم: حمزة الأصفهاني في مؤلفه الموسوم "تـــاريخ ســـني ملـــوك الأرض والأنبياء" الذي أبدى فيه اهتماما خاصا بأخبار خراســـان وطبرستان. ثم قسطنطين المنبجي في كتابه (العنوان) الذي تناول فيه جغرافـــية العالم وتاريخ بني إسرائيل واليونان والروم كما تعرض لتاريخ العرب وقد استفاد المنبجي كثيرا من الأخبار الواردة في الحوليات البيزنطية.

ثـــم يأتي كتاب (تجارب الأمم) لمسكويه (ت ٤٢١هـــ) معبرا عن خبرة بشـــؤون السياسة وإدراك كامل وتفهم شامل للتاريخ فاقتصر كتابه على عرض ســـريع لعصـــر النبوة دون التعرض للتاريخ الديني وبدأ كتابة بملوك الفرس ثم تعرض إلى البابليين والإغريق والروم والعرب قبل الإسلام ومن مؤرخي القرن الخـــامس الهجري أيضا الثعالبي (ت ٤٢٩هـــ) الذي اعتمد اعتمادا خاصا على الطبري في القسم الخاص بالتاريخ الإسلامي حتى عصر الخلافة العباسية متبعا في ذلك منهج التاريخ حسب عهود الخلفاء.

وشهد القرن السادس الهجري جمهرة من المؤرخين الذين أغنوا المكتبة التاريخية بمؤلفاتهم الموسوعية الهامة، نذكر منهم المؤرخ عبد الرحمن بن علي

المعــروف بابــن الجــوزي (ت ٥٩٧هــ) الذي ألف العديد من الكتب يأتي في مقدمــتها كتابه الشهير (المنتظم في تاريخ الملوك والأمم) (وشذور العقود) الذي لخــص فــيه كتابه السابق وتعرض فيه إلى جغرافية العالم وتاريخ بني إسرائيل حتى عصر السيد المسيح عليه السلام وتاريخ الفرس وغيرهم واستعرض أحداث التاريخ العربي الإسلامي بإيجاز متبعا منهج التاريخ الحولي.

أما كتاب (الكامل في التاريخ) لابن الأثير (ت ٦٣٠هــ) فيعتبر احسن ما صنف من كتب التاريخ العالمي والإسلامي على نسق الحوليات، حرص فيه على حفــظ الــتوازن بيــن أجزاء تاريخية مختلفة كما بذل جهدا عظيما في مراعاة الــتوازن بين الأحداث في مختلف أنحاء الدولة العربية الإسلامية وحيث يقترب مــن عصــره يحاول تفصيل الأحداث التاريخية دون إخلال بنسبة المادة التي يوردها في مؤلفه .

ثــم ظهــرت في القرن الثامن الهجري مجموعة من المؤلفات التاريخية وضع فيها الاتجاه الديني، حيث اهتم مؤلفوها بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وبــدءوا مؤلفــاتهم بالســنة الأولى للهجرة ويعتبر عماد الدين أبو الفدا إسماعيل المعروف بابن كثير (ت ٧٧٤هــ) على هذا الاتجاه بوضوح في مؤلفه الموسوم "البداية والنهاية" والفقيه ابن أبي الدم في مؤلفه (تاريخ الإسلام).

وهــناك مؤلفــات تاريخــية محلــية عبرت عن ارتباط المؤرخ بوطنه واعتزازه بمدينته أو بلده، واقدم أمثلة في هذا النوع من الكتابة ترجع إلى العراق حيــث ظهر كتابات أحدهما عن تاريخ بغداد لأحمد بن أبي طاهر طيفور وولده عبد الملك، والثاني عن تاريخ الموصل لأبي زكريا الأزدي وقد بقيت من هذين الكتابيــن فــي القرنين الثالث والرابع الهجري أقسام كبيرة وذكر ابن حزم ثلاثة

كتـــب في خطط البصرة وقطائعها وذكر أسواقها ومحالها وشوارعها، كما ذكر كتابا عن الكوفة لعمر بن شبه.

أمـــا فيما يختص بالكتب التي صنفت عن مصر فيأتي في مقدمتها كتاب تـــاريخ مصر وفضائلها لأبي محمد الحسن بن زولاق (ت ٢٨٧هــ) الذي اهتم بذكر أخبار مصر القديمة وكتاب محمد بن عبيد الله بن أحمد المسبحي (ت ٤٢٠ هــ) الذي ذيل لـــه محمد بن علي بن يوسف بن ميسر (ت ٦٧٧هــ) في كتابه عـــن تـــاريخ مصر غير أن أبرز المؤلفات عن تاريخ مصر هو كتاب المواعظ والاعتـــبار بذكـــر الخطط والآثار للمقريزي، وكتاب الدر المنظوم فيما ورد في مصـــر من موجود ومعدوم لعلي بن داود الجوهري وكتاب حسن المحاضرة في أخبار مصرة والقاهرة لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١هــ).

وفـــي الشـــام ظهـــرت أقدم أمثلة الكتابة في التاريخ المحلي منذ القرن السادس الهجري فقد خصص ابن القلانسي (ت ٥٥٥هــ) كتابه ذلك تاريخ دمشق عن تاريخ هذه المدينة وما يدور حولها من أخبار ثم ظهرت مؤلفات أخرى عن مـــدن الشام وخاصة في تاريخ حلب مثل كتاب زبدة الطلب في تاريخ حلب لابن العديـــم (ت ٦٦٠هــــ) الـــذي خصصه لتاريخها السياسي وهناك نوع آخر من التاريخ المحلي يجمع بين تاريخ الأسر الحاكمة وتاريخ المدن التي كانت تحكمها مثل كتاب تاريخ بيروت وأمراء بني بحتر لصالح بن يحيى.

أما فيما يخص اليمن فقد ظهرت عدة كتب محلية هامة منذ القرن الرابع الهجري اختلط التاريخ بالدراسة العمرانية والأنساب ومن امثلة هذا النوع كتابي الأكلـــيل وصفة جزيرة العرب للهمداني (ت ٣٣٤هــ) وكتاب المفيد في أخبار زبـــيد لعمارة اليماني الشاعر (ت ٥٦٩هــ) وقد أكمله ابن الربيع صاحب كتاب بغـــية المســـتفيد في أخبار مدينة زبيد (ت ٩٤٤هــ) وكتاب عن تاريخ صنعاء

لأبـــي العباس أحمد الرازي الصنعاني الذي انتهى فيه من سنة ٤٦٠هـــ وظهر هذا النوع من المؤلفات في الأندلس من خلال الكتب التي ألفها أحمد الرازي مثل كتاب مسالك الأندلس ومراسيها وأمهات مدنها وأجنادها ووصف قرطبة وخططها ومـــنازل الأعيان بها، وممن كتب في التاريخ المحلي الأندلسي أيضا إسحق بن مسلمة بن إسحق الليثي في أخبار المرية وحصونها وابن حيان في كتابه المتقتبس فـــي ذكر الأندلس وكتاب البيان المغرب في ذكر أخبار الأندلس والمغرب لابن عـــذاري ويغلـــب على هذه المؤلفات الناحية الدينية والتراجم حيث أن معظمها يتـــناول تاريخ قضاة قرطبة والقيروان وتاريخ علماء الأندلس والمغرب وأنساب مشاهير الرجال فيها.

وهناك بعض المؤلفات التي يمكن إدراجها ضمن التاريخ المحلي الدنيوي علمـــا بأنهـــا تتخصص في موضوعات تتعلق بالإدارة والقضاة مثل فتوح مصر لابن عبد الحكم وكتاب رفع الأصر عن قضاة مصر لابن حجر وتاريخ بخارى للنرشجي.

وضـــم التراث العربي مؤلفات استهدفت التعريف بأهمية ومكانة بعض المـــدن العربـــية الإسلامية وبيان قدسيتها ومن أمثلتها أخبار مكة للأزرقي (ت ٢٤٤هـــ) الذي أفرد مادته لذكر القصص التي تواترت على الناس منذ عصر ما قـــبل الإسلام حول الحرم المكي ووصف الشعائر المتصلة بالحرم وكتاب الدرر الثميـــنة فـــي أخبار المدينة لابن النجار الذي اقتصر على ذكر خطط المدينة مع عـــرض لـــتاريخ بيت المقدس وكتاب أخبار مكة لمحمد بن إسحق الفاكهي من مؤرخـــي أواخر القرن الثالث الهجري، وكتاب شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام للتقي الفاسي.

كتب الجغرافية:

تعتـــبر كتب الجغرافية ذات قيمة كبرى في تاريخ الدولة العربية لا تقل عـــن قيمة كتب التاريخ ذاتها ذلك لأن أغلب هذه الكتب لا يقتصر على جغرافية الـــبلاد من وصف وتضاريس ولكن يعرض للحوادث وينقل الروايات التاريخية خصوصـــا وأن أغلب مؤلفيها كانت لهم تصانيف في التاريخ وكان اتساع رقعة الدولـــة العربـــية فـــي العصر الأموي قد دفع العرب إلى الاهتمام بوصف أقاليم الدولـــة ومدنها وذكر مسالكها وطرقها وحاصلاتها ومناخها من جهة تقدير قدرة البلاد التي خضعت للعرب على دفع الجزية والخراج فظهرت الجغرافية الإدارية فـــي كتاب المسالك والممالك لابن خردابة (ت ٣٠٠هـ) وكتاب الخراج وصفه الكتابة لقدامة بن جعفر (ت ٣١٠هـ).

ومـــن أشـــهر الجغرافييـــن العـــرب في القرن الثالث الهجري اليعقوبي (ت ٢٨٤هـــ) فـــي كتابه البلدان الذي تضمن معلومات هامة عن البلاد التي زارهـــا وقد أولى اليعقوبي اهتماما خاصا لوصف بغداد وسامراء وصفا تفصيليا إلـــى جانـــب حرصه على تدوين الملاحظات عن المجتمعات التي تعرض إليها وتواريـــخ الأســـر الحاكمـــة وكذلك محمد بن موسى الخوارزمي وكتابه صورة الأرض ويلـــيه ابـــن الفقيه الحمداني في كتابه مختصر كتاب البلدان وصف فيه الصـــين والهـــند وبلاد العرب ثم يأتي بعد هؤلاء جمهرة من الجغرافيين الذين برزوا خلال القرن الرابع الهجري نذكر منهم البلخي (ت ٣٢٢هـ) الذي وضع كـــتاب الأشكال أو صورة الأقاليم ضمن مجموعة من الخرائط مع شروحها، ثم الاصـــطخري أبـــو إسحق إبراهيم في المسالك والممالك، وابن حوقل أبو القاسم محمد (ت ٣٨٠هـ) وفي المسالك والممالك والمغاوز أو صورة الأرض وقد حذا فيه حذو الاصطخري.

ومن جغرافي القرن الرابع الهجري أيضا أبو عبد الله محمد بن أبي بكر المقدسي (ت ٣٨٧هـ) وكتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ويعتبر خلاصة رحلات وأسفار طويلة في الدولة العربية وخدمات للملوك ومجالسه القضاة والأخذ عن الفقهاء والعلماء ومما يؤثر عن المقدسي اهتمامه بتحري الدقة وتسجيل الأخبار الغريبة ثم الجغرافي أبو محمد الحسن بن يعقوب الهمذاني (ت ٣٣٤هـ) وكتابه صفة جزيرة العرب الذي يحث فيه جغرافية بلاد العرب وجبالها ومساكنها ومدنها وأثارها ومعادنها.

وقد ظهر بعد ذلك عددا من الجغرافيين العرب الذين أغنوا المكتبة الجغرافية بمؤلفاتهم التي أصبحت مراجع هامة يعتمد عليها الباحثون فيما بعد، وفي مقدمة هؤلاء نذكر الشريف الإدريسي أبو عبد الله محمد (ت ٥٦٤هـ) وكتابه صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس مأخوذ عن كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق وكان الإدريسي قد زار صقلية وأتصل بملكها (روجار الثاني) الذي أعجب بعلمه وطلب منه أن يؤلف له كتابا عن صورة الأرض فأجابه الإدريسي إلى ذلك وألف له كتابا اسماه نزهة المشتاق أو الكتاب الروجاري وقد عرف الإدريسي بلقب استرايون العرب ويعد من أعظم جغرافي العصور الوسطى.

ومن الجغرافيين الذين ألفوا الموسوعات الجغرافية الهامة ياقوت الحموي (ت ١٢٦هـ) في كتابه معجم البلدان الذي يعتبر معجما تاريخيا لحياة العرب ودولهم وممالكهم ويمتاز بترتيبه على حروف الهجاء وباتساع مادته وجمعه بين المادة الجغرافية والمادة التاريخية والأدبية وقد اختصر السيوطي معجم البلدان في كتاب أسماه مختصر معجم البلدان كما استخلص ابن عبد الحق البغدادي من معجم البلدان مادة الجغرافية ووضعها في كتاب مراصد الاطلاع في أسماء الأمكنة والبقاع.

أمـــا النويري (شهاب الدين أحمد ت ٧٣٣هــ) فقد أفرد القسم الأول من مؤلفه نهاية الأرب في فنون الأدب للحديث عن السماء العلوية والأرض والمعالم السـفلية وكذلــك القلقشندي (ت ١٢١هــ) في كتابه الموسوم صبح الأعشى في صناعة الأنشا الذي كتبه بديوان الأنشا بمصر ورتبه على مقدمة وعشر مقالات وخاتمــة وأخـيرا نذكر العمري شهاب الدين بن فضل الله ٧٤٨هــ في مؤلفه الموســوم مســالك الأبصـــار في ممالك الأبصار الذي بدأ فيه بالمشرق وختمه بالمغرب.

كتب الرحلات:

كانـــت الرحلة من العناصر القوية البارزة في حياة المجتمع العربي في عصور الازدهار وقد ساعد على ذلك اتساع رقعة الدولة العربية الإسلامية وقيام المراكــز العلمية في البصرة والكوفة وبغداد وبخارى وسمرقند ومرو ونيسابور والفســطاط والقاهــرة والإسكندرية وطرابلس ودمشق وتونس والقيروان وفاس وقرطــبة وغــرناطة وغــيرها من المدن التي حملت مشعل الحضارة العربية الإســـلامية وكـــان من الطبيعي أن يرحل العرب من مركز علمي إلى آخر في الدولـــة العربـــية التماســـا للعلـــم ورغبة في تحصيله على شيوخه في المشرق والمغرب على أن الحج ظل يشكل أساساً من أسس الرحلات بين أقطار المشرق والمغرب باعتباره فريضة من فرائض الدين الإسلامي الحنيف.

وقـــد حـــرص الـــرحالة العرب على تدوين مشاهداتهم وتسجيل أخبار رحلاتهـــم وأســـفارهم فذكـــروا المدن التي نزلوها والمسافات التي قطعوها في تـــنقلاتهم ووصـــفوا ما شاهدوا من نواحي الحضارة في كل بلد طرفوه، كما أن بعضهم وصف بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في الأقطار المختلفة وعلى الرغم مـــن تعـــدد دوافع الرحلات فإن ما وصلنا من كتب الرحلات ضئيل للغاية ولعل

السبب في ذلك يعود إلى ضياع معظمها والى أن كثير من الرحالة آثر أن يدمج مشاهداته فيما ألفه من كتب تاريخية أو جغرافية (مثل ابن حوقل والمسعودي).

ومـــن الرحالة الذين برزوا في القرن الرابع الهجري أحمد بن عباس بن رشـــيد المعروف بابن فضلان الذي أوفده الخليفة العباسي المقتدر بالله إلى ملك الـــبلغار ســـنة ٣٠٩هـــــ وقد دون ابن فضلان وصفا لرحلته هذه في كتاب يعد مـــرجعا اساسيا للجغرافيين أمثال ياقوت والمسعودي والاصطخري ومن الرحالة العـــرب في هذا القرن المسعودي الذي اكتسب شهرته كمؤرخ وجغرافي ورحالة وقـــد زار المســـعودي بلاد فارس ومناطق من الهند كما زار الصين ومدغشقر وآســـيا الصغرى والشام ثم استقر بمصر حيث توفي هناك وكتابه مروج الذهب ومعـــادن الجوهـــر ســـجلا هاما لرحلاته وملاحظاته دون فيه خلاصة تجاربه وخبراته في الرحلات.

ومـــنذ القرن السادس الهجري أصبح بالإمكان تميز فريقين من الرحالة العـــرب المشـــارقة والرحالة العرب المغاربة ويمثل الفريق الأول الهروي (أبو الحســـن علـــي بن أبي بكرت ٦١١هــ) وكتابه الإشارات إلى معرفة الزيارات وعـــبد اللطـــيف البغدادي (توفي في أوائل القرن السابع الهجري) مؤلف الكتاب الموسوم الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر.

أمـــا الرحالة المغاربة فيأتي في مقدمتهم ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمـــد البلسني ت ٦١٤هــ) كتابه تذكره بالأخبار عن اتفاقات الأسفار المشهور بالـــرحالة ابـــن جبـــير، ثم ابن سعيد المغربي (ت ٦٧٣هــ) في مؤلفه الموسوم الـــنفحة المســـكية فـــي الرحلة المكية وكتاب المغرب في حلى المغرب وكتاب المشرق في حلى المشرق ومن الرحالة المغاربة نذكر أيضا ابن بطوطة (أبو عبد الله محمـــد بـــن محمد الطنجي ت ٧٧٠هــــ) ومؤلفه الموسوم تحفة الأنظار في

غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروف برحلة ابن بطوطة ثم التيجاني (أبو محمد عبد الله بن محمد ت ٧١٨هـ) صاحب كتاب رحلة التيجاني وابن رشيد السبتي الفهري (ت ٧١١هـ) الذي قام برحلتين الأولى طاف فيها بنواحي المغرب والثانية جاب خلالها مدن الأندلس وكذلك البلوي (أبو البقاء خالد بن عيسى توفي في أواخر القرن الثامن الهجري وكتابه تاج المغرب في تحلية علماء المشرق ثم الغرناطي (أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم ت ٥٦٥هـ) في كتابه الموسوم نخبة الأذهان في عجائب البلدان.

كتب الأدب:

تعرضت كتب الأدب العربي لرواية بعض الأخبار الخاصة بالبلدان أو القضايا التاريخية والاجتماعية والاقتصادية التي تساعد الباحث في التاريخ والحضارة العربية على الإلمام بجوانب من هذه الحضارة ومن أمثلة الكتب الأدبية التي تعتبر مصادر هامة للتاريخ العربي الإسلامي كتب عمرو بن بحر المعروف بالجاحظ (الحيوان، البخلاء، وكتاب البيان والتبيين، وكتاب التبصر بالتجارة وكتاب التاج في أخلاق الملوك. ومؤلفات ابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦ هـ) عيون الأخبار والمعارف، الإمامة والسياسة، والشعر والشعراء، وكذلك كتاب المبرد محمد بن يزيد (ت ٢٨٥هـ) الموسوم بالكامل وكتاب الأغاني لأبي فرج علي بن الهيثم المعروف بالأصفهاني وكذلك كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر لمحمد بن أبي طالب الدمشقي المعروف بشيخ الربوة كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وكتاب أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض للمقرئ.

كتب الشعر العربي:

يعتبر الشعر العربي من المصادر الهامة لتاريخ العرب وحضارتهم فهو يصور أحوالهم الاجتماعية والسياسية والدينية ويقدم صورة واضحة عن طباعهم وعاداتهم وأخلاقهم وقد قيل في الشعر العربي أنه ديوان العرب وهو ديوان علمهم ومنتهى حكمهم به يأخذون، إليه يصيرون وبه حفظت الأنساب وعرفت المآثر ومنه تعلمت العربية وعلى الرغم من أن الشعر العربي قد تعرض للضياع بسبب تدوينه في تاريخ متأخر وقد تولى جمعه عدد من الرواة الحاذقين الذين تخصصوا برواية الشعر وممن اشتهر بجمعه منهم حماد الرواية (ت ١٥٥هـ) وأبو عمرو العلاء (ت١٥٤هـ) والأصمعي والمفصل بن محمد الكوفي صاحب المفضليات، وأبو عمرو إسحق بن مرار الشيباني وأبو عبد الله محمد ابن زياد الأعرابي وخلاد بن يزيد.

بالإضافة إلى الشعر العربي هناك الأمثال العربية التي تعبر عن بيئة العرب وتطورها ومن أهم المصادر في هذا الموضوع كتاب مجمع الأمثال لأبي الفضل بن محمد النيسابوري المعروف بالميداني (ت ٥١٨هـ) ويشتمل الكتاب على نيف وستة آلاف مثل مرئية على حروف المعجم وتمتد من مرحلة ما قبل الإسلام إلى نهاية عصر الخلفاء الراشدين.

كتب الخراج:

وهي المؤلفات التي عالجت النظم الاقتصادية في الدولة العربية من الناحية النظرية أو الفقهية ومثل هذه المؤلفات لها أهميتها في إمداد الباحثين بمعلومات دقيقة عن الأوضاع الاقتصادية خلال حكم الخلفاء الراشدين والأمويين ومن أمثلة هذه الكتب: كتاب الخراج لأبي يوسف (ت ١٨٢هـ) الذي يتضمن أخبارا هامة عن الفتوح ونظم الخراج وكذلك كتاب الخراج لأبي الفرج قدامة بن

جعفر (ت ٣٣٧هـ) الذي تناول فيه الدولة العربية وما جاورها من البلاد، ونظام الثغور ومنها كتاب الأحكام السلطانية لأبي الحسن الماوردي (ت ٥٠٤هـ) الذي تحدث عن الخلافة ونظام القضاء والنظم المالية.

كتب الخطط:

تمد هذه الكتب الباحثين بمعلومات مهمة عن المنشآت المعمارية والمعالم الطبوغرافية والعمران المدني والتخطيط خلال عصور الدولة العربية الإسلامية وأشـــهر مـــن كتب في هذه الموضوعات المقريزي في مؤلفه الموسوم المواعظ والاعتـــبار بذكر الخطط والآثار وأخيرا كتب الحسبة التي تقدم للباحثين صورا عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية ومن الكتب التي وصلتنا نذكر:

١- كـــتاب معـــالم القـــرية فـــي أحكام الحسبة، لمحمد بن محمد القريشي. المعروف بابن الأخوة.

٢- كتاب آداب الحسبة، لأبي عبد الله القسطي.

٣- كتاب آداب الحسبة، لابن عبدون.

٤- كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة، لعبد الرحمن الشيرزي

٥-كتاب الحسبة في الإسلام، لأحمد بن تيمية.

المصادر والمراجع

المصادر:

١. ابن الأثير: عز الدين علي بن محمد الجزري الشيباني (ت ٦٣٠هـ). "الكامل في التاريخ" لبنان ١٩٦٦.

٢. ابن الأخوة القرشي: محمد بن محمد (ت ٧٢٩هـ). " معالم القربة في أحكام الحسبة" كامبرج ١٩٣٧.

٣. ابن أعثم: أبو محمد أحمد بن أعثم الكوفي. (ت ٣١٤هـ). "كتاب الفتوح" مطبعة مجلس دار المعارف حيدر أباد- ١٩٧٢.

٤. الأزدي: أبو زكريا يزيد بن محمد (ت ٣٣٤هـ)."فتوح الشام" كلكتا ١٨٥٤.

٥. الأزرقي: أبو الوليد محمد بن عبد الله (ـ٢٤٤هـ). "أخبار مكة" تحقيق رشدي صالح ملحس- بيروت ١٩٧٩.

٦. الأصفهاني: أبو نعيم أحمد بن عبد الله (ـ٤٣٠هـ). "حلية الأولياء" القاهرة. ١٩٣٨.

٧. ابن أبي الحديد: عبد الله بن أحمد (ت ٦٥٦هـ). "شرح نهج البلاغة" القاهرة ١٩٦٢.

٨. البلاذري: أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ). "أنساب الأشراف" القدس ١٩٣٦.

٩. ____________: "فتوح البلدان" نشر صلاح الدين المنجد- القاهرة ١٩٥٧.

١٠. ابن الجوزي : أبو الفرج عبد الرحمن (ت ٥٩٧هـ). "مناقب عمر بن الخطاب" القاهرة (د.ت).

١١. الجهشياري: أبو عبد الله محمد بن عبدوس (ت ٣٣١هـ). "الوزراء والكتاب" القاهرة ١٩٣٨.
١٢. ابن حجر العسقلاني: أبو الفضل أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ)."الإصابة في تميز الصحابة" القاهرة ١٩٣٩.
١٣. الحنبلي: الحافظ أبي الفرج (ت ٧٩٥هـ). "الاستخراج لأحكام الخراج" القاهرة ١٩٣٤.
١٤. الحنبلي: أبو الفلاح عبد الحي بن العماد (ت ١٠٨٩هـ). "شذرات الذهب" القاهرة ١٣٥٠هـ.
١٥. ابن حوقل: أبو القاسم محمد بن علي (ت القرن الرابع الهجري). "كتاب صورة الأرض" بيروت (د.ت).
١٦. أبو حنيفة الدينوري: أحمد بن داود (ت ٢٨٢هـ). "الأخبار الطوال" تحقيق محمد عبد المنعم عامر القاهرة ١٩٦٠.
١٧. ابن خرذابه: أبو القاسم عبد الله بن عبد الله (ت ٣٠٠هـ) "المسالك والممالك" لايدن-١٨٨٩.
١٨. ابن خلدون: ولي الدين بن عبد الرحمن (ت ٨٠٨هـ) "المقدمة" بيروت ١٩٨١.
١٩. ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد (ت ٦٨١هـ). "وفيات الأعيان" تحقيق: محمد محي الدين القاهرة ١٩٤٨.
٢٠. خليفة بن خياط: أبو عمرو (ت ٢٤٠هـ). "تاريخ خليفة بن خياط" تحقيق سهيل زكار دمشق ١٩٦٥.
٢١. الدينوري: ابن قتيبة أبو محمد عبد الله (ت ٢٧٦هـ). "الإمامة والسياسة" القاهرة ١٩٦٣.

٢٢. الذهبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ). "تاريخ الإسلام" القاهرة ١٣٦٩.
٢٣. ابن رسته: أبو علي بن عمر (توفي القرن الثالث الهجري) "الأعلاق النفيسة" لايدن- ١٨٩١.
٢٤. الزبيدي: محب الدين أبي الفيض (ت ١٢٠٥هـ) "تاج العروس من جواهر القاموس" القاهرة ١٣٠٦هـ
٢٥. ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع البصري (ت ٢٣٠هـ). "الطبقات الكبرى" بيروت ١٩٦٨.
٢٦. السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ). "تاريخ الخلفاء" تحقيق محمد محي الدين القاهرة- ١٩٦٩.
٢٧. الشافعي: محمد بن ادريس (ت ٣٠٤هـ). "الأم" بولاق-١٣٢١هـ
٢٨. الشريشي: أحمد بن عبد المؤمن (ت ٤٥٧هـ). "شرح مقامات الحديدي" القاهرة ١٩٥٢.
٢٩. الشهر ستاني: محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨هـ). "الملل والنحل" القاهرة ١٩٦٨.
٣٠. الصولي: أبو بكر محمد (ت ٣٣٥هـ). "أدب الكتاب" تحقيق محمد بهجت الأثري القاهرة ١٣٤١هـ.
٣١. ابن طباطبا: محمد بن علي. "الفخري في الآداب السلطانية والدول العربية" بيروت ١٩٦٠.
٣٢. الطبري: محمد بن جرير (ت ٣١١هـ). "تاريخ الطبري" (تاريخ الرسل والملوك) تحقيق أبو الفضل إبراهيم القاهرة (١٩٦٠-١٩٦٩).
٣٣. ابن عبد الحكم: عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢٥٧هـ)."فتوح أفريقية والأندلس" بيروت ١٩٦٤.

٣٤. ____________: "فتوح مصر وأخبارها" لايدين- ١٩٢٠.

٣٥. ابن عبد ربه: أبو عمر شهاب الدين (ت ٣٢٧هـ). "العقد الفريد" القاهرة- ١٩٤٤.

٣٦. أبو عبيد: القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ). "الأموال" تحقيق : محمد خليل هراس القاهرة ١٩٦٨.

٣٧. ابن عذارى: أبو عبد الله محمد المراكشي (ت ٧١٢هـ). "بيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب" لايدن- ١٩٥١.

٣٨. ابن عساكر: أبو القاسم علي بن الحسن (ت ٥١٧هـ). "التاريخ الكبير" دمشق ١٣٢٧هـ.

٣٩. أبو علي: سعيد بن محمد (ت ٣٣٤هـ). "تاريخ الرقة" حماه ١٩٥٩.

٤٠. العمري: ابن فضل الله (ت ٧٤٩هـ). "مسالك الأبصار" القاهرة- ١٩٢٤.

٤١. قدامة: أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي (ت ٣٣٧هـ). "الخراج وصناعة الكتابة" تحقيق الدكتور محمد حسين الزبيدي- بغداد-١٩٨١.

٤٢. ابن قدامة: أبو محمد عبد الله بن محمد (ت ٦٢٠هـ). "المغنى" تحقيق محمد رشيد رضا القاهرة- ١٣٦٧هـ.

٤٣. القلقشندي: ابن أبي العباس أحمد (ت ٨٢١هـ). "صبح الأعشى" القاهرة-(د.ت).

٤٤. الكندي: أبو عمر محمد بن يوسف (ت ٣٥٠هـ). "كتاب الولاة وكتاب الفقهاء" بيروت ١٩٠٨.

٤٥. الكاساني: علاء الدين أبي بكر (ت ٥٨٧هـ). "بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع" تحقيق أحمد مختار القاهرة- (د.ت).

٤٦. المـــاوردي: أبو الحسن علي بن محمد (ت٤٥٠هـــ). "الأحكام السلطانية" القاهرة -١٩٦٠.
٤٧. ____________: أدب القاضي: - بغداد-١٩٧٠.
٤٨. المـــبرد: أبو العباس بن يزيد (ت ٢٨٥هـــ). "الكامل في الأدب" -بيروت (د.ت)
٤٩. المقدســـي: شمس الدين أبو عبد الله محمد (ت ٣٨٧هـــ)."أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" -لايدن -١٩٠٦.
٥٠. المقريزي: تقي الدين أبو العباس (ت٨٤٥هـــ)."الخطط" بولاق-١٢٧٠.
٥١. ____________: "النقود" -القاهرة -١٩٣٩
٥٢. المقرئ: أحمد بن محمد (ت١٠٤١هـــ). "نفح الطيب" تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - القاهرة- ١٣٦٧هـــ.
٥٣. المســـعودي: أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـــ). "مروج الذهب ومعادن الجوهر" - بيروت - ١٩٦٥.
٥٤. ابن منظور: أبو الفضل محمد بن مكرم الأنصاري (ت ٧١١هـــ). "لسان العرب المحيط" -بيروت- ١٩٧٠.
٥٥. النويري: شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢هـــ). "نهاية الأرب في فنون الأدب" - القاهرة -(د.ت).
٥٦. ابن هشام: أبو محمد عبد الملك (ت ٢١٣هـــ). "سيرة ابن هشام" - تحقيق مصطفى السقا- القاهرة -١٩٣٦.
٥٧. الواقـــدي: محمـــد بن عمر (ت ٢٠٧هـــ). "فتوح الشام" تحقيق عمر أبو النصر بيروت -١٩٦٦.
٥٨. وكـــيع: محمد بن خلف بن حيان (توفي في أوائل القرن الرابع الهجري). "أخبار القضاة" -القاهرة-١٩٤٧.

٥٩. يـــاقوت الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦هــ). "معجم البلدان" بيروت - ١٩٦٥.
٦٠. اليعقوبي: احمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب (ت ٢٨٤هــ). "تاريخ اليعقوبي" - بيروت- ١٩٦٠.
٦١. أبـــو يعلي: محمد بن الحسين الحنبلي (ت ٤٥٨هــ). "الأحكام السلطانية" صححه وعلق عليه محمد حامد الفقي -القاهرة- ١٩٣٨.
٦٢. أبـــو يوســـف: القاضــــي يعقوب بن إبراهيم الأنصاري (ت ١٨٢هــ). "الخراج" القاهرة -١٣٨٢هــ.

المـــراجـــع

المراجع العربية:

٦٣. ارنولـــد، تومـــاس: "الدعوة إلى الإسلام" - ترجمة حسن إبراهيم حسن - القاهرة ١٩٥٧.
٦٤. اولـــيري، دي لاســـي: "مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب" ترجمة تمام حسان -القاهرة -١٩٦١.
٦٥. بخيت، عبد الحميد: "عصر الخلفاء الراشدين" - القاهرة- ١٩٦٥.
٦٦. بدوي، عبد الرحمن: "التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية" -القاهرة - ١٩٦٥.
٦٧. بيضـــون، إبراهـــيم: "الدولـــة العربية في إسبانيا من الفتح حتى السقوط الخلافة (٩٢-٤٢٢هــ)" -بيروت- ١٩٨٧.
٦٨. بروكلمان، كارل: "تاريخ الشعوب الإسلامية" -بيروت-١٩٦٥.
٦٩. جـــوزي-بندلـــي:"مـــن تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام" - بيروت - (د.ت).

٧٠. حسن، حسن إبراهيم: "تاريخ الإسلام السياسي" القاهرة -١٩٦٤.

٧١. ____________: "النظم الإسلامية" -القاهرة-١٩٧٠.

٧٢. الحديثي، نزار: "محاضرات في التاريخ العربي" - بغداد-١٩٧٩.

٧٣. حسيني، عبد القادر السيد: "الإدارة العربية" القاهرة- (د.ت).

٧٤. الخضـــري، محمـــد: "محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية" -القاهرة- ١٩٢٦.

٧٥. الدجيلي، خولة: "بيت المال" - بغداد- ١٩٧٦.

٧٦. دكسن، عبد الأمير: "الخلافة الأموية ٦٥-٨٦هـ/٦٨٤-٧٠٥م" -بيروت -١٩٧٣.

٧٧. الدوري، عبد العزيز: "العصر العباسي الأول" -بغداد-١٩٤٢.

٧٨. ____________: "النظم الإسلامية" -ج ١-بغداد ..١٩٥٠

٧٩. ____________: "مقدمـــة فـــي التاريخ الاقتصادي العربي" بيروت - ١٩٦٩.

٨٠. ____________: "الجذور التاريخية للشعوبية" - بيروت -١٩٨٠.

٨١. دياب، صابر: "سياسة الدولة الإسلامية في حوض البحر المتوسط" القاهرة -١٩٧٣.

٨٢. الـــريس، ضياء الدين: "الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية" القاهرة - ١٩٥٧.

٨٣. سالم، عبد العزيز: "التاريخ والمؤرخون العرب" الإسكندرية -١٩٦٧

٨٤. السامرائي، خليل إبراهيم: "الثغر الأعلى الأندلسي" - بغداد -١٩٧٦.

٨٥. ســـرور، محمد جمال: "تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق" القاهرة- ١٩٦٥

٨٦. شلبي، أحمد: "التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية" القاهرة- ١٩٦٩.

٨٧. الصالح، صبحي: "النظم الإسلامية" - بيروت- ١٩٧٦.

٨٨. صايغ، سليمان: "تاريخ الموصل" - موصل -١٩٢٣.

٨٩. العدوي، إبراهيم: "الأمويون والبيزنطيون" - القاهرة - ١٩٦٣.

٩٠. العلـــي، أحمد صالح: "التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري" بيروت - ١٩٦٩.

٩١. علي، سيد أمير: "مختصر تاريخ العرب" - ترجمة عفيف بعلبكي. بيروت -١٩٦١.

٩٢. العانـــي، عـــبد اللطيف: "إدارة بلاد الشام في العهدين الراشدي والأموي" بغداد ١٩٦٨.

٩٣. عـــثمان، فتحـــي: "الحـــدود الإســـلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري" - القاهرة- ١٩٦٦.

٩٤. عمر، فاروق: "طبيعة الدعوة العباسية" - بيروت - ١٩٧٠.

٩٥. ___________: "العباسيون الأوائل" - بغداد -١٩٧٧.

٩٦. عنان، محمد عبد الله: "دولة الإسلام في الأندلس" - القاهرة- ١٩٥٥.

٩٧. غلـــوب، جون باجوت: "الفتوحات العربية الكبرى" ترجمة خيري حماد - بغداد ١٩٦٣.

٩٨. فلوتـــن، فـــان: "السيادة العربية" ترجمة حسن إبراهيم حسن - القاهرة - ١٩٣٤.

٩٩. فلهـــاوزن، يولـــيوس: "الدولة العربية وسقوطها" ترجمة يوسف العش - دمشق ١٩٥٦.

١٠٠. الفـــياض، عبد الله: "محاضرات في تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية" بغداد ١٩٦٧.

١٠١. فيليب، حتي: "تاريخ العرب المطول" - القاهرة-١٩٥٢.

١٠٠. الفياض، عبد الله: "محاضرات في تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية" بغداد ١٩٦٧.

١٠١. فيليب، حتي: "تاريخ العرب المطول" القاهرة-١٩٥٢.

١٠٢. فيصل- شكري: "حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول الهجري" بيروت ١٩٥٢.

١٠٣. كاهن، كلود: "تاريخ العرب والشعوبية الإسلامية" ترجمة بدر الدين القاسم بيروت ١٩٧٢.

١٠٤. الكبيسي، عبد المجيد صالح:"عهد هشام بن عبد الملك" بغداد ١٩٧٥.

١٠٥. المعاضيدي، عبد القادر: "واسط في العصر الأموي" بغداد ١٩٧٦.

١٠٦. معروف، نايف: "الخوارج في العصر الأموي" بيروت ١٩٨١.

١٠٧. مؤنس، حسين: "فتح العرب للمغرب" القاهرة- ١٩٥٩.

١٠٨. ________: "فجر الأندلس" القاهرة ١٩٥٩.

١٠٩. النقشبندي، ناصر السيد محمود: "الدرهم الإسلامي" بغداد ١٩٦٩.

١١٠. نعمان، ثابت: "الجندية في الدولة العباسية" بغداد ١٩٥٦.

المراجع الأجنبية:

111. Bury. J.B. “Ahistory of the later Roman Empire” London –1889.

112. Hitti,P. “History of the Arabs" London –1981

113. Segal, J.B. "Edessa" Oxford –1970

114. Watt. M- “Ahistory of Islamic Spain” Edinburgh 1965

115. Zakaria, R "Rise of Muslims In Indian Politics” Bomby – 1971.

المحتويات